طيفٌ على جدار الثلج

الطبعة الأولى

١٤٤١ هـ ٢٠٢٠م

تنبيه

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزال مادته بطريقة الاسترجاع أو نقله على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو بالتصوير أو بالتسجيل أو خلاف ذلك إلا بموافقة المؤلف والناشر على هذا كتابة ومقدمًا.

رقم الإيداع

٢٠١٩/٢٢٣٥٣

بطاقة فهرسة

فؤاد، هند

طيف على جدار الثلج/ رواية، د. هند فؤاد، ط١ - القاهرة: دار غراب للنشر والتوزيع: ٢٠١٩

٢٩٦ صفحة؛ ١٤ x ٢٠ سم

تدمك: ٩-١٩٣-٧٨٦-٩٧٧-٩٧٨

١- القصص العربية

أ - العنوان

٨١٣

دار غراب للنشر والتوزيع

٨ عمارات الواحة - قطعة ١٠

مدينة نصر القاهرة

ت: ٠١١١٠٣٧١٦٤٠

info@ghorabpublishing.com

تصميم الغلاف

عمرو الحو

التدقيق اللغوي

خالد رجب عواد

التنسيق والإخراج

أحمد البسيوني

طيفٌ على جدار الثلج

رواية

د. هند فؤاد

إهداء

إلى طيف توحَّد مع حُلمه فوق جمود الثلج، حتى تجسَّد الحُلم، وتحرَّر الطيف وذاب الجليد..

إلى كل بلال يعيش بيننا "طيفًا" من خيال..

أنت بطل لا محالة.

د.هند فؤاد

مقدمة

لا يحتاج الحلم القصي إلا لجناحين شفَّافين أحدهما من عزيمه، والآخر من يقين.

لا يحتاج الحب لغة مُرتَّبة من الكلمات..

ولا تحتاج الروح إلا مطرًا وعِطرًا وطيفًا لتُبعث فيها الحياة.

د.هند فؤاد

رقصة الثلج الأولى

أوشكت الندوة المُقامةُ للكاتبة المعروفة "ندى الشريف" في إحدى قاعات النادي العريق على الانتهاء بعد حفل توقيع كتابها المُختار ضمن أفضل مئة كتاب للعام.. "العائدون من الأرض".

اندفع الصحفيون يستبقونها إلى الخارج يتتبَّعونها؛ ليلتقطوا أفضل الصور للنجمة اللامعة.. وقد تزاحمت الجماهير حولها ليلتقطوا معها الصور في شغفٍ وفرح، وبينما كانت تتوسطهم النجمة تُوقِّع لهم على كتابها أمام الأضواء الباهرة.. في تلك اللحظة الصاخبة أنصت الجميع إلى ذلك النغم الذي بدأ يصدح متعاليًا من خارج القاعة يأتي من ناحية قاعة التزلج .. انتبه الجميع إلى مصدر النغمات العذبة التي طغت على ذلك الضجيج المُلتف حول النجمة.

أضواءٌ بارزةٌ صاخبة تلألأت بها قاعةُ التزلج من خارجها إلى داخلها.. والتي بدأ يصدح منها صوتُ اللحن البديع ليتضح ويتعالى شيئًا فشيئًا.. وقد بدأ الناس في تتبُّعه بفضولٍ.. ليشاهدوا ما يحدث هناك عن قُرب.

وعلى الجليد.. يقف هذا الشاب الوحيد.. ينصت في مكانه إلى مطلع النغمات الساحرة.. يبدأ معها وينتهي في الدوران على البساط الثلجي الناصع بياضه كالأمل الشاسع حوله بمزلجيه المنطلقين في انسيابية غير عاديةٍ، كأنه يجوب الفضاء اللانهائي بلا أجنحةٍ، بلا رهبةٍ، ولا اكتراث، تقف على السور تلك الأمُّ المسكينة تصرخ فيه أن يتوقف عن الخوض في هذا التهوُّر والدوران بحماسةٍ، وبعنف يخدره عن الشعور بالخطر .. وأن يعود إلى وعيه من عالم الأحلام:

- بلال.. أرجوك، لا تفعل، اخرج من هنا.. لأجل أمِّك.. يا بلال.

بلال.. شابٌّ حالم، أنيق، يبدو في بداية عقده الثاني من العمر، ولكن يبدو أيضًا أنه صديقٌ للصمت.. فرغم أنه شابٌّ مُكتمِل البنيان.. هادئ الملامح رغم حِدَّتها وجِديَّتها، فإن أمَّه تناديه كطفلٍ تخشى عليه من السقوط أرضًا خوفًا لينكسر، رغم أن مَن هم في سنه يسقطون مرارًا، ويعاودون الوقوف في الحال، وبعد الانكسار.

بلال شابٌّ جميل الطَّلَّة، ملامحه الحادة تُضفي عليه جاذبية ملحوظة، قليل الابتسام. يُطلق عليه بعضُ الذين يعرفونه ذا الوجه الحديدي ...يُطيل التمعُّن في تفاصيل الأشياء أكثر من وجوه الناس.. وربما يبتسم للجماد بصدقٍ وعمقٍ، ولا يبتسم للآخرين من الأحياء، فيظنُّه الناسُ بعض الشيء غريبَ الأطوار.

ذو بنيةٍ نحيفة، مُعتدل الطول المتناسِق مع عرض منكبيه.. ذو أنف مُدبَّب، وشعرٍ ذهبي كثيف ينسدل على جبينه الأبيض كالمرآة من شِدة نُصوعه ووضوحه، تبدو ملامحه المُرتَّبة هادئة جدًّا رغم حِدَّة نظرة عينيه الذهبيتين الواسعتين وجمودهما وهو يتمعن بعمق الأشياء، وعند الاقتراب من هاتين العينين العميقتين كبئرٍ غائرةٍ من الأسرار ربما تلحظ شرودهما في كثير من الأحيان في عالمٍ بعيد، عالمٍ آخر في أعماقه.. تجوب به روحه.. يمطر فيه.. يزهر فيه وحده، ولا أحد دونَه يراه، ولا أحد فيه سواه.

صوتُ النغمات المتغلغلة إلى روحه الحالمة، وانبعاث أثيرها من أجهزة تُضخِّم الصوت قد أنهى أيَّ محاولةِ توسُّلٍ من والديه في الوصول إلى مسامعه لإثنائه عن المخاطرة المرتقبة التي أرجفت قلبيهما هلعًا عليه .. عندما بدأ حركاته الدائرية المتكررة بالمِزْلَج بشكلٍ منتظم على سطح الجليد ليستعد للانطلاق على بساط الحلم وحده، ليبدأ رقصته الأولى على الثلج بعد أن تحوَّل إلى طيفٍ توهَّجَ حتى النهاية، مهما تنصهر أو تنفض من حوله القلوب.

رُفع الستار عن تلك الصورة العملاقة التي أُسدلت ببطء بانسيابية مُحكمة فوق بقعة الضوء القوية المسلّطة على عينيها في منتصف الحائط، وتلك البؤرة الأخرى الهادئة نسبيًّا المسلطّة على الأرض تحت قدميه؛ ليبدأ أمام عينيها الشاسعتين كالفضاء، العذبتين كالماء، حرية الطيران.

إنها صورة ندى.. نجمته الساطعة بأعماقه، الساكنة بعالمه البعيد الذي لا يعرفه إلا هو. ربما اعتقد الجميع أنه أحد معجبيها.. ولكن أن يكون

مُعجبها الوحيد أمام عينيها يراقصهما على النغمات العذبة وحيدًا، يسحبهما، وينسحب فيهما إلى عالمٍ آخر فوق الثلج.. فوق الأرض .. فوق كل القلوب المتراقصة حولها.. وحده أمامها منفردًا .. هذا ما نسميه الجنون.

بدأ بلال في تحريك قدميه بمِزْلَجَيهما بشكلٍ أقوى في حركاتٍ دائرية أكثر انتظامًا وتكرارًا .. أعنف من سابقتها وأسرع، سحبت معها خِفة جسده بالكامل إلى الدوران المتواصِل المخترق لجدر الهواء الساكنة، فانتفضت له، وتبعثرت حوله في تناغُمٍ بديع، كأنها تمتنُّ لهذا الطيف الذي بعث فيها الروح، لقد خطف القلوب قَبل الأنظار وهو يجوب رُقعة الجليد كُلِّها في لمح البصر كوميض برقٍ صاعِقٍ جذب إليه كل الأبصار، وهو يلتفُّ كإعصارٍ يعصف بالقلوب، قبل أن ترتفع قدماه من فوق الأرض؛ مُحلِّقًا كطائر صغير عرف الطريق إلى الفضاء وحده بلا جناحين، وذلك اللحن الذي يعشقه، ويُحرِّك جدر الثلج بداخله، ولا يعرف سواه، تحوَّل رويدًا رويدًا إلى إيقاع سريع.. ضجيج.. صخب.. زلزال.. كادت تتصدع له السماء والجدران. لا جدوى من الصراخ يا أم بلال.. لقد توحَّد بلال مع حُلمه في هذه اللحظة، وبدأ الفيض بداخله يغمر روحه العذبة بالأعماق، يغمر قلبه والقلوب الملتفة حوله .. وبدأ الطَّيف يتحرَّر فوق الثلج مُتوهِّجًا ينثر ألوانه الفضية بحُريَّةٍ، بلا خوف، ولا قيود، وقت أضاءت عالمه الأسطوري شمسه الوحيدة.. ليبدأ أمام صورتها العالقة بوجدانه رقصته الأولى والأخيرة.

بدأ الناس يتوافدون إلى قاعة التزلج في فضول.. يتساءلون عما يحدث ومن يكون؟ كأن احتفالًا عالميًّا يحدث هنا.. كل شيء كان مرتَّبًا بعناية فائقة.. كل نغمةٍ كانت تبعث سحرًا يسري قمرًا بالعروق.. كل بقعةِ ضوء بالأركان المعتمة أبهرت العيون، كل لونٍ اخترق الأرض الباهتة .. كل مؤثرٍ اخترق القلوب الشغوفة عابرًا إلى مسامع العابرين.. لقد خطف المكان بكلِ مَن فيه إلى حُلمٍ بديع في عالم الأساطير.

كل ذلك قد ترتَّب من أجل تلك اللحظة.. اللحظة التي انتظرها هذا القلبُ الحالم طويلًا.. لحظة لقاء كان يرسمها وحيدًا وينسجها بروحه ويرويها بخياله الأخضر كل يوم بفيضٍ عذب كان منبعه ذلك الأمل الساكن ثنايا الروح الراكدة .. حتى تَجسَّد الحلم اليوم أمام عينيها الساحرتين المتوهِّجتين كلؤلؤتين أضاءتا ذلك الحلم القديم في هذا القلب الكبير.

أُطفئت الأنوار الخارجية ليبقى بلال وحده فوق أرض الثلج الناصع بياضه كقلبه الشغوف.. يرتسم فوقه كالطيف المضيء وقد تحرَّر من انكسار الضوء الأبيض لروحه الشفافة، ليسطع من خلال بلورتي عينيه، فتبعثرت ألوانه حوله كاللؤلؤ المنثور.

- ماذا هناك؟

تساءلت ندى قبل أن تُغادِر.

- يبدو أن أحدهم يُقدِّم عرضًا كبيرًا في قاعة التزلج.

قال أحد المسؤولين المصاحبين.

- إذًا عندكم حفل؛ لذلك هرب الحضور إليه.. ألا تدعوننا لمشاهدته؟

قالت مداعبة.

- ولكننا ملتزمون بموعد في التلفاز على الهواء .. ليس لدينا وقت يا ندى.

قال مدير أعمالها "عمرو" حاسمًا غير مكترثٍ بما يحدث، فأجابته متحمسةً:

- لن تُضير خمسة دقائق يا عمرو.. إن النغمات تسري إلى مسامعي كالسحر، أشعر أنها تقودني إليها.. أودُّ مشاهدة ما يحدث في قاعة التزلج.

توجَّهت ندى مع عمرو إلى القاعة المزدحمة عن آخرها.. وبمجرد دخولها وسط الحضور الكثيف لَمَحَها من بعيد ذلك الشخص المُتجهِّم المتوتر من بين الجمع الغفير، فانتفض قلبُه من مرقده يصارع ذلك الالم الذي يعتصره مما سيحدث لو وقعت عينُ وَلَدِه عليها في هذه اللحظة، وكان ممسكًا بيد أمِّ بلال وهي تبكي خوفًا على ولدها الذي يبذل كل هذا الجهد بكل تلك الحماسة المتقدة في صدره ليفيض بها في لحظة جنون. ولا يستطيع أحد أن يُثنيه عن المجازفة والخطر، ولا عن حُلمه، أو يمنعه عن رغبته الجامحة، ولا أن يُغير له قدره .. ولا حتى توسُّلات دموعها.

نظر الرجل إلى ندى في حنقٍ وانكسار.. ونظرت ندى إليه في دهشةٍ طويلة واجمة امتزجت بغصةٍ مريرةٍ وألمٍ كاد يمنع أنفاسها من الخروج من ضيق صدرها بعد الصدمة من رؤيته أمامها في تلك اللحظة القاسية المُنتظرَة

بعد طول غياب، حينها تَرَكَ يَدَ الأمِّ، واقترب منها يخترقها بنظرته الثاقبة التي تنمُّ عن بركانٍ من الغضب يختبئ وراءها رغم الخوف من المواجهة المُرتقبة على وشك أن يثور.

توقَّف أمامها، وتوقَّفت أمامه بثبات، امتدَّ جسر الألم بين نظرتيهما الثاقبتين، كأن كل العالم اختفى من حولهما في تلك اللحظة الممتزجة بالرهبة، وازدادت حِدَّةُ نظرته واختراقها.. رمقته بنظرتها التي تحوَّلت درعًا صلدًا لتنكسر عليه نظرته متبعثرة فوق جمودها وصلابتها، قبل أن تُصيب جرحًا غائرًا بروحها ضمَّدته طويلًا، فينشقُّ نازفًا من جديدٍ في لحظة ألمٍ غير محسوبة.

إنها لحظة اللقاء الثاني.. من أصعب اللحظات وأكثرها رهبة.. إما أن تنثر كل الحنين زهورًا تملأ صحراء الجفاء.. وإما أن تحرق كل ما تبقى من ذكريات.. لتصبح رمادًا تنثره الرياح بعد الفراق في مجاهل النسيان.

- ندى!

قالها بصوتٍ حادٍّ بعض الشيء ليُخفي وراءه ذلك الارتجاف.

- ها نحن نلتقي مرة أخرى بعد حين يا حسام.

أجابته ندى، وما زالت ترمقُه بنظرةٍ تحدٍّ جامحة عصفت به وبكل اتزانه.

- هذا بلال، يفيض شعوره الذي تملَّكه نحوك بلا وعي، وأنا لا أملك عليه سلطانًا. بلال ولدي ذو الطيف، أرجوكِ لا تؤذيني فيه.

وانكسرت نظرته أمامها تنقذ دمعته المتجمِّدة فوق سفحي مقلتيه المتكبرتين قبل سقوطها سقوطًا حُرًّا دون إنذار.

التفتت ندى إلى بلال لتجد صورتها العملاقة على الحائط تتلألأ تحت بقعة الضوء، ونغمات اللحن البديع تسري من خلالها .. وبلال يُحلِّق أمامها فوق الثلج كطائر حُرٍّ بلا أجنحةٍ في فضاء فسيح لا يحدُّه حَدٌّ، ولا يرهبه سقوط.. كل ما يشغله هو أن يصل الفيض من أعماقه إلى الشمس البعيدة في الحلم الأسطوري الذي رسمه بوجدانه حولها على نغمٍ يُذيب القلب والجليد.

خَفَقَ قلب ندى خفقانًا مضطربًا .. في لحظةٍ تضاربت فيها مشاعرها بين الحلم والواقع، بين الرهبة من اللقاء الثاني، وبين الامتنان، وقد هيَّأ القدر لقاء اليوم بعد كل هذا العمر، يُرتِّب تلك اللحظة لترى بعينيها كسر قلب هذا الرجل أمامها، كما كسر يومًا قلبها وحطَّم حياتها ماضيًا إلى حياته غير مكترثٍ بما عبر فوقه من حُطام.

وإن قلب الرجل لا ينكسر إلا إذا انكسرت قُرة عينه.

ذلك اللحن البديع الذي أَسَرَ الحضور جميعًا، وخطف الشاب نفسه من فوق الأرض، فصار يجمح بلا قيود، يجوب الحلم إلى آخره على البساط الناصع، وحده بلا حدود، يُحلِّق هنا وهناك، لا يعي شيئًا حوله.. لا يشعر إلا بوهج روحه المتقد، وحلمه الذي توحَّد معه وبداخله .. قد أَسَرَها هي الأخرى وأخمد هذا الوهج النقي المنبعث في عينيه، تلك النيران الملتهمة التي اتَّقدت بصدرها وقت أن رأت "حسامًا"، أباه الذي توسَّل إليها ألَّا تؤذيه.

وما ذنبه أن يحمل عن أبيه أخطاءه التي لا تُغتفر.. ولكن يبدو أن إعجابه بها تعدَّى الحد الطبيعي، لقد وصل إلى حَدِّ الهوس، وربما الجنون. فكما ترى بعينيها أنه لا يعبأ بأي شيءٍ حوله إلا انخراطه بكل حواسِّه، بكامله في عالمه وحده أمام صورتها ليكتمل حُلمه بها للنهاية.. ولا يهم إن كانت هي تراه أو لا تراه.. كل ما يعنيه أنه هو يراها.. ويصحبها معه بإرادته كيفما يشاء.

انتبهت ندى من وَقْعِ تأثير هذا المشهد المهيب الغريب عليها وعلى الحضور، وعاودت النظر إلى حسام بنظرةٍ ثاقبةٍ مرة أخرى دون كلمةٍ بينما كان هو شاردًا نحو ولده، صامتًا بحسرة العاجز الذي لا حيلة له ولا قوة، لا يملك أن يمنع عنه الألم، لا يملك إلا أن يستسلم مُرغمًا لمشيئة القدر. ثم توقفت بحماسةٍ، ويبدو أنها اتخذت قرارًا فجائيًّا حاسمًا، وطلبت من عمرو أن يُحضِر لها مِزْلاجَين.

– ماذا ستفعلين يا ندى، أجُننتي؟ لا يمكن أن تقومي بهذا التهوُّر.

قال عمرو منفعلًا يحاول رَدْعها عن ارتكاب حماقةٍ مع هذا المولع بها.

– أريد مِزلاجًا دون نقاش.

كررتها ندى حاسمةً وهي تخلع حذاءها عن قدميها.

– هذا جنون يا ندى.. سوف تُثيرين الغبار حولك مع هذا المعجب المهووس.

اندهش الحضورُ، وانتبهوا حين اتَّجهت أنظارُهم فورًا إليها وهي تستعدُّ لمرافقة الطيف على بساط الثلج.. وصُوِّبت الكاميرات فورًا ناحيتها، وهي تستعدُّ لخوض المغامرة غير المرتبة لآخرها.. إن ذلك سيؤثر فيها حتمًا.. إما سلبًا وإما إيجابًا.. لم يستطع أحد أن يتوقع النتائج.

– ندى.. لا تفعلي.. إنك تضحين بمكانتك.. وستندمين.

قال عمرو متوسلًا التوسل الأخير.

لم تنصت ندى إلى أحدٍ، لم تُنصت إلا لحدسها الذي قادها إليه في تلك اللحظة لتشاركه حُلمه بها أمام الجميع، وأمسكت السور بيديها تستند إليه بعد أن ارتدت المزلاجين بقدميها، ثم فتحوا لها الباب الحديدي الصغير، بوابة الحلم الكبير.

و" بلال " ما زال مُتوحِّدًا مع النغمات السارية إلى روحه توحُّدًا تامًّا معها، ومع صوت قلبه المغمور بفيض الحلم الدفين .. لا يرى أمام ناظريه إلا شمسه الساطعة فوق الأضواء الباهرة.. ولا يستجيب جسده إلا لنداء الروح إلى أمل ينبعث من نورها يوهجه ويحييه.. حتى توقَّف الزمن عند تلك اللحظة.. لحظة تعانُق الحقيقة مع الأمل البعيد حين توقَّفت ندى أمامه وهو يمر أمامها كالطيف المنثور على الجليد. استمر في دورانه المتكرر حولها بقوة خفقان قلبه المختلج الذي لم يكد يصدق أنها تجسَّدت من وحي الصورة أمامه على الأرض.. كيف يمكن للشمس أن تهبط على الأرض فجأة وتتجسَّد بوهجها لتعانقه في لحظات جنونه.

توقف بلال برهة .. تمعَّن في صورتها العملاقة، ثم خطف النظر إليها ليتيقن من حقيقتها .. حقيقة مجردة، خرجت تجمح من صورتها الصماء لفضاء الحُلم للحرية. وبعد برهة من تعانُق الأعين لأول مرة على أرض الحلم المُتوهِّجة على الجليد، قادتها قدماها إليه ببطء وبحذرٍ بعد أن اندمجت حواسها في أثير النغمات التي أسرتها في تلك اللحظة، وبدأت تلقائيًّا في الدوران حول ذلك الطيف الوهَّاج بانسيابية، هزمت بداخلها الخوف من السقوط، وبدأ بلال يُسرع حولها في حركته الدائرية المتكررة بشغفٍ أقوى وحماسةٍ أكبر ليحيطها في كل الاتجاهات حتى تلاشى من بينهما حاجز الخوف، ولم يعد أمامهما حَدٌّ ليجوبا هذا الحُلم معًا على صَدْح هذا اللحن البديع فوق رقعة الثلج البيضاء. تمعنت النظر في عينيه وقالت له بثبات ويقين:

- إني أثق بك يا بلال.

أمسكت بيديه بقوة وأطبق على يديها بشوق أفاض نهرا من الأعماق ..مُحدِّقًا إلى عينيها الزرقاوين لا يحيد .. كغريقٍ سقط فيهما حبًّا لا يود أن يصل إلى شاطئ قريب.. مستسلمًا بإرادته للغرق، تشابكت الأيدي الباردة التي تحولت لحظة تلامسها لأفرع خضراء تنامت وتمدَّدت فرحًا، وأورقت سحرًا بالأعماق، وأثمرت أملًا أزهر ليُتوَّج القلب الوحيد ملكًا على كل القلوب، أحيا سِحرًا خامدًا على جدران الروح الراكدة في تلك اللحظة

الفريدة، استسلمت بلا وعي إلى الجموح معه في حلم أسطوري لا نهائي، بين يديه، تطلق لروحها العنان للطيران بلا جناحين في فضاء لؤلئي في درب من خيال، واخترقت الأجساد الشفافة بتوهجها جُدر الهواء الساكنة حولها، ليُفرد شعرها المنعقد منسدلًا كستار ليل مضيء تزيَّن متأنقًا بأروع النجمات، لقد أصابها ذلك السحر بارتجافٍ غريب لأنفاسها المتلاحقة كأنها فرس يجمح فوق جسور الزمان و المكان، يرافِق صاحبه دون لجامٍ ولا فارس ولا طريق.

تمايَلت على مَيلِه، وذراعاها ملتفتان حول ذراعيه المفرودتين في الهواء كجناحين يجوبان ذلك الفضاء بثبات تتشبث بهما بيقين .. استدارت حوله.. واستدار حولها كشمسٍ يتبعها كوكبُها في مدارها، وقد تلاشت بينهما المدارات والمسافات، ثم استقامت بين يديه اللتين تعانقتا بقوةٍ بأطراف يديها تحميانها من السقوط ومن الفراق .. والمزالج بصوتها المدوي ترسم على الثلج وقت احتكاكها القوي ألوان طيف ساكن توهَّج بالروح في لحظة عودتها للحياة.

تهادَتْ بخفَّةٍ، تمايَلتْ بسكرةٍ، ثم تمادَت في الجموح، انحنت تحت جناحيه بجناحيها، وتشبثت بذراعيه أقوى، وأكثر رغبة، وقد تلاشت الرهبة في القلوب، لقد غمرها أثيره المتوهِّج حولها كلما تسارعت خطاها بين ألوان الطيف، استدارت بخفة قدميها اللتين ارتفعتا من فوق الأرض تتطلع إلى السماء، تفرد ذراعيها في الهواء بحريةٍ أرغمت الخوف على التنحي، والعقل

عن التوقُّف، والقلب عن الحزن، وقد توحَّدت هي الأخرى مع هذا الحلم الذي تجسَّد في هذه اللحظة الغامرة من الجنون، حلَّقت بين يديه كفراشةٍ مخمليةٍ انقادت طواعيةً لنورها، وتلوَّنت أجنحتها الباهتة بالفرح، وما زالت تتشبث بيديه تتهادى مستسلمةً بين ذراعيه الآمنتين مرة أخرى، ثم تباعَدت عنه بقوة لتقترب منه بشغفٍ، وما زالت الأيادي المتشابكة تفيض نهرًا عذبا من حنينها إلى بعضها البعض، نهرًا بدأ سريانه العذب في لحظة الفيض الأولى بين القلوب التي تركت سكونها في غمرة هذه اللحظة الفريدة وجمحت إلى الجنون، وزلزل نبضها الوجدان والأركان وقلوب كل من بالمكان، حين تحوَّل الفيض سحابة أملٍ أمطرت المكان سعادةً فاضت إلى حد الارتواء، حينها تلألأت الأعين بتلك النظرة الصادقة التي حفرت طريقها إلى القلب العليل رغم المستحيل.. وتخللت الأنفاس المرتجفة ذلك النهر الشفاف الذي انساب من ربيع بديع أزهر قدرًا في أعماقهما..

جذبها إلى صدره بقوة النبض الصاخب لقلب انتفض ينازع الموت عشقًا للحياة، نبض اخترق جُدُر الصمت، يتحدى الخوف، ولا يستسلم للسكون، نبض صادق أبى أن يهدأ، عصف بها في مكانها، جاءها كرسول قلب عاشق شغوف لا ينبض بهذه القوة إلا في حضرة المعشوق، ثم ضمَّها إلى صدره الملهوف.. كضمة الأرض للجذور دون شروط لتنبت منها وفيها الحياة.. كضمة الوطن لغريب في المنفى عائدًا من الاغتراب، ذلك الوميض المتقد

في عينيه كصاعقة برقٍ ضرب عتمة أعماقها، أضاء الحلم كاملًا متلألئًا في لحظة.. في عُمق النظرة، في أوجها، في قلبها، وفي عينيه، نظرة كانت تكفي لأن تغمرها فرحًا يحيي ما بعد الروح روحًا، وتمتدُّ ما بعد الزمان زمانًا. وابتسامة الأمل التي تلوَّنت بقوس قزح على شفتيها عند نهاية اللحن، ونهاية الحلم .. توَّجتها كأجمل النهايات..

ذلك الوهج الذي اجتاح قلبي الغريبين فوق جدارالثلج قد أذابه حُبًّا، وغمر روحيهما حلمًا كانا ينتظرانه بلا ميعاد. لقد جمح بهما الجنون إلى مداه، وكانت رقصة الثلج الأولى هي طيف أضاء روحيهما اللتين التقتا في مكانٍ ما قبل هذا المكان، وزمان غير الزمان، حتى وإن كانت الأخيرة.

"في تلك اللحظة حين يبلغ الحلم أوجه.. ويجتاح فيض الحب الأعماق الجرداء.. ولا يلجم الجموح لجام.. في تلك اللحظة يجب أن نُفسح للفيض الطريق، نتحرَّر من قيودنا، نترك طيفنا يرسم طريقًا حُرًّا للحلم إلى آخر الكون بلا حدود، نُحلِّق خارج مقياس الزمان وجدران المكان.. نلمس الشمس بأرواحنا فتزهر أملًا بالأعماق، نقّبل النجمات، نضيئها من بريق الحلم المُشعِّ بداخلنا، نجمعها في عقد لؤلئيٍّ يلتفُّ حول قلوبنا النابضة لنحفظ نورها في الزمن البعيد. نرسم الحلم الوليد مُلوَّنًا بالطيف على صفحة السماء، تنعكس صورنا عليه بيضاء .. تتحرر فيه أرواحنا، نحيا الربيع في قلب الخريف، نكون أبطالًا قبل أن نعود من الحلم معًا أو وحدنا قبل أن نموت".

خاسر أجمل أحلامه ذلك الذي تأتيه تلك اللحظة الفريدة ويئدها تحت قضبان الخوف التي عنها لا يحيد.

انتهى اللحن الملهم بالوجدان، ولم ينتهِ الحلم، وقد تصبَّغت الروح فيه بلونٍ جديد من السعادة وارتوت.

انتهت لحظة جنون جامحة أدركت معنى حقيقيًّا للحياة.

توقف الحالمان بمكانهما متشابكي الأيدي بثباتٍ كقيد مُحكم لا يودُّ أن ينفك ولا ينكسر. والأعين ما زالت تتعانق في ارتواءٍ تامٍّ في صمتٍ تامٍّ لبرهة تلملم فيها الذاكرة كل التفاصيل الحالمة عند النهاية لتحفرها بحالتها علي جدر القلب إلى ما بعد النهاية.

لا صوت يمكن أن يعلو خفقان القلوب في لحظة خوفٍ أو عشقٍ أو جُنون.

صفَّق الجمهور بعد برهة استفاق فيها هو الآخر من الحلم تصفيقا مدوِّيًا.. بعدما عاد الكل إلى الأرض بعد أن سحبهم إلى الفضاء ذلك الحالم في دقائق معدودات مرت عمرًا على الحالمين.. ثم أعادهم في غمرة فرح امتلأت بها أرجاء القلوب الحية في نهاية الرقصة.. في بداية القصة.

كانت والدة بلال التي استسلمت لألمها صامتةً تنظر إلى سعادة ولدها العارمة المختلجة صدره رغم جمود وجهه كالثلج، والمتلألئة بعينيه الشاخصتين، وهو يعانق حلمه الكبير بين يديه، لطالما كان يحلم أن يعانقه.. هذا الطفل الذي لا يكبر في قلبها أبدًا مهما يستبقه عمره إلى الكبر.

وكان حسام بجوارها وولدهما الآخر عمر وماجد صديقه، وما زالت الدهشة تعتلي وجوههم منبهرين من رؤية تلك الابتسامة المشرقة ونظرات الفرح النادرة تعتلي وجه بلال الجامد دائمًا، والذي نادرًا ما يبدي سعادته التي أفضت بمكنون قلبه اليوم أمام ندى.. كانت له صدمة لم يعرف كيف له أن يستوعبها.

حينها نظر مهزومًا إلى "ماجد" قائلًا له بصوته يكاد يخبو من الانكسار وهو يخطو نحو ابنه المغمور فرحًا مع نجمته التي بعثها القدر اليوم بين يديه:

- لقد أبى الماضي أن يموت رغم وأده حيًّا.. وكتب القدرُ اليوم نهاية أخرى وياله من قدر. قال حسام في استسلام .

ربت ماجد على كتف حسام وهو يصحبه إلى ولده مترقبًا .. قائلًا:

- إن الأمر الآن قد أصبح أخطر مما كنا نخشاه.

ما زالت الأضواء تتسلط على النجمين الساطعين على أرض الثلج، ابتسمت له ندى، وقد استقامت في وقفتها، وهدأت رجفاتها قائلة له:

- كنتَ بارعاً يا بلال.. لم أشعر بمثل هذا الشعور البديع من قبل.

ابتسم بلال ابتسامة سريعة وهو يجول بنظره شاردًا في كل اتجاه بعيدًا عن عينيها اللتين لم تستطيعا النظر إليها إلا في لحظة رأى فيها حلمه متجسِّدًا حين توحَّد معه، ولم يستوعب ما بعد النهاية أن نجمته البعيدة قد شاركته الحلم.

وبعد برهة حاول فيها أن يجمع الأحرف في كلمات مرتبة يقولها لها بعد طول انتظار لهذه اللحظة الفريدة .. لإنه لا يتحدث إلا بتكرار القليل من الكلمات:

- أشكرك ندى على حضورك.. لقد انتظرتُك كثيرًا. انتظرتك كثيرًا جدًّا.. حقًّا.

ثم تبعثرت نظرته الشاخصة في الفضاء الفسيح.

- كان يجب أن أحضر لأعيش سحر هذا الحلم معك.. أسعدتني كثيرًا يا بلال.. شكرًا لك من كل قلبي.

قالت ندى وهي ما زالت في غمرة من السعادة.

تدخَّل "حسام" وصديقه "ماجد" بعد أن خرج بلال معها مطبقًا على يديها بقوة.. وهي تهمُّ بخلع المزلاجين من قدميها، كانت تنصت إلى اضطراب كلمات بلال المتكررة بنبرة الفرح التي وجَّهها إلى أبيه:

- لقد جاءت ندى بعد طول انتظارها يا أبي.

كانت هذه الكلمة شافية كافية لتخمد كل نار أُضرِمت في صدرها وقت التقته اليوم بعد طول غياب، ونظرت إليه بعد أن وقفت على قدميها بثبات وكبرياء جمح إلى عنان السماء أمام ارتجاف نظراته وانكسارها بعد الهزيمة، وقد انعكس على ظِلِّه بريق النجمة اللامعة التي سطعت اليوم بقوة رغمًا في عينيه، وقالت لبلال:

- أشكرك مجددًا على هذا الحلم البديع يا بلال.

ثم نظرت إلى عيني حسام الحزينتين .. بنظرة كلها تحدٍّ وثقة قائلة:

- نحن لا نملك على الأحلام ولا على القلوب سلطانًا.

ومضت بثبات من أمامه، لا تفارقها ابتسامة النصر، وتركته في مكانه يحترق بوهجها، كم كانت تنتظر تلك اللحظة منذ زمن ضاع في تضميد جرح غائر بعد طعنته النافذة لا يلتئم! لحظة انتظرتها بفارغ الصبر تحققت اليوم على غير ميعاد.

تبعها "عمرو" على الفور قائلًا لها متمالكًا نفسه من الغضب حتى يغادرا المكان:

- مجنونة أنتِ كأنني لا أعرفك.

وأمُّ بلال كانت تضمُّ ابنها العائد من الحلم بحضنها بعد أن انهمرت الدمعات من عينيها في صمتٍ بليغ من فرط التوتر والتشتت والخوف عليه ثم قالت له بانكسار:

- لماذا عرَّضت نفسك للخطر يا بلال؟ أهكذا تفعل بنفسك؟ أهكذا تفعل بقلب أمِّك؟

وما زال ابنها مُتأجِّجًا بنشوته وهو يُردِّد كلمته الرنانة نفسها غير مكترثٍ بحزنها.. "لقد رقصت معي ندى يا أمي". بينما كان حسام يهرب بمسمعيه من وَقْع الكلمات التي يطلقها ولده العاشق المسكين كالسهام الطائشة عن

سعادته الغامرة بالحدث الجنوني، فترتشق في صميم قلبه بلا هوادة، وظَلَّ متابعًا بنظرته المهزومة طيف النجمة التي انطفأت في عينيه ذات يوم بعيد لتسطع اليوم في عين ولده المفتون، بل وأعين الناس جميعًا.. وتشعل في قلبه وهجًا بعث من جديد شعورًا دفينًا بعد موت بعيد.. قائلًا في أعماقه:

- لا مفر اليوم من القدر يا ندى ..حان وقت دفع الثمن غاليًا.

تهافتت الصحافة والكاميرات بعد انتهاء الحدث وتزاحموا حول النجمة وهي تمرُّ بين معجبيها المصفقين بحفاوة معلقين عن روعة الحدث الفريد الذي لم يكن في حسبانها ولا استيعابهم إلى تلك اللحظة التي غادرت فيها هذا المكان .. بينما ظَلَّ رواد النادي الذين يعرفون بلالًا وأهله مندهشين من فعله.. فبلال شابٌّ منطوٍ على ذاته، قليل الحديث مع الأغراب.. يتدرب بالنادي منذ صِغره على رياضة الركض ويُحقِّق بطولات للنادي.. ولا أحد يعرف سوى المقربين من عائلته أنه كان طفلًا "توحديًّا"، مصابًا منذ صغره بطيف التوحُّد، ويخضع لبرامج التعلُّم المهارية والنمائية طويلًا، فقد كان دومًا بصحبة أمِّه أو عائلته المنغلقة على نفسها بعض الشيء.. وعلى الرغم من أنه منطوٍ ومنعزل في أغلب الأوقات، فقد كان يتميز بذكاء حادٍّ يمكنه من حفظ المعلومات وتخزينها بصورة هائلة بالذاكرة، وله خيال خصبٌ يحيا فيه بعيدًا عن الناس، وكذلك كان يتمتع بسرعته الفائقة ما مكَّنه من أن يكون عداء مميزًا منذ صغره بمجرد أن ينزل إلى المضمار يجوبه في لمح البصر .. والآن تبدو

حركاته المفرطة على أرض التزلج وحده على أنغام اللحن الذي يحبُّه كانت جزءًا خفيًّا من فرط نشاطه الذهني والحركي، وأنه دومًا ما كان يفعل ذلك بعيدًا عن الأنظار في عالمه المنطوي على حلمه، ولكنها المرة الأولى اليوم التي قام فيها بذلك أمام الجموع بلا خوف. أول مرة يفعله بذلك التمكُّن الرائع والإحساس البديع.. حقًّا اليوم لقد أبهر بلال الجميع.

استدار "حسام" إلى زوجته "رشا" متجهمًا قائلًا في هدوء:

- هيا بنا.

وقد تجنَّب النظر إلى ولده النجم الساطع المغمور فرحًا بعد لقائه بنجمته، والذي أصبح اليوم حديث الساعة، وسبقهم إلى السيارة سريعًا قبل أن يحيط بهم الصحفيون والمصورون.. رافضًا الحديث والتعليق على الحدث.

وفي السيارة.. انفعل "عمرو" على "ندى"، وعلى الرغم أنه مدير لأعمالها فإنه صديقها القديم المُقرَّب، وفي مثل هذه الأوقات دائمًا ما يكون إلى جوارها ينتقدها وينصحها لتتجاوز مثل هذه المفاجآت كما كان دومًا بجوارها في أشد أزماتها التي غيَّرت ذات يوم مجرى حياتها.

- أريد تفسيرًا لما فعلتِه اليوم يا ندى.

- وهل كل شيء نفعله له تفسير.

- ماذا كان إذًا؟

- إنه ترتيب القدر.

ردَّت وما زالت البسمة لم تفارق شفتيها، وهي تحاول أن تحتفظ بالصورة الجميلة للحدث في مخيلتها:

- لا أقتنع بهذا الهراء.. أنتِ نجمة معروفة.. كيف تجازفين بمكانتكِ في لحظة جنون مع معجب مهووس؟

- إنه ليس كذلك يا عمرو!

- حقًّا؟ أهكذا برأيك؟ ألم تشعري كيف كان يطير بك على الجليد كالمجنون؟

- كانت لحظات كالحلم لن تتكرر.

(قالتها وهي تنظر من النافذة ولا تودُّ لتلك الابتسامة على وجهها المتغلغلة إلى أعماقها أن تخبو اليوم على الأقل).

- لا أصدق أنك تعاملتِ مع مثل هذا المولع بهذه الطريقة الطائشة .. حقًّا لا أصدق.

- حتى وإن كان ذلك الحدث طائشًا فإنه كان رائعًا.

- أخشى أن تنتهي مكانتكِ عند الناس في لحظة كهذه بحركة جنون حمقاء.

- إن كل هؤلاء الناس عاشوا معي ذلك الحلم بالشعور نفسه .. لقد حلَّق هذا المجنون بنا جميعًا إلى عالمه الفريد دون أن نشعر وقت تجسُّد حلمه البديع أمام أعين كل الناظرين إلى الثلج.. ألم تشعر أنت بذلك؟

- لم أشعر إلا بقلبي كاد يسقط بقدمي وقت كان يتقاذفك بين ذراعيه كدُمية مستسلمة دون مقاومة، ويتأرجح بك يمنة ويسرة بهذه السرعة الجنونية بالمزلاج اللعين فوق الثلج، لقد أوقع الرعب بقلبي مع كل صوت احتكاك مزعج يصدر منه على هذه النغمات اللعينة الصاخبة.. لدرجة أنني تيقنت أنك ستسقطين من بين يديه حتمًا على الأرض وسنقضي الليلة نجمع عظامك.

- أكل ما كنت تخشاه أن يسقطني على الأرض، فأنكسر وتحملني إلى المشفى؟

قالت ساخرة بدعابة من بين سعادتها الغامرة.. حينها نظر إليها نظرة جدية حانقة.. ثم أردفت بجدية:

- أتصدقني لو قلت لك إنني لم أشعر بذاتي وقت نظرت في عينيه في لحظة بعينها، أسرني لمعانها الغريب حَدَّ الاستسلام، حينها قلت له: إني أثق بك يا بلال.. لا أعلم كيف قلت له ذلك. لقد سحبني معه، كأنني مُخدَّرة، فقدتُ الوعي بما حولي .. كانت لحظة فريدة فجَّرت ينابيع سعادة لم ندركها بأنفسنا.. إن هذا الفتى غير عادي.. لقد توحَّد مع حلمه بطريقة مذهلة لم

أكن لأصدقها إلا لأنني شاركته فيها.. صدقني يا عمرو إنه حقًّا شابٌّ غير عادي.

- عادي أم غير عادي، لا يعنيني أمره، اسمعي يا ندى.. لم تصلي إلى مكانتك التي أنتِ عليها الآن إلا باحترام الناس وتقديرهم لكِ. وأيُّ حماقةٍ وتهوُّر في لحظات جنون غير محسوبة هي محسوبة عليكِ من رصيد قَدْركِ عند جمهوركِ .. وإني قررتُ أن أردَّ على كل التساؤلات التي ستثار حول هذه اللحظة المتهورة، وسأقول إنها من أحداث الرواية الجديدة.. حاولي أن تتفهمي وضعكِ وحساسية تصرفاتكِ جيدًا.. عليكِ أن تحاربي كي تحافظي على مكانتكِ، فالمتربصون بكِ لن يتركوك تنعمين بلحظة جنونٍ حالمة مع مُعجبٍ مولع كما تصفينها، يجب أن تدمجي ما حدث اليوم في رواية جديدة كي نعبر هذا الموقف بسلام.. لأنه لم ولن يتكرر.

- أأتاجر بلحظة حقيقية صادقة عشتها، لم أعهدها من قبل؟ لن أفعل يا عمرو.

وصلت السيارة إلى منزلها وترجَّلت ندى منها دون أن يرد عمرو عليها بعدما أنهى الحوار بصمتٍ قاطعٍ، وانطلق دون أن يلتفت.

مضت ندى إلى بيتها وهي لا تعي أنها أصبحت تسير على الأرض بعدما كانت منذ لحظات تجوب عاليًا في الفضاء بين يدي هذا الشاب المثير للدهشة وللسعادة.. والذي خطفها إلى عالمه بغتةً دون ميعاد ولا ترتيب.. وأكثر ما

كان يسعدها هو أنه دون أن يقصد أصاب قلب والده بمقتل.. والده الذي قتلها ذات يوم بالخنجر المسموم في لحظة جنون طائشة..بطعنة غدر في قلب آمنه حين زرعٍ به نبتة الحب الخضراء فاغتال بيديه النبتة الخضراء . ثم قالت بنفسها وهي تبتسم بمرارة الألم:

- لقد انتقم القدر اليوم يا حسام. . وإنه لأشد انتقام.

وفي بيت حسام.. ارتخى " بلال" على الأريكة مسندًا رأسه للوراء، ناظرًا للسقف نظرة ثابتة لم تفارقه منذ تلك اللحظة.. كأنه يُعيدها على مخيلته مرارًا وتكرارًا.. وهو يهز قدمه ويقبض يديه في مكانه أيضًا مرارًا وتكرارًا في حركات تلقائية عشوائية، كأن ضجيج الحلم بداخله لم يهدأ بعد.

"رشا" أمُّه ترقبه بقلقٍ، وأخوه "عمر" الذي لاحظ تغيرًا كبيرًا طرأ على أخيه الصامت غالبًا، مشتت الانتباه في أغلب الأوقات منذ وقت طويل ..لاحظ عليه سعادة حقيقية لم يرها من قبل بهذه الصورة.

كان عمر مذهولًا مما رآه من إعادة للحدث على شاشة التلفاز، وكان بلال يشاهده بانتباه. ولم يجد أحد من أفراد العائلة تفسيرًا لهذه الحالة.. ولا حتى أمُّه الطبيبة.. التي ظلَّت ترقب حالة ابنها في صمتٍ، فهي تعرفه جيدًا، وتعرف تغيراته وتقلُّباته في صمته .. وحسام وماجد يجلسان في صمت.. يرقبان نشوته الطاغية لاهتزاز جسده التلقائي وحركاته العشوائية المتكررة، وملامحه التي أضاءت وقت إعادة العرض على شاشة التلفاز.

ثم انتفض حسام فجأة غاضبًا .. يغلق التلفاز بعنفٍ صارخا:

- توقَّف عن هذا الاهتزاز.. إنك لم تعد صغيرًا.

انتبه بلال ونظر إليه وقد اكفهرت عيناه الزائغتان، وتلاشت منها لمعة السعادة .. وقت نظر إلى الغضب المضرم بعيني أبيه في لحظة تنمُّ عن ثورةٍ قادمةٍ لا يستوعبها ولا يحمد عُقباها.

أمسك ماجد بصديقه يهدئه قائلًا:

- ماذا بك يا حسام؟ تمالَكْ أعصابك، لقد انتهى الأمر.

- أي أمرٍ قد انتهى؟ لقد بدأ أمر لا نعرف منتهاه.

أجاب حسام وقد انفجرت ثورته العارمة بعد أن انفلت منه زمام الصبر.

ردَّت رشا:

- أيُّ أمرٍ يا حسام؟

وجَّه حسام إليها نظرة طويلة غاضبة، مستنكرًا سؤالها؛ لأنها تعلم جيدًا خطورة الأمر .. ثم اتَّجه بنظرته إلى بلال الذي ما زال ينظر إليه في حدةٍ واقتضاب، وقد ازداد اهتزازه في مكانه تعبيرًا عن رفضه لهذه النبرة العالية القاسية من أبيه.. لطالما كانت تُزعجه الأصوات الصاخبة أو الدالة على الخطر منذ الصغر.

– قلتُ لك كفاك اهتزازًا.. وإياك أن يتكرر هذا الجنون الذي فعلت مرة أخرى. وإني غدًا سوف أمنع عرض هذا الهراء على مختلف القنوات.

– كفى يا حسام.. لا تتحدث معه بهذه الطريقة.. هل تُعاقبُه لأنه فعلَ ما أسعده وأسعدنا جميعًا معه؟

ردَّت رشا بحسمٍ تُدافع عن ابنها الذي لم يعد صغيرًا:

– إن الأمر لا يستحق كل هذا الغضب.

تابَعَها ماجد مؤكدًا كلامها ثم قال حسام مستنكرًا:

– الأمر لا يستحق؟ هل رأيت ما حدث؟ ألم تكوني في انهيار منذ قليل ترتجفين من الخوف عليه؟ ألا يجب عليه أن يراعي خوفنا وقلقنا عليه وقد أصبح شابًّا مسؤولًا يجب أن يعي تصرفاته، ولم يعد طفلًا صغيرًا يلهو بعبث وعشوائية؟

ردَّ عمر مبتسمًا إلى أخيه:

– ولكنه أدى عرضًا أسطوريًّا يا أبي.. سيصبح حدثًا عالميًّا، لقد أشهرتنا يا بلال.

نظر بلال إلى أخيه الصغير نظرةً حادة عادت إلى جمودها قائلًا له بثبات:

– يكفي أن شاركتني ندى.

هنا استشاط حسام غضبًا وانفجرت ثورته عن آخرها.. فصرخ فيه:

- إذا سمعتك تذكر اسم هذه المرأة العابثة مرة أخرى فسوف ترى عِقابًا لا تتوقَّعه.

وضع بلال كفيه على أذنيه متأذيًا، وظَلَّ يهزُّ رأسه بعنف رافضًا هذا الصراخ اللعين:

- حسام.. اخرج معي.

قال ماجد وهو يصطحب صديقه ليُهدِّئ من روع ثورته التي انفجرت في وجه ابنه محطمًا بها صرح سعادته.

- لن أترك هذه العابثة تُخرِّب حياة ولدي وتستغله من أجل دعاياتها يا ماجد.. سوف أقيم ضدها دعوى قضائية لأنها استغلته وعرَّضته للخطر.

- وما أدراها يا أبي؟ لقد شاركته التزلُّج فحسب.

قال عمر مبررًا لها.

والإجابة كانت يعلمها الجميع إلا بلالًا ..فندى تدري، ولكنه هو لا يدري.

زاد بلال من فرط حركته المتكررة في مكانه مكررًا جملته الأخيرة مرارا: "لقد شاركتني ندى" رافضًا قسوة الكلمات وملامح الغضب ونبرة الصوت الصاخبة التي تزلزل أعماقه، وتكسر فرحته تكسيرًا.. حتى خشيت رشا عليه

من انفلات زمام ثورة مضادة، فقد بدأ يتأجج ويكتم غضبه بهذا الاهتزاز المتواصل لجسده، والتي تعرف جيدًا تَبعاته من عنفٍ هائل على وشك الانفجار فقالت لحسام بهدوء:

- اخرج الآن من فضلك حسام.

وأيَّد كلامها ماجد الذي اصطحبه قبل أن تجرفهم عاصفة الغضب إلى وقوع خسارة فادحة.

خرج حسام مع ماجد إلى الحديقة.. وظلَّت رشا مع ولديها.. ونظرت إلى بلال الغاضب في حنان.. وقالت وهي تربت على كتفه برفقٍ:

- هل كانت ندى سعيدة وهي ترقص معك؟

زالَ التوتر عنه في لحظةٍ بمجرد أن سمع اسمها، ثم نظر إلى أمِّه وقد انفرجت ملامحه المكفهرة بالغضب بابتسامة قصيرة رقيقة قائلًا:

- قالت لي ندى إني أثق بك يا بلال.. وكانت سعيدة جدًّا يا أمي.

- هل كان ذلك اتفاقًا مسبقًا بينكما؟

- لا.. ولكني كنت أعلم أنها ستأتي.

أجابها بثبات عينيه اللامعتين، وهو يجول بهما في شتى الأرجاء:

- إذًا كيف تناغمت حركاتك الدقيقة وانسجمت هي بحركاتها معك كأنكما التقيتما معًا كثيرًا من قبل؟

- في الحلم.. كثيرًا ما تراقصنا معًا في الحلم..

رد بلال باسمًا حاسمًا. وقام عمر يقبله قبلة عميقة على رأسه قائلًا بدعابة:

- ولماذا لم تحلم أنك ترقص معي وتطير بي فوق الجليد .. لتسعد أخاك كما أسعدتَ ندى.

ابتسم بلال.. وظلَّ صامتًا.. ونظره ثابت أمامه يعيد على مخيلته تفاصيل اللحظة.

مسحت أمه على شعره قائلة في حنان:

- هل تحب ندى أكثر أم أمَّك التي تحبُّك يا بلال؟

قال بلال بثبات دون تردُّد:

- أحبك وأحبُّها كثيرًا، أمي.

- لماذا تحبها؟

قالت تتصنع الابتسامة:

- لا أدري.. هي دومًا ترافقني بالحلم.

- حسنًا، هل أطلب منك طلبًا؟

نظر إليها بلال مُحدقًا في انتظار ما ستقول..

- إن كنت تحبُّ أمَّك فلا تُعرِّض نفسك للخطر فتؤلم قلبي الذي كاد يتوقف من فرط الخوف عليك.. هل تحب أن تؤلم قلبي؟

- لا.

- وأبوك الذي حزن لأول مرة من أجلك اليوم؟

- أيضًا.. لا.

- إذًا.. عِدني بذلك.

- أَعِدُك، أمي، ألن أرى ندى ثانية؟

- نعم، ستراها دومًا في الحلم الذي يجمعكما.

- ولكنها اليوم تجسَّدت حقيقة مع الحلم يا أمي.

سكتت رشا وهي تُسلم أمرها إلى القدر الذي شاء أن يعلق قلب ابنها النقي بهذه المرأة في واقع لا يمكن الفرار منه بقرار قاطع محسوم خوفًا عليه من عواقب الانهيار.

دخل بلال مع أخيه إلى غرفتهما، وقد هدأ بعد حديث أمِّه معه.. بينما استقبلت الأم اتصالًا من زميلها الطبيب أحمد المعالج لبلال.. انهارت رشا وهي تتحدث معه عمَّا رأته ولا تكاد تصدقه حتى اللحظة.. أبعد كل هذا الشوط الذي قطعه في رحلة طويلة من التأهيل ليتحسن ويتعلم مهارات

التواصل بعد عناء ليخرج من ظلمة العزلة والانطواء ويستعيد جزءًا من حسِّه وشعوره ليعود إلى طبيعته، يكون أول ما يتعلق به هو تلك المرأة التي تكبره بفارق السنوات؟ وسألته وصوتُها يرتجف من الحزن والقلق:

– كيف أستطيع أن أمنع عنه ذلك الشعور القاتل الذي سيدمره؟ كيف لها أن تشاركه هذا الجنون بهذا الاستسلام؟ إني حقًّا لا أصدِّق.

ردَّ الطبيب أحمد:

– اسمعي يا رشا، ليس لك ولا لأي أحد سلطان على هذا الشعور.. هذا ما حدث، أمر واقع.. لا يجب أن نسأل كيف ولماذا حدث؟ بل يجب أن نفكر في كيفية تحويله إلى حافز ذاتي كي لا يضر بلالًا إن انكسر هذا التعلُّق فجأة بطريقة عنيفة، وأظن أن هذا التعلق قد تخطى كل التوقعات، هذا ما شاهدناه جميعًا على شاشات التلفاز في كل مكان اليوم.. وللأسف لم يعد يُجدي الكلام عن منعه، فقد أصبح شِبه مستحيل.

– هل شاهدته؟

– الكل شاهده يا رشا.. ما فعله بلال اليوم شيء فريد .. لقد أخرج مكنون طاقته المتأججة بداخله بتناغُم تامٍّ مع روحه والموسيقى التي تناغمت عليها حركاته المتكررة، وقد أتقنها واستطاع أن يحولها من مجرد حركات مفرطة عشوائية إلى إيقاع منتظم به روح، وكان ذلك هو الإبداع، ولكن

الغريب في هذا الأمر هو توحُّد ندى معه، كأنها بالفعل كانت تشاركه الحلم نفسه من قديم.

– الآن فقط فهمتُ لماذا كان يذهب للتزلج وقت انشغالي عنه.. إنه يخطط لهذه اللحظة منذ وقتٍ طويل . أخبرني: ماذا يمكنني أن أفعل لأمنعها عنه يا أحمد؟ إني حقًّا مُشتتة تمامًا؟

– لا تحاولي يا رشا.. تدخُّلك لمنعها عنه بعدما أصبحت جزءًا من روتينه وحلمه هو انتكاسة ستحيله إلى نقطة الصفر، بل إلى ما قبل الصفر في أسوأ صورة.

– إن حسامًا ينوي أن يقيم ضدها دعوة ليقاضيها لأنها عرَّضته للخطر.

– إن حسامًا لو عاداها فإنه يقوم بمعاداة ابنه دون أن يشعر بحجم الضرر الذي يتسبب له فيه.

– وما الحل إذًا يا أحمد؟ أأتركه لهذا الوهم يدمره؟

– لم تعد وهمًا بعد اليوم يا رشا و لكن أخبريني أولًا: كيف حال بلال الآن؟

– إنه في سعادة غامرة، لم أره عليها من قبل.

– سعادة حقيقة لمس فيها حلمه الكبير.. وهل تكرهين أن تشاهدي وَلَدَك يشعر بمثل تلك السعادة التي ملأته فرحًا حتى فاضت منه، وغمرتنا جميعًا؟

– ماذا تقصد يا أحمد؟

– أقصد أن تتركيه مغمورًا بسعادته الحقيقية التي أدركها.. حتى ولو كانت قصيرة عابرة.

"وما لحظات السعادة الحقيقية بحياتنا إلا لحظات مباغتة..عابرة.. لا يجب أن نترك براثن الخوف من فقدانها تسلبها من بين أيدينا، أو نترك انتظار نهايتها يُرهبنا ان نحياها كاملة في لحظة فيضها، فنفقدها قبل أن نحياها، ولا نرتوي منها حَدَّ الاكتفاء."

وفي حديقة المنزل الكبير كان ماجد يحاول أن يُهدِّئ من روع صديقه .. فقال له بهدوء:

– تصرُّفك لم يكن صائبًا يا حسام، أن تُعنِّف بلالًا على ما فعله ربما يتسبب له ذلك في ردة فعل لا يحمد عقباها .. هل نسيت كم صبرتما أنت ورشا حتى تخطَّى حواجز العزلة؟ وكم قطعتما معه شوطًا طويلًا من الأمل البطيء في طريق مظلم بقوة الصبر حتى خرج من انطوائه واكتسب مهارات التواصل بالتدريج وتفاعَل معكما بعد جهدٍ وعناء، واستجاب للمؤثرات والشعور بالآخرين، وبدأ يندمج مع المحيط بلا خوف؟ لا تحاول أن تدمِّر كل شيء في لحظة غضب يا حسام.. لحظة لا ندرك عواقبها سيتبعها ندمٌ مرير.

– لماذا اختارها القدر من بين كل النساء ليصيب قلب ولدي بعشقها، إنها أخطر عليه من المرض.. أعلمُ ذلك، فإني لم أبرأ منها بعد.

- يجب أن نواجه هذا الأمر بشكل أكثر عقلانيةٍ وتروٍّ يا حسام.

- لقد شاركتْهُ جنونه من أجل أن ترى لحظة انكساري لتشفي غليلها .. لقد حقَّقت اليوم انتصارها وانتقمت أشد انتقام..

- لقد حقق القدر لها هذا الانتصار لما فعلْتَهُ بها فالماضي.

- كانت غلطة طائشة يمر بها كل رجل مهمل في منتصف العمر، وكان يجب إصلاحها قبل أن أخسر حياتي وعائلتي.. لست معصومًا من الخطأ.. بل إني تداركتُه، وعُدتُ إلى رشدي قبل الخسارة.

- لكنها أحبَّتك ووثقت بك وبوعدك يا حسام.. ومن ثم تخلَّيتَ أنت عنها وقت الحادث الأليم.

- لم أكن سببًا في الحادث الذي تعرَّضت له.. لماذا يحاسبني القدر على شيءٍ لم أقترفه، ولا ذنب لي فيه؟

- أنتَ من بدأت هذه العلاقة، وأنتَ من أنهيتها بقسوة يا حسام.. وهي كانت تثق بك كل الثقة بعد أن حاصرتها باهتمامك وحُبِّك الوهاج الذي أشعلتَه بقلبها، ثم تركتها بعد أن خمد بقلبك فجأة دون سببٍ، بعد أن أحبتك واطمأنَّت إليكَ، ولوعدك بالبقاء.. ولم تتوقع أن تأتي تلك اللحظة التي تخذلها أنت بيديك وتطعنها بخنجر الفِراق المفاجئ في يوم الحادث.

- لم يكن لديَّ خيار آخر يا ماجد.

– حسنًا لا أظنُّها تواطأت مع القدر واستقطبت ولدك لتنتقم، لقد تعلَّق بها ولدك مثل معجبيها الكُثُر.. ولكن الأمر اختلف معه في طريقة تعبيره عن إعجابه.. لأن بلالًا مختلف في توجيه طاقته دفعة واحدة في الشيء الذي يريده، ويتعلَّق به إلى حدٍّ كبير دون أن يعي عواقب ذلك .. هذا هو ولدك، وهكذا يجب أن تقبله على ما يكون.

– وكيف أمنع عنه هذا التعلُّق قبل أن يكسر قلبه ويُلحِق به ضررًا جسيمًا؟

– إنك لن تستطيع السيطرة على ولدك وإرادته يا حسام . ألم تَرَ كيف كان ينظر اليها بحبٍّ عميق؟ كيف كان يقبض يده على يديها بشغف؟ كيف كان يطير بها جامحًا فوق الثلج بلا خوف ولا حدٍّ، ولا يرى في زحام المكان سواها؟ هذا التعلق لا يمكن كسره بعنفٍ أو أمر، وإلا فستكسر ولدك أولًا وتخسره للأبد.

– يجب أن أجد طريقة لأمنعها عنه وعن تهديد استقرار عائلتي مجددًا، فما لبثتُ أن تخلصتُ من آثار الذكرى الأليمة معها.. وألقيتُها في جعبة النسيان.

– اترك لي ذلك الأمر.. لا تحاول أنت أن تتحدث إليها لأنها لن تتقبَّل منك كلمة. لقد رأيتُ اليوم كمَّ الحنق والكره الذي يكمن في نظرتها إليك.. وكَمَّ الفرح الذي غمرها وقت رأت انكسارك.

– ماذا ستفعل يا ماجد؟

- سوف أتَّفق ورشا مع الطبيب المعالج لبلال ليتحدث هو معها موضحًا لها عواقب الصدمة التي يمكن أن يتعرض لها بلال بعد الفقد أو الخذلان.. ولكن أرجوك حسام.. لا تخلق عداوة معه بسببها.. سوف ينتهي الأمر في هدوء إن أحكمتَ زمام انفعالك.. وواجبك الآن أن تحتوي ولدك .. لتعبر به إلى بَرِّ الأمان.

- سوف أفعل أي شيء لأمنع خطرها عنه.

ودّع ماجد صديقه بعد أن هدأت ثورته وانطلق بسيارته.. وجلس حسام بالحديقة ينظر إلى السماء التي زيَّنها البدر الساحر في تمامه قائلًا لنفسه:

- إلى متى ستتمكنين من كل قطعة بروحي كل مدى يا ندى؟

ثم أغمض عينيه وسبح بذاكرته في فضاء الليل البهيم بين تفاصيل اللقاء وصور الماضي الأليم، رغم الضجيج المضطرب بقلبه حين تجسدَّت فيه كل الذكريات القديمة.. منصتًا إلى صوت هاتفه من الأعماق.

لا تتوهَّجي كالشمس تحرق صحرائي

"كيف تملَّكتني هاتان العينين المتوهجتين لهذه الفتاة الصغيرة منذ اليوم الأول لتقدُّمها للعمل بالشركة التي أسستُها بعد تعبٍ وجهد طويل؛ حين عرضت إعلانًا لتوظيف مهندسين حديثي التخرج للعمل بالشركة بعد أن ذاع صيتها، واتَّسعت مشروعاتها في مجال الهندسة المعمارية وأعمال البناء والديكور.

وفي يوم المقابلة.. اخترقت قلبي تلك النظرةُ التي أسرتني بمجرد ما وقعت عيني في بحر عينيها الساحرتين، إلى درجة أني لم أنتبه إلى إجابتها عن أسئلة المقابلة.. ووافقتُ على تعيينها مهندسة ديكور تحت التمرين.. بل تحت عينيَّ اللتين كانتا تبحثان عنها كل صباح.. بمجرد وصولي الشركة.

لا أفهم لماذا هاجمني وقتها ذلك الشعور الجارف الذي تملَّكني كغريق يبحث عن طوق نجاة ينتشله من وحل الهموم وملل الاعتياد بحياته الرتيبة

الباهتة.. أو تائها عطشًا في صحراء جرداء وجد بقعة ماء هرول إليها ليطفئ العطش المكين. إنه كذلك الجنون الذي شعر به ولدي تمامًا. ولكني لم أكن لأجرؤ على البوح به بكل هذا الجموح إلا بعد أن تأكدتُ ذات يوم أني سأفقدها للأبد، يوم طلت بإشراقتها غير العادية تخبر زملاءها بالشركة وتخبرني بلا اكتراث لألمي بخبر خطبتها..

وكأنها ألقت حجرًا في المياه الراكدة بقلبي فتحركت ، وأشعلت جمرةً اتقدت بعتمة بصدري دون أن تدري يوم وقع الخبر على مسمعي كالحمم المتساقطة من سفح بركان أعلن عن ثورته من مخمده بأعماقي، جرف كل الشوق إليها، وأطاح لحظتها بعقلي واتزاني.

ودون تفكير، وجدتُ نفسي بلا وعي أخبرها بأني أحبُّها.. وأني سأحتمل ألم فراقها فقط من أجل سعادتها.. فقد كانت تعتزم السفر مع زوجها بعد إتمام الزواج، وبدأت تجهِّز لذلك في وقتها.

صدمتها بجرأتي وقت اعترافي بحبي المكنون لها منذ أن وطئت قدمها الشركة في أول مقابلة عمل.. ولم أدرِ كيف تسلل إلى روحي دون استئذان نسيمُ حبها الهادئ، وأسرني إلى هذا الحد من التعلق والجنون؟ ولماذا انعدم وتلاشى في لحظة الفراق بعد أن خمد وهجها أيضًا فجأة بقلبي، فكان الرحيل محسومًا.

أدركتُ بعد حين أنها كانت تلك الأزمة التي تصيب الرجل بمنتصف العمر.. تعصف بكيانه وسلامه الداخلي.. وتثير كل رغباته من مرقدها،

وتجمح بجنونه تحت غمرة النشوة دون وعي، ودون أن يفكر في عواقب ما بعد زوالها.. ثم تخمد جذوتها فجأة فتصبح رمادًا.. ثم ينقشع غبارها عن القلب المفتون بها كأنها يوما لم تكن.

لم يكن ذنبها أن صدقت الوعد.. وعد الرجل الذي أحاطها اهتماما وحنانًا جمًّا، هربت منه بعزم قوتها في البداية، وكان هو ذلك الهارب من ملل حياته وراءها بعزم احتياجه، وضعفه حتى استجابت لنداء العِشق الكبير بعد أن أُصيب قلبها بسهمه قدرًا.

منذ سنوات طوال قبل أن ألتقيها كنت قد تزوجت رشا عن قناعة بأنها الزوجة المناسبة في الوقت المناسب.. فكل ما بيننا كان تكافؤًا وانسجامًا.. لم يكن حبًّا عميقًا بمفهوم التعلق والجنون.. كان حبًّا رسمه العقل، وأقنع به القلب بالتدريج.. إنها قريبة لي من ناحية أمي.. اختارتها لي بعد أن خرجت من أزمة الحب الأول التي تُغيِّر نظرة العاشق المتهور إلى مفهوم الحياة.. الحب الأول الذي يجني ثمرة الهوى الخيالي في باكورتها.. حب الشاب المتحمس لزميلته بالجامعة، سنوات من الأحلام الكبيرة التي تتكسر في نهايتها على أرض الزيف والخذلان.. على أرض الواقع الذي يصفع القلب الصفعة الأولى ليفيق من غيد الأحلام.. الواقع الذي يتجسَّد في شابٍّ طموح في مقتبل حياته لا يملك شيئًا، وفتاة يخشى عليها أهلها من أن يفوتها قطار الزواج بسبب الانتظار أو أن يضيع عمرها في زيجة غير طموحٍ، فيشيرون

عليها أن تقبل الشاب الجاهز ماديًا لتؤسِّس حياة بلا كّدٍّ ولا تعب.. ملقية بساكن قلبها إلى خارجه ليضيع في درب العذاب وحده حتى يسقطه الزمان في جعبة النسيان.

إنه القدر الذي يختار لنا ما لا نختاره.. لحكمته التي لا نعرفها.. ولا ندركها إلا بعد أن نستقل قطاره مرغمين حتى لا يفوتنا، فنضيع بين الزحام تائهين لا نعرف وجهته، ولا نملك أن نُغيِّر مسار الطريق.

"أتذكَّر هذا اليوم الذي التقيتُ فيه رشا أول مرة في لقاء عائلي دعت أمي أهلها على مأدبة عشاء بمناسبة مولود أختي الكبيرة الأول.. وكان بالطبع لقاءً مُدبَّرًا من النساء.. وما على الرجل إلا الوقوع بفخ التدبير.

وجدتُها إنسانة هادئة.. جميلة.. لطيفة.. وجهها الناصع البياض يشعُّ براءة وحنانًا.. شعرت براحة تجاهها.. وشعرتْ هي الشيء نفسه تجاهي.. فلم نكن بحاجة إلى لقاء ثانٍ.. وقد كان إعلان القبول واضحًا أمام أعين الجميع.

تَمَّت خطبتنا وسط فرحة عائلية غامرة.. فرحة ينقصها قلبي الذي اشتاق إلى أن تكون هذه الفرحة مكتملة بساكنته الأولى الراحلة.. وهو يدرك جيدًا أنها أبدًا لن تعود.. وقد تزوجت ورحلت وربما أنجبت طفلها الأول.. ونسيتْ ما كان بيننا من أحلام ووعود لسنوات.. ألقته من نافذة القطار الذي لحقت به قبل فوات الأوان.. لتؤسِّس بعيدًا حياتها الجديدة. والرجل

يُخيل إليه أنه أقوى من الهزيمة، وأنه يستطيع تأسيس حياة أخرى مع أخرى سوف تنسيه ما فات بحنانها واهتمامها، وهذا ما توقعتُ بل تمنيتُ أن أجده مع رشا.

ربما كنتُ متقبِّلًا رشا في بادئ الأمر بعقلي بسبب تكافُئنا العائلي والدراسي وتقارُبنا المادي.. ولكن بعد فترة من خطبتنا استطاعت باهتمامها وخِفة ظِلها وجمالها وطيبتها وحبها الكبير لي.. أن تأسرني وتغمرني فرحًا كلما رأيتُها.. رغم أنها لم تحتل قلبي بكامله، وكانت تعلم ذلك، ولكنها كانت مُصرَّة على اقتحامه واحتلاله، كنت منبهرًا بمحاولاتها رغم عدم تخلي قلبي عن حلمه وذكرياته.. وهذا ما لا نملك أن نفعله عنوة.. لأننا لا نملك على قلوبنا سلطانًا.

وتزوجنا بعد خطبة قصيرة نجحتُ في إقناع نفسي فيها بالسعادة التي لن تزول.. وبدأت في تأسيس شركتي الصغيرة، فقد كنت أجتهد كي أُحقِّق طموحي ونجاحي بالكّد والتعب الذي كلَّله الله باليُسر والنجاح.

سافرتُ إلى الصين كي أتعاقد على بعض الأجهزة والمعدات الخاصة بالبناء.. كي أستطيع أن أبني اسمًا لشركتي يصبح له صيت يُذاع، وثقة بالسوق في عالم المعمار والبناء.. فتتوسع في مشروعاتها بشكل أكبر حتى يصبح اسم الشركة هو الرائد الأكبر في السوق.. في هذه الفترة التي سافرت فيها كانت رشا تحمل قرة عيننا الأول.. "بلالًا".. وعندما وضعته قبل ميعاده

طرتُ إليها من أبعد البلاد كي أشمَّ رائحته، وأضمَّ إلى صدري صديقي ورفيق دربي الجديد. لقد عشتُ ولدًا وحيدًا لأختي، وها قد حضر ولي العهد الذي لن يجعلني أشعر بوحدتي، وهو من سيرافقني إلى آخر دربي، ويحمل من بعدي اسمي بمشيئة الله.

كان قدوم بلال فرحة لا تضاهيها فرحة.. وحبًّا جمًّا غمرني تجاه رشا؛ لأنني افتقدتُها، واشتقتُ إليها كثيرًا في غيابي.. يومها أدركت المعنى الحقيقي للحب الذي يُولِّد مع العشرة، ومع الفرحة، ومع الولد الذي يزيد الرابط بين الزوجين، والشوق الذي يتولد مع الغياب.

وبدأت رشا تحتل مساحة من قلبي الذي كان موصدًا على ساكنته القديمة التي بدأت تتزحزح عن مكانها لتسكن رشا فيه .. رغم أنها كانت تخفق فيه بين الحين والحين، تتمرد على ساكنته الجديدة وتطردها بكل عنفوان، وتثير في لحظة جنون كل غبار الذكريات.. ولكني كنت آمل أن تحتل رشا كل المساحة بالتدريج وتهزمها بقبلي للأبد.. كنت أراهن عليها وعلى الزمان والنسيان.

مَرَّ أكثر من عامين.. كانت رشا هي داعمتي الأولى في تقدُّمي في عملي الذي انشغلتُ فيه كثيرًا، لدرجة أني كنتُ أسافر فتراتٍ طويلة، وأراها هي وبلالًا ربما لأيام قليلة.. قبل أن أبدأ سفرًا جديدًا مع مشروع جديد، وانهماكي بالعمل في موقع أطيل البقاء فيه شهورًا لأُتابعه.

كانت حياتنا مستقرة حتى جاء ذلك اليوم الذي بدأت رشا تلحظ بعض التغيرات الغريبة على سلوك بلال بعد عامه الثاني ببضعة أشهر.. وقد

تأخَّر عن موعد نطقه الطبيعي، وطمأنها زميلها بأن هذا يتفاوت من طفل إلى آخر.. وربما علينا أن نُجري له فحوصًا للسمع وللبصر، ورسمًا للمخ، والتي كانت نتائجها سليمة بجانب الفحوصات الشاملة؛ مما جعلنا ننتظر لربما نَطَقَ في أي وقتٍ، أو إحتاج إلى جلسات تخاطُب كأطفال كثر لا يعانون أي مرض عضوي. لم نشغل بالنا كثيرًا بشيء سوى تأخُّر النطق، وكانت رشا ترقبه.. حتى تجاوز عامه الثالث، وقد بدأت رشا تلحظ تغيرًا آخر، وهو أن شروده المستمر يزداد مع الوقت، وعدم انتباهه إلى وجودها، وعدم استجابته لصوت ندائها.. كان أمرًا لا يستدعي الانتظار.

وبدأت حركاته المفرطة التي تحولت إلى عنف مُبالَغ فيه في عزلته الملحوظة غير متوقع، وغير مبرَّر، وتصرفاته النمطية المتكررة لا تدل على أنه يسلك النمو الطبيعي كأقرانه في هذا العمر، وخصوصًا أنه لا يستجيب لأي نداء.. وعند الغضب أو الانفعال الذي لا يستطيع أن يعبر عنه بالكلمات التي لا ينطقها كان يقوم برفرفة يديه بشكل غريب كطائر يُحلِّق في السماء بلا مبرر، وصراخه غير المنطقي في التعبير عما يريد كان متعاليًا حد الألم إن وضعته أمُّه بالفراش، والذي كان لا يهدأ إلا بعد عذاب- وكان لا يأبه إلا بما يتعلق به من أشياء، وكأن كسر روتينه الصارم أمر غير قابل للحدوث ولا للقبول أبدًا، فكان شيئًا وقعُه في نفوسنا مثير للقلق والريبة.. وقد أصبح يومًا بعد يوم يتجنب النظر إليها وإلينا أو إلى وجوه الأشخاص عامة، رغم أنه كان يطيل النظر في لُعبِه التي يهتم بها بشغف مبالغ فيه، ولا يهتم بسواها.. ورغم

أننا لم نقصر قط في رعايته – فـ "رشا" تعرف جيدًا كيف تعتني بطفلها كونها أمًّا وطبيبة – فإننا واجهنا الصدمة الكبرى عندما شخصَّ حالتها زميلها الطبيب أحمد استشاري الأطفال وتعديل السلوك بعد الفحص المتكرر بأنه مصاب "بطيف التوحد". كان ذلك بعد إجراء فحوصات خاصة للجينات المصابة، لم نعِ الصدمة في وقتها، حين هدَّأ أحمد من روعنا وقت وَقْع الخبر على مسامعنا كالجمر المتقد أصابنا بالصمم و الخدر من الألم .. وقال إن كل هذه الأعراض تشير إلى طيف التوحد، وأن التشخيص المبكر علامة ممتازة يتوقف عليه استجابته الكبيرة للتأهيل والعلاج واكتساب مهارات التواصُل فيما بعد في وقت قياسي، ولكن علينا أن نواجه الأمر بصدرٍ رحب ورضا، فالطريق إلى إعادة تأهيله واستعادته من الشتات والعزلة طريق شاق وصعب.. ولا يحتمل أي يأس أو انهيار.

كم كانت صدمة قاسية على قلبينا باغتتنا ولم ترحمنا، واغتالت أملنا الكبير بطفلنا الوحيد.

يومها قررتُ بحسم ألا يصبح بلال وحيدًا.. مثلما كَتَبَ له القدر أن يكون متوحدًا.

فاجأتني رشا بقرارها برفض الحمل في هذا التوقيت؛ لأن رحلة العناية ببلال ومراحل علاجه سوف تحتاج إلى جهدٍ شاقٍّ، ورعاية فائقة، لا تستطع أن تمنحه إيها وهي تحمل طفلًا آخر سوف يحتاج إلى رعاية هو أيضًا.. ولكني

كنت لا أريده أن يبقى وحيدًا، وحسمتُ هذا الأمر بيني وبين نفسي، وأخبرتُها بقراري المحسوم، وقد حدث بيننا خلافٌ كبير حين رفضت.. ووجدت ردة فعلها أنها اختارت أن تُكرِّس كل اهتمامها لابنها بالكامل، وتجنَّبتني دون أدنى اعتبار لي.. ومن يومها أصبحتُ أنا وحيدًا من جديد.

منذ هذا اليوم بدأ الفتور يلقي بوشاحه القاتم على علاقتنا.. أصبح كل اهتمام رشا موجهًا بالكامل إلى بلال.. وألقتني -دون أن تدري- في منفى الإهمال.. موقنة بأن بلالًا هو أهم ما لديها في الحياة.

في بادئ الأمر لم أستطع أن ألومها.. هو ولدي أيضًا، ولا بد أن أتحمل معها عناء الجهد الذي سنبذله من أجل أن يستجيب بلال في رحلة علاجه المجهد الطويل حتى تتحسن قدراته على التواصل، ويستجيب لنا وللإدراك بما يحيطه، وذلك بتنمية مهاراته واستعادته من العزلة قبل فوات الأوان؛ كي لا تفوته فرصة التعليم والدراسة، وحتى نستعيده إلى طبيعته قدر المستطاع.. ولكني لا أنكر أن عملي أعاقني عن بذل القدر الكافي من الجهد في رعاية ولدي، وهو واجبي.. فتحملتْ هي على عاتقيها كل الجهد.. دون أن توجِّه لي أي لوم.. كل ما كان يهمها هو ألا تفقد بريق الأمل البعيد في عودة ابنها الوحيد من عالم الانطواء إلى عالمنا ليعرفنا.

طال انتظار الأمل الذي اقتفينا كل أثر له بعناء وصبر طويل، وتكررت المحاولات في العلاج بين الاستجابة والفشل.. فبعد أن نخطو خطوات

في طريق النجاح، نعود خطوات مهزومة في طريق اليأس، ولكن إصرار رشا علي المحاولا،ت وعلى تحمُّل كل التبعات المنهكة والآلام كان طوق النجاة لنا دائمًا، ينجينا من براثن اليأس اللعين. وبعد تكثيف التدريب التنموي والبرنامج المهاري للتواصل، بدأ بلال بالتدريج في الاستجابة للتعلم والتواصل معنا، وبدأ يعرفنا وينتبه إلينا أحيانًا، ويعذبنا بانطوائه الطويل وعُنفه المبالغ فيه أحيانًا أخرى، حتى اللحظة التي نطق فيها "أمي" في بداية السادسة من عمره، كانت بقعة النور الوحيدة في درك الشقاء والجهد والمحاولات الدؤوبة المستمرة لاستعادته .. أخيرًا دبَّت بروحنا المطفأة، وروح هذا البيت الحياة.. لقد بدأ وحيدنا النطق، وبدأ يكتسب المهارات التي يتعلمها بسرعةٍ فائقة في رحلة التعلم المكثف، وبدأت الحياة تعود إلى البيت الكئيب، بدأ يضيء بالأمل من بعد ظلام بعد أعوام من الفتور وألم الحزن وخوف الانتظار لتغمره فرحة عارمة لم نعهدها منذ قدوم بلال.

يومها ألححت على رشا مرة أخرى أن نأتي بأخ أو أخت لبلال.. وعزمتُ ألا أستجيب لرفضها بأن أتركه وحيدًا بعد اليوم.. وقد بدأ الأمل يزهر في بيتنا من جديد..

واستجابت رشا.. ورُزقنا بـ"عمر" بعد فترة وجيزة كان بلال فيها قد بدأ الدراسة بالدمج في إحدى المدارس المتخصصة، وقد بدأ تعلُّمه مهارات التواصل والانتباه يتقدَّم إلى حدٍّ لا بأس به رغم بقائه على روتينه الصارم

واحتفاظه بتفاصيل عالمه المنطوي.. وساعدنا على ذلك مقياس ذكائه المتقدم الذي كان يتخطى مستوى ذكاء أقرانه من الطبيعيين.. إذ كان له ذاكرة قوية تساعده على تخزين المعلومات الكاملة بصورة مذهلة لفترات طويلة، وإن كان التكرار المفرط للكلمات والحركات هو عائق ما زال لم يجتزْهُ بعد .. ولكننا لم نستطع وقتها أن نجزم بعودته إلى طبيعته بشكل كامل، ولكن يكفي أننا قد تخطينا التأخر، وهذا في حَدِّ ذاته كان أهم وأكبر دافع لاستمرار الأمل وتتبعه بإصرار.. كنت أظن أن الحياة ستعود إلى رونقها بعد أن بدأنا في الاستقرار الفعلي لعائلتنا الصغيرة بعد الشوط الطويل الذي قطعناه مع بلال حتى استعدناه من العزلة .. ولكنه بعد أن كان لا يكترث بالخطر والأزمات، ولا ينتبه كثيرًا لذلك، ولا يبالي بالشعور تجاه الأشخاص والأشياء، أصبح حساسًا بشكل مفرط، ومتعلقًا بأشيائه الخاصة تعلقًا شديدًا، كأنه جزء منها، أو هي جزء منه لا ينفصل.

وكان ينفث غضبه العارم إن كسر له أخوه لعبة من ألعابه المفضَّلة بضرب رأسه في الحائط مع الصراخ الهستيري، لدرجة أنه لا يشعر بالألم، ولا بأنه يؤذي نفسه .. أو يقوم بضرب أخيه ضربًا مبرحًا أو تحطيم الأشياء التي لا تخصُّه ويهشمها تهشيمًا ... ولكن في يوم الحادث الغابر كان الأمر أشد خطرًا مما توقعتُ أنها مجرد نوبات هلع تهدأ في وقتها .. لقد أنقذت "عمر" من موت مُحقَّق على يديه، وكان عمر قد تجاوز العامين بقليل .. عندما باغتنا بلال واصطحبه إلى المسبح الذي بنيتُه له بحديقة الفيلا بمواصفات

خاصة تناسبه.. اصطحبه مغفلًا أمَّه.. وقام بغمره طويلًا تحت الماء.. وهو يراقب بهدوء وعدم اكتراث مقاومة الصغير تحت الماء محاولًا الخلاص.. لاحظته من مكتبي وأنا أُجري مكالمة حين ساقني القدر أن أنتبه إليه من النافذة، رميتُ الهاتف وقفزت من النافذة لأنقذ الصغير.. الذي كاد يغرق بين يديه، واضطررنا لأن نقيم به بالمشفى فترة تحت الرعاية المشددة حتى استعاد صحته.. من يومها خضع بلال للعلاج النفسي المكثف تحت إشراف طبيبه الذي أخبرنا أنها وسيلة من وسائل انفعاله وتعبيره عن أفكاره المشتتة أو غضبه المتأجِّج أو حماسته المفرطة دون القدرة على تمييز درجة الخطر وعواقبه، وأنه ينفِّس عن طاقة هائلة بداخله لا يستطيع أن يصفها أو يبوح بها و يخرجها إلا بهذا العنف والإفراط الذي ربما يكون تعبيرًا عن حبٍّ أو احتياج كبير للاهتمام؛ لذلك ينبغي توجيهها إلى شيء إيجابي يبرع فيه ويكون مُتنفسًا له ليبعد تركيزه عن إخراج طاقته بعدوانية مفرطة.. وبدأنا في قطع شوط آخر من الرعاية له.. وكانت رشا لا تيأس أبدًا مثلما، أصابني أنا اليأس التام بعد هذا الحادث.

أشعر بالامتنان الكبير لرشا على قوة تحمُّلها كل هذا الجهد الطويل والشقاء، وصبرها ورعايتها الفائقة لبلال على حسابي وحساب صغيرنا عمر.. ولكنها كانت سببًا أساسيًّا من أسباب افتقادي أنا للحنان وشعوري المرير بالوحدة التي تسللت إلى روحي كالعطن الذي تفشَّى بكل أرجاء قلبي، وأصابتني تلك الوحدة القاتلة فيما بعد بنهم البحث عن الاهتمام

المفقود .. فكنت أبحث عنه بشراهة المحروم في كلمة عابرة من إحداهن أو نظرة غير مقصودة حتى ولو كانت خيالا أو كذبًا.

مَرَّت سنوات.. وازدادت مسؤولياتي بعدما أفنيتُ عمري في إعلاء اسم شركتي حتى حققتُ حلمي الكبير، وأصبحت أكبر شركة في مجال الهندسة المعمارية والبناء في الشرق الأوسط.. ربما عوَّضني هذا النجاح عن الفتور الذي أصبح أمرًا واقعًا بيني وبين زوجتي التي نحَّتني جانبًا تمامًا من قلبها بسبب عظيم اهتمامها بولديها.. حتى وإن كان ذلك الإهمال دون قصد منها.

مرَّت السنوات، وكان بلال على مشارف البلوغ في السادسة عشرة من عمره .. ليصبح شابًّا مكتمل البنيان، ولكن رغم ما لديه من ذاكرة قوية كانت تُعوِّضه عن الجزء المنقوص، وفقد عمق الحس والإدراك لم يكن ذلك كافيًا ليعوِّضه عن القدرة على التمييز الحسي بشكلٍ صحيح أحيانًا أو التواصل الكامل مع من حوله بصورةٍ تلقائية طبيعية.. كأنه جهاز مُبرمَج يحفظ كل شيء في الذاكرة دون أن يعرف كينونته. وعلى الرغم من أنه قد أصبح إلى حدٍّ كبير يفهمنا ويشاركنا الحديث ويعبر عن احتياجاته ولو كانت بتحفُّظ بعض الشيء، كان ما زال يتمسك بعزلته وقلة حديثه وجُموده .. وقد شحن كل تركيزه وطاقته في القراءة والرياضة.. هو عاشق للتاريخ والروايات الأسطورية، يحفظ الأحداث والتواريخ بتفاصيلها عن ظَهْرِ قلب .. يستطيع أن يطلق خياله يُصوِّر له أعظم القصص بين حقب التاريخ المختلفة، كأنها

أساطير يعيشها كاملة بعالمه الخاص الذي لا نفهم ولا ندرك إلى الآن كيف يراه.

استمرت الحركات النمطية أو المتكررة معه إلى الآن، ولكن بشكل أقل حدة مما كان عليه في الصغر.. وساعده على الحد منها التحاقه بالنادي للتمرين في رياضة الركض لما كان يتميز به من سرعةٍ فائقةٍ، وحركة مفرطة، وكان يحصد جوائز عديدة في البطولات، وقد كان مدربه دائم الثناء عليه لما يقوم به من جهد واضح في التدريب.. وأحيانًا ما كان يذهب أيضًا للتزلج مستمعًا إلى موسيقاه المفضَّلة المتكررة التي لا يُغيرها من هاتفه أو حاسوبه، والتي تسحبه بحركات متناغمة انسيابية على أنغامها التي يعشقها كجواد جامح على بساط الثلج يسبح وحيدًا في فضائه. ولكني لم أرَه بكل هذا التوهج إلا اليوم .. مع ندى.

ورغم أننا تحدثنا معه أنا وأمُّه ونهيناه عن ذلك؛ لأننا كنا نخشى عليه من فرط حركته أن يسقط كما سقط من قبل بلا اكتراث وكُسرت ذراعه.. لكنه بين الحين والحين كان يختلس الذهاب إلى عالمه ليحيا .. فأدركنا أن الأشياء التي يتعلق بها لا يستطيع التعلُّق بسواها. هذا هو صديقي ورفيقي الذي انتظرتُ عودته من المرض الصامت بعد يأس وعناء طويل.. انتظرتُه طويلًا كي ينتشلني من وحدتي. ربما لأنني لم أستطع التوحُّد مع حلمه الذي لم أفهمْهُ، فعُدتُ أنا وحيدًا حتى أصابني يأس الانتظار.. واستعضت هذا

الفراغ الكبير الذي امتلأ به قلبي المهجور بعملي المفرط الدؤوب.. وبصديقي المُقرَّب ماجد الذي كان أقرب لي من عائلتي في بعض الأحيان، هو مستودع أسراري، ورفيق دربي، ومن يتحمل عني حزني.. بعدما ازدادت بيننا الفجوة أنا وبلال ورشا اتساعًا دون أن نشعر.

حتى قابلت "ندى" قدرًا.. تلك الفراشة المخملية الرقيقة.. التي أسرتني منذ اللحظة الأولى حين خلعت عنها نظارتها القاتمة؛ لتشرق في قلبي عيناها الزرقاوان كنجمتين ساحرتين تسحبني إليهما مقادًا دون مقاومة.. في تلك النظرة الأولي شعرت أنني بدأت السقوط في بئر عميقة مخبأ بهما سحر آسر للروح لا يقدر على مقاومته ضعيف مثلي ..كم كان قلبي باهتًا حتى أصابه لونهما العميق كالبحر فتصبَّغ به وتلألأ.. حتى كدت أغرق فيهما عشقًا، وكم أحببتُ الغرق طواعية في عينيها.

صارت ندى ذلك الفرح الذي يُصيبني كل صباح.. ومصدر تلك الحماسة التي تتقد بصدري ويرتجف لها قلبي قبل أن تلتقي عيناي بعينيها.. حتى في أوقات اجتماعات الشركة الهامة تحت رئاستي.. كانت تأتي لحظات يختفي فيها الحضور ولا يطغى على ناظري وروحي إلا حضورها.

كنتُ أعشق أسري في عينيها لبضع لحظات أختلس فيها النظر إليها طول اليوم، كانت تكفي القلب الظمآن ليرتوي.. كنت دومًا ما أقول لنظرة عينيها الخاطفة دون أن تدري: "وقليلك لا يقال له قليل."

أصبحت حياتي ذات لونٍ جديد أخرجها عن قضبان أبيضها وأسودها.. لون البحر العميق الذي ارتفع بقلبي حد السماء، فانعكس طيرًا جامحًا على صفحتها، أصبح حُرًّا طليقًا يعشق الطيران. أصبحت أعشق تلك الرجفة التي تُباغتني قبل أن ألقاها، وتلك اللعثمة التي تعتريني أمامها كمراهقٍ لا يعرف ماذا يقول أمام محبوبته في أول لقاء.

كل ما يمكن وصفه أو لا يمكن وصفه في هذا الشعور كان يجتمع في كلمة واحدة:

(أصبحتُ "حيًّا" بعد موتٍ طويل).

هكذا اجتاحت ندى بكل جاذبيتها وبراءتها وبسحرها العجيب كل المساحة الجرداء بقلبي الذي استسلم لها دون مقاومةٍ ليزهر بعد طول حرمان.

لا تَعُدْ.. يا حُلم أفضى إلى موت

"كيف تجرأت في هذا اليوم أن تقولها بكل جرأة في وجهي بأنك تحبني وأنت تعلم أني سأتزوج سواك؟"

قالت ندى في نفسها وقد بدأت تسبح في ذلك الماضي الذي امتلأ عن آخره بصور الذكريات البعيدة.. الجميلة منها والأليمة.. حين جسدتها الذاكرة حية، واستدعتها من صندوق أعماقها المغلق في تلك اللحظة أيضًا.

"دخلت إلى المكتب في هذا اليوم بعد عام وثمانية أشهر من بداية عملي بالشركة، أخبر الزملاء بخبر خطبتي من زميل لنا مهندس في قسم آخر.. كان أيمن مناسبًا ولطيفًا.. ووجدت فيه صفات الزوج المناسب، ربما أيضًا في الوقت المناسب بعد أن أصاب قلبي خذلان الحب الأول المُلقي في جعبة الألم حتى يمحوه النسيان.. لم أعد أثق بالوعود الزاهية التي يزينها العِشق الكبير بالزينة الباهرة التي تغشي النظر وتصيب القلب البريء بالفرح حتى ينغمس

بأحلامه الوردية، ويظل محلقًا في عالم الأحلام حتى تصفعه يد الخذلان غدرًا، فتُسقطه من عنان السماء ليرتطم بأرض الواقع الأليم.. ثم ليجد نفسه وحده في مواجهة الفراغ في دربٍ موحشٍ مُقفرٍ بعد تلاشي الأمل كالسراب.

"أصابني سهم الحب الأول، وكنتُ في عامي الأخير من الجامعة، وكنت أدرس الهندسة المعمارية، وكان هو يكبرني بعام دراسي بالجامعة، وقد تخرَّج قبلي.. بعد ارتباطنا ثلاثة أعوام من الحب والحلم والوعود الزاهية والتخطيط لحياتنا ومستقبلنا معًا.. جاء إليَّ في ذلك اليوم يخبرني أنه يخلنّي من كل الوعود.. فقد رفض أهله زواجه بي.. لقد كان الفارق الاجتماعي بيننا كبيرًا.. فهو ابن أحد أهم رجال الدولة.. وعندما تتلاقى النفوذ والمصالح يتم اختيار امتداد الأنساب المناسبة لهم فيما بينهم.. وقد اختارت له عائلته زوجة تليق بهم.. لا فتاة مثلي ابنة لرجل بسيط مكافح قام على تربيتها وأخواتها أفضل تربية، وعلَّمنا من حلال قوته أفضل تعليم.. وقتها أدركتُ أن الأحلام دومًا رائعة إلى أن يأتي ميعاد هبوطها إلى أرض الواقع.. إما أن تهبط في موكبها البديع وتتجسَّد، وإما أن ترتطم وتتحطم وتتلاشى كأنها لم تكن .. فلا مكان في واقعنا إلا للأحلام المحسوبة، حيث لا مكان للأحلام المشروعة أمام السلطة والنفوذ.

انتهى حلمي الكبير.. في لحظة أفاقتني على مرارة الواقع.. الذي لا يسمح بتجسد كل الأحلام مهما تكن رائعة.. وأقنعت نفسي -بعد فترة خروجي من

أزمتي المريرة – أنها مشيئة القدر، وأنه حتمًا سيحمل لي خيرًا كثيرًا، يُعوِّضني ألم الفقد فيما بعد. هكذا آمنتُ ورضيت بمشيئة القدر طوق نجاتي الوحيد؛ كي أضمد جرحي الغائر، وأستطيع المضي في خضم معارك الحياة بقوة.. رغم ما أحمله من روح هشة وقلب مكسور.

بعدما تخرجت.. لم أجد عملًا بسهولة.. فعملت بمكتبة حتى أقتل الفراغ، وأعين نفسي على الحياة؛ فوالدي رجل بسيط تحمَّل عناءنا كثيرًا، لا يجب أن أحمله فوق طاقته، فصرت أتحمَّل عنه مسئولية نفسي على الأقل.. وفي خلال فترة عملي بالمكتبة التي كنت لا أتقاضى منها راتبًا كافيًا إلا ما يُعينني بصعوبةٍ.. كنت أقرأ كل الأعمال لعمالقة الأدب، وأيضًا الأعمال التي تصدر حديثًا عن كتاب جدد، وقرأت كثيرًا في الأدب العالمي منبهرة بتجدُّد الأفكار والمعلومات القيمة الإبداعية الشائقة.. حتى أدمنت القراءة، التي كانت عالمي الخاص، فيها لمست كل حلم من أحلامي مع أبطال روايات وأحداث كُثُر، وسافرت فيها إلى كل مكانٍ، وعبر كل الأزمان.. فالكتب هي البوابة الزمنية التي تجسد الأحلام البعيدة، وتجعلنا نلمسها ونحياها كأننا نحن أبطالها .. فتبعث سريانًا من الشغف يروي عطشنا إلى السعادة، ولو كانت للحظات قصيرة من العمر أثرها يبقى طويلًا.. كنتُ أطيل أوقات القراءة بنهم دون أن أشعر، فتطول لحظات السعادة التي تتغلغل بي، وأرتشف منها حدَ الارتواء.. ووجدت نفسي أحاول أن أرسم أبطالًا في خيالي.. أحاول تجسيد بعض أحلامي بطريقتي.. وحاولت الكتابة، وقد كانت هواية قديمة

عندي منذ الدراسة في وصف شخصيات صديقاتي ومدرساتي وتجسيدها، كي أتذكرهن بعد مرور الزمان.

وأدركت أن الكتابة المتمكنة تصقلها القراءة المكثفة.. التي تفتح نوافذ على العالم الذي لا ندركه فنعرفه من خلالها، نسافر عبر الأسطر بين الحقيقة والخيال، وتزيد الحصيلة اللغوية والبلاغية مع التنوع في الأفكار، ومع التكرار.. هكذا فعلت بي القراءة بعد عامين من عملي بالمكتبة.. حتي أخرجت في هذين العامين بعد جهد ومحاولة مثمرة أول كتبي إلى النور.. وكان كتابًا بعنوان: "لا تمت قبل أن تحيا".. عرضته على دار النشر التابعة له المكتبة، وقبلته للنشر على الفور.. وبنجاح أول عمل لي بدأت أستعيد ثقتي الضائعة.. وبدأت أتخطى الألم وخيبة الأمل، وبدأت أضع قدمي على أول طريق الحلم البعيد حين بدأ أمل جديد يشرق في أعماقي، والذي بدأ يتجسد حقيقة، وكان دافعي القوي في ذلك الوقت هو أن يعلو اسمي في عالم الأدب كالعمالقة الذين نقرأ لهم.. ليندم صاحب النفوذ على عنصريته تجاهي.. لقد أراد الله أن يُعوِّضني بخير مما كنت أتمنى.

وبعد إصدار الكتاب ونجاحه بفترة وجيزة.. قرأتُ إعلان شركة المهندس حسام، وتقدَّمت إلى الوظيفة، وقُبلت للعمل على الفور في شركته المعروفة بأنها من أكبر شركات الهندسة المعمارية والبناء في الشرق الأوسط.. وكان ذلك الحدث هو أكبر نقلة في حياتي.. كان حلمًا جديدًا

وحماسة اتقدت في أعماقي أن أُحقق ذاتي في مجالي بعد غياب، توقفت وقتها عن الكتابة حتى أتفرغ تمامًا لعملي الجديد ذي الراتب الكبير؛ لأثبت كفاءتي وجدارتي بالشركة بعد أن ابتعدتُ عن المجال الهندسي لمدة عامين.. وبالفعل كنت متحمسة للعمل بشكل كبير بعد أن استعدتُ معلوماتي، وحرصت على حضور الدورات المكثفة في وقت التدريب.. وكنت أتقدَّم للمهندس حسام رئيس الشركة بأفكار لتصميمات جديدة ومبتكرة.. كان ينبهر بها ويكافئني عنها مكافآت مجزية.. وبعد عامي الأول في عملي الجديد، وقد بدأ الحال يتيسر بفضل الله وكرمه، وبدأت حياة جديدة مليئة بالأمل والخير، وانتقلت بأبي وأمي إلى شقة جديدة كبيرة استأجرتها، لكي يرتاحا من عناء منطقتنا المتواضعة.. وأصبح لديَّ سيارة صغيرة ابتعتها بالتقسيط، فقد كان حسام يزيد من راتبي ومكافأتي مع كل نجاح أحققه معه بتصميماتي المبتكرة المتميزة.. حتى جاء ذلك اليوم الحزين الذي فارقنا فيه والدي ورحل إلى مثواه.. كم كان يحلم أن يراني مستقرة ببيتي كأخواتي ويرى أحفاده! ولكن القدر لم يكتب له أن يرى حلمه الأخير.. وبقيت أنا وأمي كل من تبقَّى لي في هذه الدنيا.. أقوم على رعايتها وألتمس من دعائها البركة والتوفيق.. حتى جاء ذلك اليوم الذي ذهبت فيه مع فريق العمل تحت قيادة المهندس حسام الذي كان يكبرني بأربعة عشر عامًا، لكنه رغم جاذبيته ووقاره كان يبدو أنه أكبر من ذلك بكثير.. ربما لأنه منغمس بالعمل.. ولا يترك وقتًا لنفسه للراحة. أو ربما كان صديقًا للحزن المرتسم على وجهه في أغلب الأوقات..

رغم مرحه القليل في أوقات أخرى.. لم أكن أعرف عنه الكثير.. أو بالأحرى لم أعرف عنه شيئًا قبل تلك الرحلة التي سافرنا فيها إلى أحد المواقع، وأقمنا أسبوعًا كاملًا لنصور الموقع، ونحدد رسومه لأن المشروع المقام عليه كان مشروعًا استثماريًّا كبيرًا.. حينها تعرفتُ إليه عن قُرب.

في يوم من أيام هذا الأسبوع .. كان حسام قد أُصيب في الموقع بعد أن سقط وكُسرت ساقه، وشدَّد عليه الطبيب العودة لمنزله ليلتزم الراحة التامة في إجازة مفتوحة حتى يتعافى.. فرفض وقرَّر البقاء معنا حتى يواصل العمل بالمشروع ويباشره عن قرب.. وكنا نعرض عليه النتائج والتصميمات كلما أنجزنا عملنا، وهو مقيم بغرفته بالفندق الذي أقمنا فيه بالقرب من الموقع.. وفي يوم كنت قد ذهبت إليه بالتصميمات التي انتهيت منها لأعرضها عليه، وكان جالسًا بشرفة جناحه يشرب قهوته شاردًا باهتًا كعادته.. فمن الصعب قراءة رجل باهت لا يتحدث كثيرًا إلا في العمل.. ولكني لا أعلم لماذا تحدث معي في هذا اليوم كأن نبعًا بداخله قرَّر أن يفيض أمامي دون حسبان.. ثم بدأ الحديث قائلًا:

- اتركي هذه التصميمات جانبًا يا ندى وأخبريني: كيف كتبت هذا الكتاب المدهش؟

ابتسمت بعد برهة من الدهشة.. فالكتاب كان مع زميلي أيمن الذي أصبح خطيبي بعد فترةٍ وجيزة من هذا التوقيت.. وقلتُ له متسائلة:

- هل أعطاك "أيمن" الكتاب؟

– نعم.. طلبت منه أن يحضر لي بعض الكُتب؛ لأخرج من مَلَل الجلوس وحيدًا هنا بلا فائدة.. فأخبرني بكتابك من ضمن الكتب.

– لقد كتبتُ هذا الكتاب منذ عامين وقت كنت أعمل بالمكتبة.. قبل التحاقي بالعمل في الشركة.

– ولكنه عمل مميز به إبداع حقيقي.. لماذا لم تخبريني أنكِ موهبة فريدة في الكتابة أيضًا رغم أنني أعرف ذلك من خلال تصميماتك الهندسية.

– أشكرك لثنائك.. فقط لم تأتِ مناسبة.

– وهل يجب أن يكون للحديث بيننا مناسبة؟

صُدمِت وصمتُّ.. ونظرت خجلًا إلى الأرض.

– اسمعي يا ندى.. لقد قرأت في أحد فصول كتابك.. كيف يمكن للإنسان أن يحيا قبل الموت؟ وقد ركزت فكرتك في كيفية أن يستغل فراغه فيما يحب.. فقط فيما يحب.. حتى تمتلئ الروح بنشوة الفرح المنبعث من الذات، فهناك فارق كبير بين ما نؤديه وبين ما نحب أن نفعله ونتميز فيه رغم أننا في الحالتين ننجح، ولكن النجاح فيما نحب له مذاقًا خاصًّا وأثرًا فريد بالروح .. ولقد راق لي أسلوبك في الشرح والنماذج التي استشهدتِ بها كثيرًا.. فأسلوبك أكثر من رائع.. لا أبالغ حقًّا.

– نعم، بالتأكيد إن التميُّز أقوى من النجاح.. التميز يخلق الإبداع.. والمبدع لا يُقيِّده روتين أو نظام، إن شعوره هو الذي يقوده .. و لا يستطع

لا هو ولا العقل أن يتحكم في الفيض النابع منه في لحظة الإبداع.. فيكون الإبداع أجمل ما يكون في باكورته في لحظة ولادته .. ولحظة الإبداع تتولَّد عندما يتوحَّد الإنسان فيها بكامل حواسه مع حلمه فيشحن بها كل طاقته، ويهزم فيها خوفه ويتخلص من طاقته السلبية بظلمات روحه، فتُضاء بنور الحلم، حينها فقط سوف يخرج الإبداع فيضًا غزيرًا، ويشعر المبدع بنشوة ما حقَّقه من نجاح ؛ لأنه أحبَّ نفسه وأحبَّ حلمه في هذه اللحظة، فيترك بصمته الفريدة.

- وما حلمكِ الذي أبدعتِ فيه؟

- هذا الكتاب.. وعملي أيضًا .. فإني أحب عملي كثيرًا فيخرج من خيالي أفضل التصميمات.

- هل يملأ هذا الإبداع فراغًا ونقصًا حقيقيًّا في روح الإنسان.. لا يملؤه إلا الحب والاهتمام؟

فاجأني سؤاله الذي كنت أعرف إجابته، وقد سألته لنفسي من قبل مرارًا وتكرارًا.. وقلت له بعد برهة من الشرود:

- لا.

- إذًا ما الذي يعوِّض هذا الفراغ؟

- الاهتمام بمن نحب وممن نحب.

– وهذا ما ينقصني تمامًا.. رغم كل ما أبدعت فيه بعملي منذ سنوات.

شعرتُ يومها أنه يودُّ أن يفيض بالحديث الذي ثقل على قلبه ولم يستطع أن يحتمله أكثر من ذلك.. فتركته يخرج كل ما بجعبته من ألمٍ وتشتُّت .. وحكى لي قصته، وكيف أنه أصبح منذ وقت طويل أخر اهتمامات زوجته التي ينتظر منها هذا الاهتمام بنهم وشبق حتى تشقق قلبه كصحراء جرداء أهملتها طويلًا رغم أنه يقدر جهدها في العناية الخاصة ببلال.. ولكنها تركته فريسة للوحدة وللحزن.. حتى ولو من دون قصد. كانت أول مرة أتحدث معه وأعرفه عن قرب، وأسمع منه عن حياته الفاترة، وعن معاناة ولده بلال.

وتعاطفتُ بكل ما في قلبي من أوجاع قديمة مع حزنه الذي انفجر بلا تحفُّظ أمامي، ومع بلال، ولم أعرف وقتها كيف أهوِّن عنه هذا الحزن العميق .. ولم أجد ما أقوله في تلك اللحظة، فقلت له محاولة مواساته:

– إن هذا الجهد قد أثمر وأزهر.. وها هو بلال قد أصبح إلى حدٍّ كبير أفضل كثيرًا مما مضى، وممن هم في مثل حالته، وأظن أن هذا كافٍ لنشكر الله على فضله، وتفخر بأمِّه على التخطي معك هذا الوقت العصيب.

– الحمد لله.. قلت لكِ إني أعلم وأمتن كثيرًا لفضل رشا في الصبر والعزيمة، وجهدها الفائق. حتى إنني كثيرًا ما كنت أيأس وأستمدُّ منها القوة على التحمُّل من جديد.. ولكن أنا لا أجد منها الاهتمام الكافي .. لم تعد تشعر بي و بما ينقصني، أشعر كثيرًا أنني طفل شاب قبل الميعاد.. لم أعش

لحظات السعادة التي نسرقها من الزمن كي نحيا حياة حقيقية قبل الموت كما ذكرتِ في كتابك.

- يجب أن تتحدث معها في هذا الأمر بوضوح، ربما تكون هي أيضًا في حاجةٍ شديدة للاهتمام ولا تستطيع أن تزيد من أعبائك، يمكنك أن تمنحها الاهتمام لكي تعينها وتُخفِّف عنها ما تحمله على عاتقها من مسؤولية كبيرة، وستفعل هي تلقائيًّا الشيء نفسه تجاهك.

- وإن كنتُ حاولتُ كثيرًا، ولم أجد ما أريد؟

- إذًا عليك أن تخلق تلك اللحظات ذاتيًّا.. حتى ولو كان حلمًا تعيشه في عالمك يفيض عليك سعادة تغمرك، تعينك على التحمُّل حتى ولو كانت لحظات سعادة مؤقتة.

نظر إليَّ نظرة طويلة مفعمة بحنان فاض رغمًا عنه.. أدركته فأصابني وقررتُ الهرب قبل أن يغمرني.. وقلت له:

- كل إنسان يستطيع أن يسعد نفسه إن أراد بعزم وإصرار.. لأن السعادة قرار بداخلك .. أنت من تُقرِّره.

ثم تركته ومضيت.. ولا أدري ما تلك الحالة التي اجتاحتني بعد الحديث معه في ذلك اليوم.. لقد كنتُ أراه صارمًا صامتًا بلا شعور.. وكأنه آلة مبرمجة تؤدي وظيفتها بإتقان مبالغ فيه .. في هذا اليوم فتح لي قلبه، وأدركت ما به

من حنان وحرمان.. رأيت وجهه الآخر الضعيف الحزين، وقد أثار عطفي عليه.

ولكني عزمتُ ألَّا أقترب منه.. حتى لا يتوهم أنني مَن أستطيع تعويضه عن حرمانه من الحنان والاهتمام .. في علاقةٍ عابرة سوف تنتهي إن استفاقت زوجته.. وقررت أن أبتعد عن هذا الوهج حتى تخمد جذوته من ذاتها قبل أن تحرقنا.

تكرر حديثنا في اليوم التالي، وكنت أنصت إليه قليلًا، ثم أتحجج بضرورة عودتي إلى الموقع لأستكمال عملي. كي لا يتحول الأمر إلى اعتياد يصعب كسره فيما بعد.. وهربتُ رغم إشفاقي عليه ورغم علمي بأنه يسعد كثيرًا بحديثه معي.. ولكن تجنبًا لأي صدمات قادمة لا محالة .. فلم أكن أحمل بين أضلعي قلبًا يقوى على تحمُّل أهون الصدمات.

مرَّت الأيام وبدأت أتحفَّظ في حديثي معه رغم ما كنت ألحظه من اهتمام كبير أصبح واضحًا للجميع .. حتى جاء يوم طلبني زميلي أيمن للزواج فوافقتُ فورًا.. لأنه كان مناسبًا ربما .. فقد عاهدتُ نفسي ألا تتكرر مأساة القصة القديمة في عدم التكافؤ مرة أخرى كي لا أنكسر .. لم أدرِ وقتها: هل كان ذلك السبب الحقيقي حقًّا؟ أم كان هربًا من ذلك الوهج الجديد في قصةٍ مستحيلة مع رجلٍ في منتصف العمر يبحث عمن يملأ له فراغًا ويعوِّض له نقصًا .. ولكني أدركتُ بعد ذلك أنه هو من كان السبب الحقيقي، والذي

أخفيته في نفسي لم أستطع حتى إن أعلنه في أعماقي.. أنني كنت أهربُ جديًّا من حسام، ومن وهجه الغريب المتقد الذي أضاء روحي رغمًا عني.

أتممت خطبتنا أنا وأيمن وسط فرحةٍ عائلية غامرة.. محاولة إخماد هذا الوهج بكل ما تبقى في من مقاومة.. وفي اليوم التالي ذهبتُ إلى العمل لأزفَّ الخبر على مسامع الزملاء بالشركة أنا وأيمن.. فالتفَّ الجميع حولنا فرحًا وباركونا وتمنَّوا لنا السعادة الدائمة، وأخبرني أيمن أننا يجب أن ندخل إلى رئيسنا ونهديه حلوى حفل خطبتنا معًا.. وتوجستُ من هذه اللحظة ولم أجد تفسيرًا لذلك الخوف الذي اجتاحني، ولكنه الواجب الذي لا مفر منه.. وحتى لا يسألني أيمن عن سبب تهرُّبي من الدخول إليه.. ودخلنا معًا إليه، وأخبره أيمن بالخبر .. وكنت إلى جواره أرتجف من جرأة نظرته الثاقبة فيّ دون اكتراث لوجود أيمن.

وقد تجمَّدت ملامحه وهو يبارك لنا ببرودة ملحوظة.. ثم كلَّف أيمن بعملٍ واهٍ، واستقبلني مناديًا اسمي بصوت مرتجف عندما هممتُ بالمغادرة مع خطيبي.. فلكزني أيمن لأنني تعلقت بذراعه كطفلٍ الذي يهرب من العقوبة المحققة أو من الذنب. وفي الحقيقة أنني حاولتُ الهرب من المواجهة معه. أو ربما من وهج أرجفني لم أودّ الاعتراف به.

وعُدتُ في خطوات تقربني إليه، وقلبي يرتجف من تلك اللحظة التي استدرتُ فيها لأتلقَّى سهام عينيه المخترقة قلبي. والتي قرأتُها جيدًا، وأعلم

ماذا تودُّ أن تقول قبل أن تقول وتمنيت ألا يقول ما كنت أخشاه .. ولكن قد خاب ظني.. عندما نطق الكلمة وأطلقها بكل جرأة في بغتة صرعت قلبي:

- أحبُّك يا ندى.. لآخر العمر، ولو تزوجتِ، وصار لكِ عشرة أولاد..

دارت بي الدنيا، وشعرتُ أني على وشك أن أفقد اتزاني، فقد بدأت مقاومتي في الانهيار، ولم أجد ما أتذرَّع به أمام سهم كلمته الذي ارتشق بلا هوادة في صميم قلبي المرتجف، ثم قلت بتوتر واضح على نبرة صوتي المتهدج قبل أن أستسلم للنيران التي اجتاحت أعماقي في تلك اللحظة:

- أستأذنك مهندس حسام.. وفتحت الباب بقبضتي المرتعشة أستبق الزمن قبل أن يسبقني بسهمٍ جديد.

- هل سمعتِ ما قلت؟

قالها بصوت اهتزت له روحي والأرجاء والأجواء حتى خِلت أنه وصل إلى الفضاء.

- نعم سمعت، وليس لديَّ ما يقال.

- قلتِ لي من قبل إن الإنسان يستطيع أن يشعر بالسعادة عندما يتوحَّد مع حلمه.. وهأنا قد توحَّدت مع حلمي. توحدتُ معكِ أنت. فأنتِ حلمي الوحيد الذي لم يتجسد، ولكني أومن أنه يومًا ما سيكون.

- لا يجب أن أسمع هذا الكلام منك مهندس حسام.. كلٌّ منا له قدره وحياته.

- بل يجب أن تسمعيه.. لأنك من كتبتِه.. وإني فعلتُ ما نصحتِني به.. وخلقت سعادتي بذاتي.. فكانت أنتِ .. لن أوذيك أبدًا، لا تخافي مني.. قلت لك: أنتِ حلمي الذي أعيش به، وإن كنتِ لستِ قدري، وإن كان قدري أن أحتمل ألم فراقك مثلما أحتمل عذابًا شاقًّا من أجلك ومن أجلهم .. أردتُ فقط أن تعرفي ذلك ولو لمرة واحدة، وإني أتمنى لك كل السعادة والتوفيق بحياتك.

وخرجتُ مسرعة من مكتبه أبحثُ عن لجام قد انفلتَ من بين يدي على قلبي الذي ظلَّ ينتفض في مرقده كطير حبيس يودُّ الانطلاق.. وقد اشتعل الوهج من مخمده ليتأجج رغم كل الحذر.. إنه وقع القدر.

"في لحظة الحلم نحن من نملك زمام جنوننا.. نعرف متى نطلقه ومتى نلجمه .. وإلى أي مدى نسبح فوق جناحه في فضائه الشاسع بلا حدود، ومتى نتوقف قبل أن يدركنا السقوط.. ولكن في الواقع، إننا لا نملك أي زمام.. لا نملك إلا الهرب قبيل اشتعال الفتيل الرفيع الذي سيفجر نبع الشوق الدفين في الأعماق، ولن يخمد إلا بذكرى الألم بعد الفراق".

لذلك هربتُ وأنا لا أعلم إلى أي مدى سأجيد الهرب.

***

مرت الأيام، وكانت ندى تهرب بكل ما فيها من قوة وخوف من براثن رجل خريفي وحيد مهْمَل مهموم.. كان يشتعل غيرة وقت يراها تهتم بخطيبها البائس الذي كنت أرى بعين الحقد أنه لا يستحقها.. وأنه ليس بأفضل مني كي تغدق عليه كل هذا الاهتمام.. وكنت أجد نفسي بلا مبرر أعنفهما على أي تقصير يمكن التجاوز عنه، إن كان لا يسبب ضررًا أو أجازيهما على تأخير بسيط بشكل مبالغ فيه .. لم أستطع أن أكبح رغبتي في السيطرة على هذا الغريم المسكين كي أضايقه، وأُضيِّق عليه الخناق، فكنتُ أكلِّفه بمهام خارجية حتى لا ينعم بالسعادة معها طوال الوقت وأنا أحترق بينهما.. ضيَّقت عليهما الخناق مرارًا، حتى جاء اليوم الذي طعنتني فيه ساكنتي بقسوةٍ حين تقدَّمت باستقالتها من العمل مع استقالته غير المهمة لأنهما قد قررا الزواج والسفر. هكذا قتلتني بلا رحمةٍ عن عمد:

- مهندس حسام.. شرف لي أن أكون فردًا في هذا الصرح العملاق، ويُؤسفني أن أتركه بعدما كبرت وتعلمتُ فيه الكثير من واسع خبرتك وعلمك.. ولكني اليوم أتقدَّم باستقالتي أنا وندى لأننا سنتزوج ونسافر. هكذا ألقى غريمي البائس الخبر على مسامعي كقنبلةٍ موقوتة أشعلت فتيلها بداخلي، وكنت على وشك الانفجار بوجهيهما، ولكن في تلك اللحظة كنت لا أنظر إلا إلى عينيها الساحرتين الهاربتين من نظرة توسُّل غاضبة من رجل عاشقٍ مسكين.. يعشق النظر إليهما كي يدرك الأمان. ثم قلت في هدوء مصطنعٍ:

- حسنًا مهندس أيمن.. إلى أين عزمتَ السفر؟

– إلى المملكة .. وجدنا مشروعًا يحتاج إلى مهندسين أكْفاء لمدة ثلاث سنوات.

– ستعملان بالمشروع معًا؟

– لا.. إنهم لم يطلبوا مهندسات، ولكن ربما وجدنا عملًا لندى في مجالها في وقتٍ لاحق لكفاءتها.

– بالطبع.. أنتما مهندسان تتسمان بالكفاءة.. وسوف تخسركما الشركة، للأسف.. بعدما قد تم اختيارك في قائمة البعثة التي قررت الشركة إرسالها للحصول على منحة الدكتوراه من جامعة برلين كمكافأة لمهندسي الشركة المتميزين ليصبحوا روادًا في المجال، وكنت قد انتويتُ تكليفك بمهام الشركة في دبي بعد عودتك من ألمانيا.. ولكن لا بأس. سوف يتم ترشيح مهندس آخر لهذه الفرصة .. أتمنى لك وللمهندسة ندى المزيد من التوفيق بحياتكما، وقد قبلت الاستقالة.

لقد عصفت بعقل الغريم في لحظة.. لأني أعرفه.. أعرف مدى طموحه وماديته.. أعرف أنه سوف يتخلى عن أي شيء في سبيلهما.. سيتخلى عنها في سبيل طموحه وفرصته الأفضل .. تعمَّدت أن أقول ذلك كي يتركها بإرادته ويختار طريقه.. لتعلم هي أنه لا يحبها.. وأنها فقط أولوية متاحة من أولوياته يمكن وضعها في ترتيب ثانوي، أو يمكن الاستغناء عنها أمام فرصة أكبر بينما هي في قلبي ملكة متوَّجة فوق العرش.

***

خرجنا أنا وأيمن من مكتب حسام بعد أن قدَّمنا استقالتينا، نفكِّر بالفرصة الكبرى الضائعة التي اختارها لأيمن ضمن البعثة.. قبل أن يقبل استقالتنا. وفي لحظة تحول أيمن إلى كتلة حزن رمادية.. حينها قال لي:

- لقد تسرَّعت يا ندى.. أشعر أني أضعتُ فرصة كبرى لن تُعوَّض.

- لماذا أخبرك بهذا العرض الآن؟ ألا ترى أنه لشيء غريب؟

قلت له بانفعال.

- لا أحد يعلم بموضوع اختيار البعثة، ربما نحن أول من يخبرنا بسبب الاستقالة واختياره لي ضمن القائمة.

صمتُّ لأنني لم أجد الكلام المناسب لأشرحه لأيمن.. ماذا كان من المفترض أن أخبره؟ أن هذا الرجل يحاول أن يُفرِّق بيننا؟ لن يصدقني.. فهذا الرجل عملنا معه كثيرًا، ولم نجد منه إلا كل تقدير واحترام.. واكتفيتُ بأن أقول له:

- لا تحزن يا أيمن، ربما هذا الأمر لم يكن خيرًا لنا .. وإن الله قد كتب لنا الخير، ثِقْ بذلك.

- ولكن فرصة كهذه كبيرة يا ندى، وستوفِّر علينا مشقة طويلة.. لا يجب أن أضيعها سوف أدخل إليه الآن، وأسحب استقالتي.

- لا يا أيمن لا تفعل.

قلتُها له بإصرار وحنقٍ حتى أثنيه عن هذا القرار الذي حسمه قبل ان نغادر مكاننا، والذي كان سيُعيدنا إلى نقطة الصفر.

- سأندم عمري كله إن أضعتُ مثل هذه الفرصة الآن.

قالها حاسمًا، ولم ينتظر مني أي ردٍّ، وعاد إلى مكتب حسام وتبعته فورًا.

- مهندس حسام.. هل يمكنني أن أسحب الاستقالة وأستمر بالعمل؟ لا أستطيع أن أضيِّع فرصة اختياري لمثل هذه البعثة، ولن أجد عملًا أفضل من عملي في شركتكم.

كنتُ أنظر إلى عينيه الثاقبتين وهما تخترقانني بنظرة انتصار.. كان يعلم أننا سنعود.. فعل كل ذلك كي يعيدني إليه في لحظةٍ دون أن يتحرك من أرضه وقد نجح.. ولكنني في تلك اللحظة قررتُ أن أهزمه بآخر سلاح لديَّ.. حين قال:

- حسنًا مهندس أيمن.. مكانك موجود، ومكان المهندسة ندى أيضًا.. حتى تعود من البعثة.

- أليست ندى ضمن القائمة؟

سأله أيمن في ترقُّب.

- نعم.. لم يتم اختيارها لحاجة الشركة إليها.

صمت أيمن.. وحينها قذفت في وجهه آخر كرة لهب صهرتني في مكاني.. ليحترق بها هو الآخر وقلت:

- ولكني لن أسحب استقالتي.. لأنني سوف أرافق زوجي في بعثته.

في تلك اللحظة كادت نظرته الثاقبة التي اخترقتني بسهم متأجج بالغضب كافية لأن يفهم أيمن سِرَّ اختياره لهذه البعثة في هذا التوقيت.. ويا ليته فهم! أو ربما فهم غرضه، ولكنه تغاضى من أجل مصلحته، وفرصته كي لا تضيع.. هكذا يفعل دائمًا الوصوليون.. خرجنا من مكتبه، وكنت وأيمن في صمت طويل.. حتى عُدنا إلى مكتبنا.

فقال لي محاولًا إثنائي عن قرار استقالتي:

- الرجل اختارني للبعثة.. التي ستتحمل نفقاتها الشركة بالكامل.. لا أظن أنه سيرسلنا بزوجاتنا.. لماذا أصررتِ على الاستقالة؟ إنه عامٌ سيمر سريعًا، أرتِّب فيه أوضاعي هناك ثم نتزوج وتسافرين معي.. لقد تسرعتِ في قرارك يا ندى.

- عام؟ سوف ترجئ زواجنا الذي قررناه بعد شهرين إلى عام؟

- ندى.. إنها فرصة لا يجب أن أخسرها.

- لم أقل لك أخسرها.. لقد سحبت استقالتك لتتمسك بفرصتك.. إذًا ما المشكلة في أن أتقدم باستقالتي لنتزوج ونسافر معًا؟

– المشكلة أنك قذفتِ الرجل بوجهه بقرارك المفاجئ هذا.. وأنك بسهولة استغنيت عن الشركة.. ألم تري كيف نظر إليك نظرة طويلة غاضبة لم ينطق بعدها؟

نظرتُ إلى أيمن وهو يتحدث بلا اكتراث.. وكأن ما رآه من نظرات متعمَّدة لم يثر حفيظته.. كل ما كان يخشاه هو أن تضيع فرصته بسببي.. في هذه اللحظة الفارقة شعرتُ بالفرق بين رجلٍ يفعل كل شيء كي يبقيني معه ليبقي بجواري، ورجلٍ يتخلى عن وعده في لحظةٍ من أجل مصلحته، ولكنني كنت لا أريد أن أقع ضعيفة مهزومة بين براثن الرجل الذي أهرب منه.. حتى وإن كان يخذلني الرجل الذي أهرب إليه.

قلت لأيمن.. وقد كنتُ أخشى أن أسمع حلوله التي أدركتها من قبل أن ينطقها، وهي أني من الأفضل أن أبقى بالشركة حتى لا يغضب الرجل فينهي فرصته.. يا لها من مقايضة في صفقة خفية على حسابي ليس لي فيها قرار! ولكني قد حسمت القرار.

– لن أتراجع عن استقالتي يا أيمن.. قدَّمتها فحسب وقَبِلَها هو وانتهى الأمر.. سواء تزوجنا أو لم نتزوج.

وتركته ومضيت وأنا أشعر أني تخلصت من براثن هذا الرجل وقيود أسره التي يُكبلني بها في نظراته وكلماته، ومزَّقت خيوطه العنكبوتية التي أصبح ينسجها حولي ويحيطني بها من كل اتجاه.. تلك اللحظة التي قطعت فيها تلك الخيوط الواهنة؛ لأستعيد حريتي كانت سبيلي الوحيد للخلاص.

مرت الأيام تلو الأخرى دون حديثٍ~ بيننا .. حتى جاءني أيمن في لقائنا الأخير.. يخبرني أنه يجهز للسفر.. وأنه بعد عام سيكون قد رتَّب أموره هناك، فيعود لنتزوج ونسافر معًا.. وإلى أن يمر هذا العام يجب أن أعود وأسحب استقالتي..

- وإن لم أعد وأسحب الاستقالة يا أيمن؟

- إنك تضعينني في موقفٍ مُحرِج مع المدير يا ندى.. ولا أفهم ما سِرُّ إصرارك على الاستقالة.

- ألم تَرَ ما رأيت من نظراته الثاقبة بي، ألم تشعر للحظة أنه يطاردني بتلك النظرات؟ ألم تشعر أنه يفرق بيننا ويبعدك عني؟ هل كان يجب أن أتفوه بكل ذلك الآن لأنك أنت لم تشعره من تلقاء نفسك؟

- هل جننتِ يا ندى؟ مهندس حسام مثال للاحترام والجدية، ولا يمكن أن يصدر عنه تلك الأفعال المراهقة، وأنت تعلمين جيدًا كم يحترمك ويعاملك كابنته.. كما يعاملنا جميعًا بودٍّ واحترام.

- هل أتممتَ صفقتك معه وجئتَ لتقول لي هذا الكلام كي لا تضيع عليك الفرصة الكبرى؟ إذًا اذهب إلى فرصتك يا أيمن.. أما أنا فلن أُهدِر كرامتي لا من أجلك ولا من أجله ولا من أجل الفرص.

- ماذا تقصدين يا ندى؟

– أعني أن تذهب إلى المحترم مديرك بمفردك.. وتخبره أني لن أعود إليه ولا إليك..

وأعطيته خاتمه بكل هدوء.. بعد أن تيقنتُ من شعوري تجاهه أنني له مجرد أولوية ثانوية يمكن الاستغناء عنها إن تعارضت مع أولوياته .. والغريب أنه لم يعترض.. كأنه كان ينتظر تلك اللحظة التي كانت محسومة بالنسبة له أيضًا..

ولكن القدر شاء أن تأتي النهاية مني دون أن أدري لماذا قمتُ بذلك الفعل بكل هدوء، كأنه كان مرتبًا بأعماقي، رغم أنني لم أكن قد حسمته بعد، ولكني أدركتُ فيما بعد أن القدر الذي رتبه حتى لا أشعر بعدها بالألم.. هذا كل ما في الأمر.. فإني لم أكن أحب أيمن حبًّا حقيقيًّا؛ لأحزن على فراقه.. ومنذ تلك اللحظة اختفى أيمن من حياتي للأبد .. وشكرته في سري لأنه كان سبب استقالتي وهربي من خيوط ذلك العنكبوت الكبير، الضعيف، المسكين.. رغم إدراكي كم هي واهنة تلك الخيوط التي تقطعت جميعها بنفحة تمرُّد واحدة، إلا أنها تمكنت مني، وكبَّلتني في لحظةٍ واحدة أيضًا، لا أنكرها. ورغم خسارتي لحلم الاستقرار فإنني اكتفيت بلحظة الانتصار على نفسي وعليه.

عُدتُ إلى المكتبة التي كنت أعمل بها، أردتُ أن أتوه وأعيش بين الكتب عالمي الصادق.. ألقي فيه بقايا حزني، وأرسم فيه أجمل أحلامي.. ولكنني

لم أيأس في البحث عن عمل آخر بمجالي، ثم وجدت بعد فترة عَملًا آخر بمكتب هندسي صغير، وقررت ألَّا أترك عملي بالمكتبة فقد عزمت أن أستمر بالكتابة، عالمي الخاص الذي يسحبني للسعادة من هذا الواقع المرير.

***

غابت عني تلك الشمس فغابت معها روحي.. اختفى اللون الوحيد بقلبي.. فعدتُ رماديًّا لا لون به ولا حياة. حاولت النسيان.. بالسفر المستمر .. بالانهماك بالعمل.. بالاقتراب من زوجتي التي كانت وما زالت تراني شيئًا ثانويًّا بعد ولديها، ولم تدرك للحظة أن هذا الشعور هو ما يؤججني ويقتلني.. حاولت أن أشحن كل طاقتي وأحبها وكأنها ندى.. أتخيلها ندى.. أنشغل بها كأنها ندى.. أرى صورة ندى على وجهها فأبتسم.. أتلهف عليها وقت اللقاء الحميمي الذي يجمعنا كزوجين كأنني مع ندى.. هكذا جسَّدت حلمي بما يتناسب مع واقعي وحياتي.. بعيدًا عن ندى التي فارقتني لتحيا حياتها وسعادتها ..وتركتني أصارع ذلك الثقب الأسود بداخلي الذي كنت أملؤه بالذكريات والأحلام، وكلما هربتُ إلى رشا سرعان ما كانت تفيقني من غيد أحلامي، وتتركني بمنتصف الحلم وحدي.. فأستكمله مع ندى.. وحدنا في خيالي.. حتى النهاية.

وسرعان ما عُدتُ وحيدًا.. كمٍّ مهملًا ..آلة تؤدي واجباتها ووظائفها دون أن يكترث أحد بأني إنسان ينهك وله شعور واحتياجات.. حتى ولو

كانت تافهة وصغيرة أو مراهقة كما يظنون.. كلهم يقتطعون مني ومن حياتي وعمري ما يريدون لحاجتهم، ولسعادتهم. ولا أحد يفكر فيما أريد.. يشعرون في وجودي بالسكينة والأمان، ولا يمنحني أحد هذا الأمان.. عُدتُ ضائعًا بالكون وحدي، لا مرسى لي، ولا وطن.

وقررتُ البحث عن ندى مُجددًا بعد أن أظلمت حياتي بعد رحيلها ظلمة لم أعد أقوى على احتمالها.. ثقب أسود بات يتسع بأعماقي، ابتلع القلب الحزين بعد أن كاد يخفق بالأمل الجديد في عينيها.

"ليتها لم تشرق بحياتي وقت كنت أعتاد الظلام."

كنت أبحث عنها في كل سطر في كتابها الذي قرأتُه ألف مرة.. حتى حفظته عن ظهر قلب.. وفي ذلك اليوم انتبهت إلى اسم المكتبة التي نشرت الكتاب.. واتصلت بهم لأعرف إذا كان هناك إصدارات أخرى بعد هذا الكتاب للكاتبة نفسها.. فأخبروني أنه عما قريب سيصدر الكتاب الثاني.. طربتُ لسماعي هذا الخبر، وأدركت أني على وشك لقاء ثانٍ مع حلمي الساكن بالروح الجرداء كي تنبت فيها الحياة.

وترقبتُ بشغف موعد إصدار الكتاب عندما أعلنت عنه المكتبة على صفحتها.. وانتظرت بشغف كبير ميعاد حفل التوقيع.. حتى جاء ذلك اليوم الذي بُعثت فيه روحي إلى الحياة بعد عام من الفِراق، تزيَّنت بأناقة فائقة نبعت من شعوري الداخلي بالفرح، اصطحبت باقة أنيقة من الورد الجوري

البديع. وذهبت إلى المكتبة لأرى وردتي الذهبية تفوح بعطرها الأخَّاذ من بين المئات في يوم نجاحها.. ذهبت بحماسة سرت بأعماقي كالمطر أنبتت كل ما بي من شوق دفين.. حتى ارتوى القلب المسكين.

وقفت أمامها كمعجب ولهان جاء لينظر إلى عيني نجمته اللامعتين .. البعيدين القريبتين.. ويرتشف منهما إكسير الفرح النادر الذي غاب عن الروح في غيابها وكانت هي كشمس دافئة تسطع بين جمهورها، وهي تُوقِّع نُسخ الكتاب للحضور، مشرقة كأروع مما كنتُ دومًا أحلم بها ..ونظرت إليها بحبٍّ لم أستطع أن أخمده في القلب المولع بها أكثر من ذلك.. والتفتت هي إليَّ في صمت يشوبه الترقُّب، ثم ابتسمت بتحفظ ورحبت بي.. وطلبتُ منها توقيع نسختي من الكتاب.

وإلى الآن ما زلت أقرأ هذا العرج بخطها في توقيعها على أنه الارتجاف الخفي الذي أصابها في تلك اللحظة كما أصابني وتملَّكني.. لقد ترقرق بيننا نهرٌ عذب من الأشواق الراكدة تحرك بداخلنا رغمًا عنا.. وفاض بيننا ليغمرنا ويحيينا.

أهديتُها باقة الورد بودٍّ وتوتر، ونظرات عشقٍ فضحت سعادة قلبي الغامرة، وبعد انتهاء الحفل دعوتُها إلى فنجان قهوة.. ووافقت بعد تردُّد كبير وارتقاب:

- لماذا جئت اليوم؟

باغتتني بسؤالها.

- كي أراكِ في يوم نجاحك.

- وكيف عرفت أن اليوم حفل التوقيع؟

- أخبرتني بحلمنا الذي أراه معك كل يوم.

- مَرَّ عام.. وما زلت تُصرُّ على ما تقول؟

- ولو مَرَّ ألف عام.. سأقول لك دومًا وأعيد ما أقول إنك حلمي الذي لا يغرب أبدًا حين تغربين.

صمتتْ خجلًا.. وكأن شيئًا عذبًا بدأت تعلن عنه بسمتُها الصافية .. شيئًا وليدًا بقلبها كان لي.. كم حلمت أن يكون بقلبها ركن لي أحتمي به من الوحدة ومن الخوف، يصبح وطني وجنتي.

- ألم تفكري في أن تعودي إلى مكانك بالشركة؟ إنه بانتظارك.

- لا.. إني مستقرة بعملي الجديد، وأصبح لديَّ وقت كافٍ لممارسة الكتابة بشكل أفضل.

- إذًا يجب أن تصدري كتابًا كل بضعة أيام حتى أراكِ .. فإني لا أستطيع الصبر بضعة أشهر.

- ماذا تريد مني مهندس حسام؟

قالتها بجديةٍ مفتعلَة.. فإن ما بالقلب يقرؤه القلب دون حاجة للافتعال.

– وماذا يريد منك كل من يحلمون بك وقت يسبحون بين كلماتك سوى أن تشاركيهم حلمهم البعيد فيسعدوا.

– لا ينقصك شيء لتعيش في الأحلام.

– بل ينقصني كل شيء.. تنقصني الروح التي تعيدني إلى قيد الحياة ولا ألتقيها إلا معك.. لقد فارقَتني حين فارقتِني أنت.

ثم هربت من نظراتي العاشقة المتشبثة بعينيها، فقالت هاربة حاسمة:

– كيف حال بلال؟

كانت تعلم أنها بهذا السؤال تسقطني من أعلى الصرح؛ لأرتطم بلا رحمةٍ بصخر الواقع.

– بخير.

قلت باقتضاب.

– كم صار عمره الآن؟

– السادسة عشرة.

– صار شابًّا .. ليحفظه الله لك ولأمِّه.

– لا تحاولي الهرب مني بأن تذكريني بعائلتي.. لأنني لا أنساها.

- لماذا انزعجت من سؤالي؟

- لأنني لستُ رجلًا عابثًا جاء يبحث عمَّن يُنسيه همومه، وأنك تصرين على معاملتي على هذا الأساس.

- إذًا أخبرني بوضوح ماذا تريد مني.

- أنا أحبُّك يا ندي، هذا كل ما في الأمر من وضوح.. تلك الحقيقة كالشمس لا أستطيع أن أهرب منها بعد ذلك الظلام الذي ألقيتني به وقت هربت من حياتي؛ لأنني بائس يبحث عن نور بطريقه المعتم، يبحث عن لون لحياته الباهتة، فوجده معك أنت، لقد حاولت كتمانها ووأدها بقلبي بعد الفراق، ولكن من دون جدوى.

- وما المقابل الذي تنتظره مني؟

صدمني سؤالها.. وكأن إصرارها على معاملتي كرجل مراهق يبحث عن مغامرة عاطفية عابرة قد أثار حفيظتي.. فقلت لها بحزم:

- لا أريد مقابل سوى الاهتمام.. فقط اسألي عني.. ضعيني تحت أي مسمى يناسبكِ تشعرين بالراحة فيه.. لن ألومك.. ولكن لا تلوميني أنتِ على حلمي بكِ، على حبي لكِ؛ لأنك لي الحياة التي أتنفس فيها بصدق.. وإني لا أملك على قلبي سلطانًا.

- وكيف تتوقع لعلاقة تحت مسميين مختلفين أن تستمر؟

– سوف تستمر حتى يستجيب قلبك للنداء.. فنتوحد مع حلمنا معًا ونمضي معًا في الطريق نفسه.

– إنك إنسان غريب.

– مجنون.. وجنوني لا يتحرر إلا معكِ.

– جنونك قد يدمرك .. قد يدمرني وقبل ذلك عائلتك.

– جنوني هو قدري.. وهو سعادتي في وجودك.

– ولكني لا أستطيع أن أشاركك ذلك الجنون.

– يومًا ما ستشاركينني حياتي وجنوني يا ندى، يومًا ما ستتزوجينني حينما تحبينني حبًّا حقيقيًّا، وإلى أن يحدث ذلك، أرجوكِ، اتركيني لحلمي، فإني لن أتخلى عن هذا الحلم معك ما حييت.

– لا أعرف ماذا أقول.

– لا تقولي شيئًا.. دعي القدر يَقُل ما يشاء.

***

لم أدرِ وقتها ما ذلك الوميض الغريب في عينيه الذي ضربني في أعماقي، وأضاء جسرًا من الشوق بين قلبينا في ذلك اليوم بعد الغياب، كيف أصابني وأرجف قلبي الساكن في البعد في هذا اللقاء الذي لم أكن أتوقَّعه بعد عام من

الفراق.. لم أنكر أنني سعدت بلقائه بعد غياب، وارتويت من كلامه العذب رغم كل مخاوفي والتي هزمتها في تلك اللحظة؟ كي لا تضيع سعادتي التي تملكتني وقت أسرتني نظراته الحادة الحانية التي تحمل شوقًا عذبًا تسرَّب إلى روحي في هدوء فغمرها حتى ارتوت. كم كنت أتوق إلى مثل هذا الحنان بهذا الإصرار على اقتحام قلبي رغم المقاومة! خرجت من هذا اللقاء ولم أعده بلقاء آخر.. ودَّعته وقلت له كلمته نفسها.. دَعِ القدر هو من يشاء .. متى نلتقي ومتى نفترق.

لا أعلم كيف استسلمت؟ وكنت قد شيَّدت حول قلبي قلاعًا محصنة لأختبئ بها من هذا الوهج المشتعل الذي أخمدته بصعوبةٍ شاقةٍ ، ولكن حين التقيته في عينيه في ذلك اليوم اشتعل مجددًا وأصبح منه لا مفر.. هل ما كنت أشعره تجاهه هو حالة من الإعجاب عصفت بكياني لإصراره على اقتحام قلبي الوحيد؟ أم أني أشفقت على المسكين الذي لا يبرح القلب الموصد كناسك متعبِّد ينتظر على بابه حتى يُفتح له بإرادة مني واستسلام؟ لم أستطع أن أحدد حقيقة شعوري تجاهه.. إلا أنني في تلك اللحظة التي فاجأني فيها بلا ميعاد أحببت جنونه الذي أصبح يعصف بي عند كل لقاء.

قررت أن أكتب عنه.. لأرسم ما أشعر به معه ربما كان حلمًا بديعًا يرسمه القدر لنا لا يجب أن أضيعه أو أحطمه أو أخمد وهجه المضيء، حتى وإن كنت لن أشاركه فيه.

"وما لحظات السعادة الحقيقة إلا كطيف بديع يُلوِّننا ويسكننا سيمضي من خلالنا كما يمضي الزمان.. خاسر معنى الحياة من يضيعها وهي متوهجة بين يديه."

وبدأت في كتابة رواية جديدة كان هو بطلها .. وصفت ملامحه الحادة الجذابة.. هيئته الوقور، كل كلمة كنت أكتبها عنه كانت تسحبني في غمرةٍ من السعادة كلما تذكرت نظرته العاشقة التي ارتشقت في صميمي .. كان متوسط الطول، ممشوق القامة، يميل لونه إلى الحنطي الجذاب، وحمرة وجنتيه تزيده جاذبية، ذا عينين عميقتين ناصع بياضاهما حول بؤبؤين ذهبيين يلمع من الوهج، ويشع منهما الذكاء والهدوء .. خصلاته البيضاء المتموجة المتخللة سواد شعره الحريري ترقرقت فوق جبينه كقطعة فضية لامعة تتوسط الظلام، كأنها هالة نقاء تنعكس على وجهه الصارم الحزين.. شاربه ولحيته البيضاء الخفيفة التي شابت قبل أوانها ترتسم بدقة حول شفتين غليظتين.. اكتظتا من قلة الكلام وقد تجمد فوقهما الكلام وارتسمت فوقهما مرارة الابتسام.

سطرت في هذه الرواية مكنون شعوري الذي كنتُ لا أعرفه تجاهه.. لقد أطلقت له العنان .. ويا لغرابة ما قادني قلمي إليه.. وما خرج كالسيل الجارف من أعماق روحي! لم يكن شفقة علي حاله المسكين، ولم يكن حالة من الإعجاب بهذا الجنون.. إنه حب حقيقي قد أصاب القلب الموصد، قد أصاب الحلم مباشرة، حلم أصرَّ أن ينتظرني لأتوحَّد معه في عالمه الذي هو

عالمي الذي تمنيته طويلًا .. ولا يمكن لأحد سواه أن يشاركني فيه.. تيقنتُ من شعوري الذي قاومتُه طويلًا، وقد أصبح حقيقة لا مفر من الاعتراف بها.. بعدما رتَّب لنا القدر هذا اللقاء.

كان يحضر كل فترة وجيزة إلى المكتبة بحجة شراء الكتب.. وكنت أعلم أنه يأتي لرؤيتي ليتحدث معي.. كما أصبحت أتوق إليه أنا أيضًا بشغف، وإلى الحديث معه بفرح.. فيرتوي قلبي من عذب حنانه في اللقاء القصير حتى يحين اللقاء الجديد ليهدأ شوقنا في قلبينا.

وبين كل لقاءٍ ولقاء كانت تنمو نبتة الحب الخضراء بقلبي حتى أزهرت، وصار ما يفيض بقلبي ليرويها لا أستطيع أن أمنعه.. أحببتُه، واعترفت بهذا الحب بداخلي و سطرته بجمال حالته علي أوراقي وصدقته حين قال لي يومًا "نحن لا نملك على قلوبنا سلطانًا. "

أهديتُه الرواية فور انتهائي منها.. روايتنا.. أنا وهو بطلاها.. سطرت بها حلمنا الذي صار حقيقة لا يمكننا الهرب منها، ولا إنكارها بعدما اعترف بها قلبانا وأعيننا قبل أن ينطق بها لساناانا، وعندما قرأها.. وقرأ ما بين سطورها من اعتراف ضمني بأنني توحَّدت معه في الحلم نفسه.. وقبلت أن أشاركه في الطريق نفسه..

أصابته صدمة لم أستطع تفسيرها.. وكأنه لم يتوقع أن يصير الحلم حقيقة جسدها القدر بعد كل هذه المحاولات والشوق في الغياب.. إنني خلدتها في

سطور رقيقة في رواية كانت روايتنا، كتبتُ في نهايتها أننا باقون معًا في طريق الحلم للنهاية.. يومها كان صامتًا.. لم يقل شيئًا.. كان واجمًا.. كأنه يفكر بقرار ما لن يجعله سعيدًا، أو كأنه لم يصدق أن يتجسد الحلم ويصبح حقيقة.. فحقيقته هي عائلته.. ولست أنا.. الحلم البعيد.

***

لا أعلم لماذا أصابني ذلك الشعور المتضاد الغريب وقت أهدتني ندى روايتنا التي رسمت بها حلمنا وفاجأتني بها.. لماذا تملكني كل هذا الخوف من مواجهة الحلم الذي تجسَّد.. لقد أحطتها حبًّا واهتمامًا وحاصرتُها كثيرًا.. وهربتُ هي بكل قوتها مرارًا حتى إنها لم تستطع الهرب بعدما تسلَّل إليها شعور الأمان.. كيف تسلَّل إلى شعور الخوف في تلك اللحظة التي حلمت بها طويلًا؟ هل لأنني كنت أملك زمام الحلم أبدؤه وأنهيه كيفما أشاء؟ أما بعدما أصبح واقعًا حقيقيًّا بيننا لا يمكن الآن أن أملك زمامه وحدي.. في ذلك اليوم عُدتُ إلى بيتي في حزنٍ عميق وحيرة لم أستطع تفسيرها لنفسي، ورأيت آنذاك رشا بعين مختلفة، عين لم تمل الاعتياد بل اشتاقت أن تراها بعد فتور طويل. كأنني كنتُ أودُّ أن أطلب منها هي كل هذا الحب والرعاية وهي التي لم تشعر، إنها السبب فيما صرت إليه من شقاء..

اشتقت لبلال كثيرًا و بلا سبب ضممتُه إلى صدري بعد برودة تسللت بيننا دون أن أشعر بها إلا في ذلك اليوم، وأدركتُ أني لم أضمه إلى حضني منذ

وقت طويل.. ولم ينبهني هو لذلك، ولكن في لحظة احتضنته شعرت بكمِّ الشوق الدفين بداخلي إلى ذلك الحضن، وإن كان هو لا يشعر بي.

"لماذا لا نطلب ما نحتاج ممن نحب في وقت حاجتنا بلا خجل؟ لماذا نترك الزمن يلتهمنا ويضيعنا في طرقات الآخرين أو العابرين أو يلقينا يائسين في مجاهل الألم ومفارق الانتظار؟"

في هذا اليوم ولأول مرة شعرت أن وهج ندى كان وهج حلم خيالي كنت أرسمه كما أريد .. لم أتمنى أن يتجسد ويتحقق .. بل كان وهج الحلم الذي أحيا به وأشتاق إليه من رشا.. من شريكتي التي أهملتني وأضاعتني.

شعرتُ بألم كبير؛ لأنني فعلت كل هذا بتخبط دون حسبان لمشاعرها التي تولَّدت تجاهي، فأصبحت حقيقة لها.. لماذا لم أتركها تتزوج بأيمن وترحل؟ لماذا بحثتُ عنها وأحطتُها بكل هذا الوهج الزائف؟ كيف سأواجهها بعد ما أفاضت بمكنون قلبها في سطورها العذبة لي؟

قرَّرت أن أختلي بنفسي وأبتعد قليلًا حتى يهدأ قلبي المُشتَّت، وحتى أحسم هذا الصراع الرهيب المضطرم بداخلي .. ولم أكن أدري أني أضرمت بقلبها البريء نارًا بعد فراق مفاجئ من رجلٍ ضائع سيحرق قلبها ويكسر أملها بلا ذنب.

لاحظت رشا صمتي الحزين واختلائي بنفسي لفترات طويلة. وعندما كانت تسألني عمَّا أصابني.. كنتُ أخبرها أني أريد بعض الراحة من ضغوط

العمل، ومن كل شيء.. في هذه الفترة كانت ندى هي من تبحث عني لتجد تفسيرًا لاختفائي من حياتها فجأة، كما ظهرت بها فجأة بكل إصرار وأنانية لأبحث عن أمان مفقود.

وكيف تهدأ النيران التي ضُرِمت بقلبها بسببي والتي عصفت بها عصفًا.. فالتجاهل يقتل أكثر من الوداع، كنت لا أستطيع أن أخبرها أني متخبِّط ولا أدري ماذا أصابني، هل أقول لها إنني كنت أريد أن أحبها وحدي في خيالي كما أريد ولا أريدها هي أن تحبني وتتعلق بي؟ إنه شيء غير منطقي وغير مقبول.. لم أنسَ كلمتها أن علاقة تحت مسميين لا تستمر وقت تحديتها قائلًا إنها ستستمر حتى تصبح تحت مسمى واحد ونتوحَّد معًا في حلمنا ونكمل معًا في الطريق نفسه.. لماذا كنت أومن بهذا الكلام وقت نطقته؟ وأشعر بحقارتي الآن؛ لأني نطقته دون حسبان فما كان عليَّ أن أنطقه تهورًا.. وقد كان التراجع هو القرار الذي اتخذته بعد تفكير عميقٍ بعائلتي التي لا أستطيع البعد عنهم رغم الجفاء والعناء، مشفقًا على الكسر الذي تسببت لها فيه بلا ذنب هكذا هربت من الحلم ومنها ومن وعودي كالجبناء.

وذات يوم وقد بدأت ندى تيأس من الاتصال، وكنت ما زلت في إجازة من العمل.. أجبتُ اتصالها.. ربما لأني اشتقت لصوتها رغم إدراكي أنها ستعاتبني بقسوة.. ولكني كنت مستعدًّا لتلقي أي عتاب منها حتى يهدأ صراعها الذي أشعلته فيها قبل أن أحسم الهرب.

- حسام، هل أنت بخير؟

قالت بصوت هادئ هدوء ما قبل العاصفة.

- نعم.. وأنتِ ندى؟

- لست بخير.. لا أفهم سبب اختفائك.

- ضغوط ومشكلات ازدادت على عاتقي أردت أن أختلي بنفسي حتى أستطيع ترتيب أوراقي.

- إن كانت ورقتي من بين الممزقات في إعادة الترتيب كان عليك أن تخبرني.

- لا تقسي عليّ بكلماتك يا ندى.. إني هشٌّ فوق ما تتخيلين.. أشعر أنني طفل كبير لا يستطيع اتخاذ أبسط القرارات.

- ولكنك استطعت أن تبتعد بعد كل ما فعلت لكي تكون قريبًا.

- أعلم جيدًا أني أخطأت بحقك.. لن أدافع عن نفسي.

- أخطأت؟

- نعم.. ومنذ أن قرأت ما وصفتِه في روايتك عني.. شعرت كم أنا ضئيل! لا أستحق أن أحتلَّ حيزًا من قلبك النقي شعرت أني لا أستحق حرفًا مما كتبتِه أدركت من خلاله حجمي الحقيقي.

- هل تعني أن الحلم الذي توحَّدنا فيه كان حلمًا زائفًا؟

- ندى، إني مشتَّت.. ضائع.. لا أستطيع أن أفكر بشكلٍ سليم اعذريني وامنحيني وقتًا كي أستعيد شتاتي أرجوكِ.

- أكنتُ لك نزوة عابرة قضيت بها على ملل زواجك الفاتر؟

أجبتُها بعد صمت كان أبلغ من الكلام بشيء مفتعَل لم يكن له حاجة بعد الصمت:

- لا يا ندى .. ولكن ما أشعر به في تلك اللحظة أننا اندفعنا دون تريُّث، وعِشنا شيئًا متهورًا كان دربًا من الجنون.. ربما كنت أنا في أمسّ الحاجة إلى هذا الجنون، ولكن عائلتي، وزوجتي، وبلالًا ما ذنبهم؟

قاطعتني بحسم:

- بلى، ما ذنبهم؟ إنه ذنبي أنا .. أن صدقت بأن وعدك لم يكن مجرد عبثٍ يقطعه رجل خريفي العمر.

صمتت فلم أجد لحظتها كلمات مناسبة تُخفِّف عنها وَقْع هذا الألم العظيم.

- أخيرًا أصابك الصمت .. تلك برهة صمتك طعنتني غدرًا في مقتل، وقد قرأت إجابتك قبل أن تنطقها.. استطعت أن تمسك سكينًا حادًّا لتغرزه بقلبي قبل أن ترحل من مغامرة عبث عابرة. ويا لها من مغامرة في مقابل حياة!

بقيت صامتًا لأنني شعرت أني أستحقُّ كل كلمةٍ تلعنني بها كي يرتاح قلبها المحطم الأمل.

ثم قلت بصوتٍ كاد يخبو من الألم:

- انا آسف يا ندي ..آسف على كل شيء.

وكأنني فجرت بركانًا بداخلها بهذا الاعتذار البائس بعد هذا الانكسار، وصار صوت بكائها يزلزل أعماقي .. ثم قالت بمرارة البكاء:

- أتعتذر عن القتل العمد؟ ...سوف أتركك أيها الرجل الضائع لتعود إلى وطنك .. تستعيد شتاتك على حطام قلبي، حطام حلم اقتحمته غدرًا .. بعد أن توقفت على بابه طويلًا، ثم أضرمت به النيران بعد أن حطَّمته في لحظة جنون كنت في أمسّ الحاجة إليها على حساب مشاعري وسلامي. سأتركك اليوم ليس على عهد بلا قيمة ولا للقاء. ولكن لضميرك ولقدرك .. وأعدك أن الأيام ستدور وسأمضي بحياتي فوق هذا الجرح الغائر ماحية اسمك من ذاكرتي ..سأخبرك بذلك يومًا ما، عندما نلتقي يا حسام يومَ يُعيدنا القدر بعد النسيان وحتمًا سنلتقي بعد حين.

أوجعتني كلمتها .. مزَّقتني كأنها رصاصة استقرت بقلبي فصار ينزف نزفًا مضاعفًا .. لم تكن تستحق مني ذلك الكسر.. كنت أعلم هذا جيدًا.. ولا أعلم أي قيدٍ قيَّدني عن أن أحقق حلمي معها.. فإن عدتُ إلى بيتي بعد

كل سنوات الفتور هل ستشعر بي زوجتي؟ أين زوجتي منذ وقت طويل؟ وبلال .. كيف لي أن أتركه وهو في حاجته إليَّ؟ سيظل بلال هو الحاجز المشيد بقلبي بيني وبين سعادتي وحريتي .. لقد اكتشفت متأخرًا أنني من ارتبط به وبعمر بشدة، وأخشى فقدهم حد الموت، ولا أستطيع هجرهم والبعد عنهم من أجل سعادتي، رغم أنهم لن يفهموا بمَ ضحيتُ لأجلهم، ولن يُقدِّر أحدهم مدى احتياجي وشبقي للحب والاهتمام.. والذي لم تستطع أمهما أن تمنحني إياه وقت رعايتهما على حسابي .. كنت أشعر أني شمعة تذوب وحيدة لتضيء حياتهم دون أن يشعر أحدهم كم أتحمل من أجلهم من ألم الاحتراق.. إن تركتهم فسأكون أنانيًا ظالمًا.. ولو تركت ندى فسأكون مجرمًا.. لم يكن يجدر بي أن أندفع في جنوني إليها إلى هذا الحد.. لقد تورطت بالوعد.. وأدركت جريمة أن تتورط بوعد وتحطِّم صرحًا بريئًا من الأحلام البكر بنيتَه بيديك بقلب فتح لك بابه بحبٍّ وأمَّنك بعد خوف، ثم أطلقت عليه رصاصة الوداع، لتقنع ضميرك أنها كانت رصاصة الرحمة، وتهرب من ذنبك مبررًا ونادمًا بعد فوات الأوان.

مرت أيام أخر من التشتت والشوق والتخبط والوحشة.. حتى جاءني اتصال من هاتف ندى، لكنها لم تكن هي.. كان أحد قد وجد رقمي آخر الأرقام فاتصل يبلغني أن صاحبة الهاتف قد أُصيبت في حادث مروع على الطريق وتم نقلها إلى المشفى.. هرولت وأنا لا أعي ما سمعت، كأنه كابوس

يغرس براثنه الحادة بروحي التي تمزقت من فرط الشعور بالذنب، وذهبت إليها لأجدها في غيبوبة تامة، وقد أخبرني الأطباء بخطورة حالتها وأنها ستخضع لعملية طارئة كبرى.. عملية استكشافية لإيقاف النزيف الداخلي الذي ظهر مرعبًا بالأشعة المقطعية.

جاء عمرو مدير المكتبة وهو صديق لندى هو وأمها العجوز وأختها وزوجها، وشعرت بينهم أني غريب. واضطررت أن أخبرهم أني من شاهد الحادث ونقلتها إلى المشفى وتكفَّلت بكل مصاريف العلاج.. فصرتُ بطلًا مزيفًا في أعينهم.. لا أحد يدري أنني من قتلتها بخنجر غدر مسموم، ولكن عمرًا كان يعرفني ونظر إليَّ نظرة بُغض لا أنساها حين قال لي: "إن فارقت الحياة، فذنبها مُعلَّق برقبتك ليوم الدين".

لم أحتمل ألم كلمته التي كانت رصاصة أخرى ارتشقت بقلبي المنفطر.. مضيت، ركضت، بكيت ..أحاول الهرب من هذا الذنب بكل ما أوتيت من ضعفٍ، ومن حزن وتمزق ..وعدتُ إلى البيت في أسوأ حالاتي.. فوجدت رشا في انتظاري بوجه عابس ينمُّ عن بركان يستعد للانفجار، وسألتني: أين كنت؟ إنها أول مرة تهتم أن تسألني هذا السؤال.. لماذا سألته اليوم؟ اليوم الذي انكسر فيه قلبي وتحطَّم حلمي وانطفأ وهج نجمتي المسكينة وبدأت أمامها في الانهيار.. نظرت إليها في وجوم ولم أرد.

- أعلم أنك ذهبت إليها.

قالت بحسمٍ، ونظرت إليها بعين مرتجفة بدموع الذنب الصامتة ثم قلت لها:

- إني منهك لا أستطيع الكلام.

- ذهبت إلى ندى.

نطقت اسمها وهي ترفع روايتها بيديها.. تلك الرواية التي زرعت فيها ندى زهور الحلم الضائع.. قبل أن تذبل، وقبل أن تضيع. نظرت إلى ذلك الألم المشتعل بعينيها.. والذي أصابني بمقتل فلم أحتمل كل هذا الشعور بالذنب في ذلك اليوم الرهيب ولم أنطق.. فقالت بارتجاف صوتها الحزين:

- قرأت روايتكما.. عن قصة حبكما العظيم الخالدة.. ما أروعها! أظنها حققت نجاحًا عظيمًا لعشيقتك أيها الخائن.

أجبتها بصوت مهزوم كاد يخبو من الندم:

-ندى بين الحياة والموت، تركتها بغرفة العمليات بعد حادث أليم .. كنت سببًا فيه.

- نالت جزاءها.. مثلما ستنال أنت جزاءك.

- كفاكِ ظلمًا يا رشا .. أنت السبب في كل شيء.

- أنا؟

قالت بنبرة استهجان قوية من بين سيل حار اندفع من عينيها جارفًا كل بروج الصبر والكبرياء.

- نعم أنتِ .. أنت من أهملتني كأنني آلة قديمة رفعت من الخدمة أصبحت بلا نفع ولا قيمة .. أنتِ من رتَّبت أولوياتك وجعلتني آخرها.. أنت من دفعتني إليها كي أبحث بشغف عن اهتمام زائف ولو في كلمات بين السطور.

- أنا يا حسام؟ أنا من حملت عن عاتقيك جهدًا لم تكن تستطيع أن تحمل رُبعه؟ أنا من هيَّأت لك وقتًا وذهنًا صافيًا لعملك حتى لا تشعر بالتعب الذي تحملته من أجل أن أستعيد "بلالًا" في رحلة علاجه الطويل المليئة بالمشقة والألم؟ أنا من رفعت عنك هذا الألم، وكنت أخبرك بأن كل شيء على ما يُرام رغم أني كنت أنصهر من الألم وحدي.. ثم أستعيد ابتسامتي وقوتي من أجل بلال ومن أجلك.. أنا أستحقُّ منك الخيانة بعد كل هذا العمر يا حسام؟

- لا تتحججي ببلال.. أنت لم تشعري كم أهملتني وتركتني وحيدًا.. تركتني لبراثن الأوهام تعصف بي.. تركتني أرتوي بالاهتمام من العابرين.. اهتمام كنت أخلقه في أي كلمة بين سطور كُتبها، لهثتُ وراءه عطشا لأرتوي.. لأشعر أني على قيد الحياة.. لقد نفيتِ قلبي من موطنك فتاه يبحث عن وطن آخر يحتويه.. لماذا يجب أن يكون هناك وطن آخر أختبئ به في قلب أخرى لا ذنب لها لتتحمل عني نقصي وتشتتي حتى تشعري أنت؟

كنتُ أُحدِّثها بألم عصف بقلبي الضعيف الذي نخره الألم والعمر الضائع، وأنهكه الحلم والندم العظيم، وشابَ قبل أوانه حتى استسلم للهوى الضائع كي يبقى حيًّا. ثم انهرتُ باكيًا على الذنب وعلى القلب المسكين وعلى الحلم الضائع.. وعليها وعلى ندى، وعلى حالي.

وربما كانت المرة الأولى منذ سنوات الفتور التي شعرت رشا فيها بحجم الإهمال الذي حفرته بلا قصد في روحي.. حتى صار الجرح غائرًا يسقط فيه أي حلم وأي حب وأي حنين، فلم تتكلم وضمتني بقوة إلى حضنها الذي احتواني في هذه اللحظة بكل ما ملكت من حنان.. وكم كنت في شبق إلى هذا الحنان.. وقالت بعد أن مسحت عني دموعي.. وقد انهمر سيل دموعها يشفق على ضعف حالي:

- أخطأت بحقك يا حبيبي.. لن أتركك وحيدًا مرة أخرى.. إني سامحتك، ولننسَ هذا الأمر كأنه لم يكن.

- أحبُّك يا رشا.. كم افتقدتكِ وودتُ أن ألقي نفسي بين أحضانك ولم تشعري.. لا تتركيني وحيدًا مرة أخرى.. أصبحتُ طفلًا كهلًا يحتاج إلى رعايتك وحنانك، أصبحت غريبًا يحتاج أن يعود من منفاه إلى الوطن.

- لن أتركك وحيدًا مرة أخرى يا حبيبي أبدًا، أعدك بذلك .. وازدادت قوة ضمتها لي لصدرها المتأجج ألمًا وعشقًا.

أشعر بالخزي بأني ظلمتها بتخبطي وتشتتي وحاجتي الشبقة إلى الحنان.. لا أعلم أي ذنب سيطاردني إن فارقت الحياة.. لقد تركتها بالمشفى في حالة حرجة.

قلت لها بعد أن هدأت قليلًا وما زلت مشغولًا بندى:

- كيف حدث الحادث؟ لقد كنت عندها بالأمس.

انتفضتُ من حضنها ونظرت إليها مصدومًا برهة .. متسائلًا:

- أكنتِ عندها؟

- نعم.. ذهبت إليها؛ لأعرف من تكون.. وطلبت منها أن تبتعد عنك وتتركك لبيتك وأولادك وحياتك.

- لماذا فعلتِ ذلك يا رشا؟ كنت قد حسمت القرار وابتعدت عنها.

- لن أسمح لأحد أن يقترب من حياتي ويهدَّ ما بنيناه معًا بعد كل هذا العمر يا حسام.. ومن اليوم لن أتركك مرة أخرى وحيدًا، ومن اليوم لن نذكر اسمها بيننا أبدًا.

واستسلمت لحضن رشا، أنا الغريب الضائع عائدًا إلى وطني بعد نفي طويل.. وكأنني كنت أهرب من ذنبي وأغتسل منه بغفرانها لي.. أما عما فعلته بندى.. فتركته للقدر يذهب به حيثما يشاء.. وينتقم كيف يشاء، وانتهت ندى في هذا اليوم من حياتي للأبد .. رغم إدراكي بأن الكسر الذي تركته بقلبها

أعمق من كسرها بعد الحادث؛ لأنه سينزف طويلًا، وربما لا يلتئم أبدًا .. ولكني دعوت الله أن يغفر لي ويعوِّضها بأفضل مما تسببت لها في خسارته، والذي كنت أعلم في قرارة نفسي أنه لا يمكن أن يُعوَّض.

***

بعد أيام من صدمتي من مكالمة حسام الأخيرة.. فقدتُ اتزاني.. تشتتُ وحزنت حزنًا عميقًا، لماذا طاردني واقتحم حلمي وحياتي بكل هذا الإصرار حتى استجبت لنداء قلبه حبًّا بعدما آمنت له من بعد خوف؟ كيف بهذه السهولة يكون ابتزاز مشاعر الآخرين لعبة سهلة يجيدها الرجل في منتصف العمر.. ليستجدي حنانًا واهتمامًا، كان أولى أن يطلبه من شريكته دون سواها؟ ولا يهمه ما يخلِف وراءه من حُطام قلوب صدقته. هل أخطأت عندما استجبت لنداء قلبي الذي تعلق به وبإصراره؟ هل خسرت أغلى مشاعري في لعبة مقامرة ؟، لعبة انشغل بها رجل خريفي يملأ بها فراغًا في حياته الرتيبة؟ وقتًا أشعل في قلبي وهج العشق الكبير ثم أحرقه؟

لم أستوعب ما حدث.. ولم أصدقه. شعرت أني أحيا في كابوس مخيف.. كيف فعل بي كل هذا؟ لماذا؟ كيف استسلمت لحبه الزائف رغم صمودي في البداية؟ كيف تملك من روحي إلى حد كان يطعن قلبي الآمن به، وينتصر على ضعفه رافعًا رايته على حطامه في لحظة استسلامه بين يديه؟ كيف طعنه بغدر ومضى غير مكترث باحتضاره؟

كنت في أسوأ حالاتي.. حين واجهت الحقيقة المريرة وأدركت أني توحَّدت مع حلم زائف.. وصدقت وعدًا كاذبًا.. واغتيل قلبي غدرًا في لعبة ملل آمنت فيها بمن ظننته فارسًا نبيلًا انتظرته بالحلم طويلًا، ولم يكن إلا مقامرًا انتهز لحظة تسلله من باب القلب الساكن ثم تلاشى منه كالسراب.

كنت بالمكتبة بعد الاتصال الأخير.. أحاول أن أستجمع شتات نفسي.. وألملم أوجاعي وذكرياتي معه، أشيعها إلى مثواها الأخير وأدفنها في ركن مظلم في الأعماق.. بعدما بُهتت الروح في حزنها على القلب الصريع عندما تلقى طعنة الخذلان دون حسبان، وكان عليه أن يتقبل وقع الرحيل وفرض الغياب.. حتى دخلت إليَّ تلك المرأة.. وطلبت روايتي.. أحضرتُها لها.. فوجدت نسخة منها في يدها.. ثم فتحت غلافها على صفحة إهدائي الذي كتبته لحسام.. فعرفت من تكون.. فالتزمتُ الثبات، فهذه هي الحرب التي لا يجب أن أُهزم فيها للنفس الأخير.. ثم قالت بنبرة قوية مفعمة بالتحدي:

- أظن أنك عرفتِ من أكون.

- أظنُّ ذلك.

أجبتها بهدوء وأنا أنظر إلى نظرتها الثاقبة.

- أنا زوجة حسام .. حبيبته وأم ولديه.. وأنت ندى.. مجرد فتاة حالمة عبرت في حياة رجلٍ له وضعه ومكانته، يمر بأزمة منتصف العمر ككل الرجال، انتهزتها لتكتبي رواية تحققين بها مجدًا زائفًا.

- ماذا تريدين؟

- جئت لأهنئك على روايتك التي أعطاني إياها حسام.. فإنكِ بارعة الخيال.

- شكرًا لكِ .. ولحسام.

قلتها بابتسام مصطنعة حتى أنفي عن روحي موضع الاتهام الذي وضعتني فيه، وقد قررتُ أن أحارب عن كبريائي للنفس الأخير.

- اتركيه، إن حربك ضدي خاسرة، فأنا من أعرفه جيدًا .. أنا من عشت معه.

- وأنا من عشت فيه.

أجبتُها بهدوء مفعم بالتحدي رغم ارتجاف روحي من الألم. تبادلنا في تلك اللحظة نظرة تحدٍّ طويلة عاصفة بين امرأتين جمعهما قلب رجل واحد وثقتا به حد الخدر وقت الهزيمة، حد العمى عن كل الحقيقة.. حينها اشتعلت نيران حقد كادت تلتهم قلب إحدانا لا محالة في لحظة الهزيمة، ولكني جاهدتُ ألا تصيبني أمامها تلك الهزيمة.

- أراكِ تتفاخرين بأنك خاطفة لرجل من بيته واستقراره.

قالت.

– هل تتحدثين عن شيء تمتلكينه أم عن إنسان صاحب قرار؟

– قراره لبيته ولأولاده.. الذين لا غني له عنهم، أنت من يجب عليكِ أن تتركيه.

– ولماذا لم تطلبي منه هو أن يتركني؟ فإن تركني هو لما كنتِ في حاجة لتطلبي من أخرى أن تتركه لكِ.

– ألا تشعرين بأنك تخربين حياة مستقرة ظلمًا لكي تنعمي بسعادة زائفة لن تدوم؟

– إن كانت حياتكم مستقرة فاسأليه هو: لماذا تمرَّد على استقراره؟

– لأنك تسللت إلى حياته.

– ولماذا لم تسأليه: كيف تسلل هو وحارب ليقتحم حياتي؟

– أما كنتِ تعرفين إنه رجل متزوج؟

– أما كان عليه هو أن يتذكر أنه رجل متزوج؟

– أنت نزوة عابرة .. حالة يمر بها كل الرجال وتنتهي كأنها لم تكن، كان يجب أن ترفضيها أنت؛ احترامًا لذاتكِ.

– هو من أخبركِ أني لم أرفض؟ أخبركِ أنني لم أهرب؟ أخبرك بما فعله مرارًا؟ ولماذا لم تجيبي عن السؤال؟ لماذا تمرد الرجل المكتفي بك العاشق

لكِ على استقراره وذهب يبحث عن أخرى؟ لماذا نصلتِ سيفكِ وجئتِ لتقطعيني أنا التي لا تعرفينها.. لماذا لم تشهري سيفك في وجه ذلك الرجل الذي تعرفينه؟

- لأنه سيعود إلى صوابه.

- إن كان هذا تبريركِ، فلا تتحدثي عن الحب والاستقرار.

- سيعود حسام إلى بيته وإليَّ، وهذا يكفي لتعلمي أنك نزوة عابرة.

- إذًا دعيه يَعُد إليك من تلقاء نفسه دون أن تطلبي مني أن أعيده إليك كطفلٍ تائه.

- هذا تحدٍّ إذًا؟

- لا.. بل هذا ما تؤمنين أنتِ به.

- لن أسامحك أبدًا.

- ولكن ستسامحينه وهو الذي يتركك.

- هو زوجي وقدري.

- تدافعين عن زوجك وقدرك وتلومينني أن أدافع عن حلمي الذي رسمه لي؟

- حلمك غير مشروع.

- حلمي قدري مثلما زوجك قدرك.

- سوف ينتقم الله...

- من زوجك؟

- منك أنتِ.

-وإن تركته لك فلن ينتقم مني الله وسوف تسعدين بحياتك إن عاد هو إليك بلا حياة؟

- سوف ينساكِ.. ككل الأخريات قبلكِ.

- وهل يتذكركِ أنتِ وهو يطارد الأخريات؟ أم ينساكِ أنتِ أيضًا؟

- هو لي، لبيته الذي بنيناه معًا، ولن يهدمه من أجلك .. أتفهمين؟ سيعود إليَّ وإلى حياته التي لن تهدمها عابرة مثلكِ.

- تتحدثين عن القدر كأنك تملكينه.. والقدر في النهاية مَن سيحكم ومن سيفرض مشيئته علينا رغمًا عن إرادتنا .. سوف تواجهين قدركِ وحدكِ في النهاية .. قدركِ في أن تحَيي مع بقايا إنسان، تمتلكين سرابه وأنت تزعمين الانتصار على الأخريات.. رغم ما بداخلكِ من ألف انكسار.. فإنك تعلمين في أعماقك أنك الخاسرة .. ولا تملكين إلا خداعك لنفسك بهذا التبرير المسكين. أما أنا فسأواجه قدري وحدي أيضًا، لم أعتد الخوف والهرب،

ولتعلمي جيدًا أن البعد لا يعني الغياب.. والروح تسكن إلى راحتها سكنًا لا يعرف الزمان ولا المكان.. ولكن الفارق بيننا.. إنني سأنتصر على ضعفي انتصارًا حقيقيًّا.. أما أنت فانتصارك واهٍ، لأنك تجيدين خداع نفسك، ولتستعدي لحروب النزوات القادمة.. لأنك لا تعرفي كيف تنتصرين إلا بإلقاء اللوم على الآخرين بدلًا من أن تسألي نفسك عن فجوة الفتور التي صنعتِها حوله وتركتِها تتسع بينك وبينه حتي سقط فيها. أما هو.. فإنه حُر يتخذ قراره بذاته.. إنه ليس ملكًا لأحد، وعليه أن يواجه وحده أقداره.. ويتحمل نتائج وعوده واختياره.

– قدره أن يكون بين عائلته.. هذه هي الحقيقة، أما حلمك فهو الزيف، الحقيقة أنه لن يترك الحياة التي بنيناها معًا من أجل شعور عابر سيُطمس في الذاكرة البعيدة في وقت قصير، ومصيره محسوم في مجاهل النسيان.

– سوف أتركه، لأني لم أسعَ من الأساس لأن أكون معه .. هو من فعل بسببك أنت .. سأتركه فقط من أجل بلال.. لتعي ذلك جيدًا.. فقط من أجل بلال.. ولست نادمة على حبي له .. فإني أعلم جيدًا أنك أهملتِه حتى شاب من الوحدة رغم عذرك الكبير، ولدك. وإني دومًا كنت أعذركِ، ولم أحاول قط أن أخرِّب حياتك، وأعدكِ أنه لن يكون لي أثر في حياته أبدًا بعد اليوم .. ولن يكن هو حتى في ذاكرتي السوداء. ولكن لتتذكري دائمًا أني أنا التي لن أغفر له ظلمه لي عندما اقتحم حياتي الآمنة يبحث عمن يُعوِّض له

نقصًا، ويمنحه سعادة زائفة مؤقتة كان يجب أن تمنحيه إياها أنتِ .. كان يجب أن يطلبها هو منكِ أنتِ .. دون أن يلجأ لبديل يقدمه لكِ قربانًا كي تشعري وتمنحيه وطنًا يستقر به بلا شتات ولا ضياع. ولتبلغيه نيابة عني أني لن أغفر له الحلم البريء الذي رسمه وعبث به وكسره بين يديه في مغامرته العابرة.. حتى وإن غفرت له أنتِ.

ومضيتُ وتركتها.. فكنت على استعداد للموت قبل أن تسقط دمعة واحدة من دموع كبريائي أمامها.. فإني أعلم من صميم قلبي أنها المنتصرة رغم صمودي في هذه الحرب البائسة، وأني المهزومة أمام قلبي الذي تحطَّم أمام زيف الوعد والحلم الذي استحال سرابًا.

عُدتُ إلى البيت وقررت أن أختفي بضعة أيام وأسافر لأهرب من وقع الصدمة القاصمة للحلم البائس الذي وئد قبل اكتماله .. بعد لحظة المواجهة الحقيقية التي كان لا مفر منها مهما نتهرب من مواجهتها.. تلقيت في هذا اليوم الحزين الصفعة الثانية بيدها التي لم ترحمني رغم أني رحمتها لما أعرفه عنها.. وكي أحمي روحي من السقوط في بئر الحزن المظلم.. وأستعيد شتاتها وقوتها.. بعد تلك الهزيمة.

وفي اليوم التالي كنت أشعر بتسلل الموت إلى روحي المحتضرة بعد الجرح العميق .. تسدل دموعي وحدها كستار قاتم على وجهي الحزين تحمل في كل قطرة فيها خنجر ألم يرتشق بها كلما تذكرت آخر كلماته القاتلة قبل هروبه..

وما انهالت به زوجته من رصاص على قلبي بالأمس.. وأيقنت أنه قد اختار حياته وطردني منها للأبد.

لماذا رسم لي حلمًا جميلًا وسحبني إليه ممسكًا بيدي إلى النجوم، ثم من أعلى الصرح تركني أسقط وحدي في هُوَّة النسيان المُوحِش محطَّمة وحيدة بلا أمل؟ لماذا نطق كلمة الوعد التي هي عهد حتى الموت؟ لم أنسَ يومًا أن له عائلة.. كنت أذكِره دومًا بذلك.. وكان يخبرني بكل ثقة أنه لا ينسى ويقسم أن حاجته إليَّ لم تكن الحاجة إلى بديل.. ولكن الواقع أثبت أن كل هذا كان كذبًا.. وأن كلام الأحلام الذي نصدقه من فرط حلاوته وعذوبته لا يمكن أن يتجسد واقعًا كما نراه يتلألأ بحلمنا. مزقت روايتنا.. وأحرقت صفحات الحلم المبتور ومحوت أوصافه التي كتبتها عنه في الرواية فلم تعد تلك الأوصاف حقيقية بعدما اغتال القلب وترك به جرحًا قاتلًا ربما لن يلتئم.. كنت أقود سيارتي، ولم أعد أرى الطريق من سيل دموعي الذي انفجر من الحزن، والذي جرف كل الصور التي علقت بناظري لحطام حلم جميل زائف قصير.. ولم أرَ إلا حطام هزيمتي يتساقط وقلبي المذبوح كالطير يرقص احتضارًا بين ضلوعي.. حتى تفلتت من بين يدي سيطرتي على السيارة، ولم أشعر بشيء بعدها إلا بعد وقت طويل.

أفقتُ من غيبوبةٍ طويلةٍ استمرت أكثر من ثلاثة أسابيع. علمت بعدها أني تعرضتُ لحادث مأساوي على الطريق الصحراوي كاد يودي بحياتي..

وعلى أثره فقدتُ أهم ما يمكن أن تمتلكه امرأة.. وطن أولادي الذين كُتب عليَّ الحرمان منهم للأبد.. بعدما لم يكن هناك أمل من إيقاف النزيف إلا باستئصال مواطنه المتهتكة استئصالًا.

جزعت أمي وحزن قلبها حزنًا كبيرًا لما أصابني من مصاب.. ولكنها استسلمت لقدر الله راضية.. لم يتركني عمرو حتى بدأت أتعافى.. فكان لي منذ ذلك الوقت خير صديق وأخ لم تلده أمي.

لم يسأل عني حسام قط.. وقد غيَّر حساباته وأرقامه كلها.. وعلمت من عمرو بعد فترة أنه قد تكفَّل بمصاريف المشفى يوم الحادث.. لقد كان موجودًا في هذا اليوم عكس ما ظننته من عدم علمه بأمر الحادث لأهوِّن على نفسي غيابه عني وقت الاحتضار، لقد كان موجودًا وغادر المشفى، ولم يعد بعدها بقرار منه، تركني بين الحياة والموت، تركني أحتضر ومضى عائدًا إلى حياته غير مبالٍ وقت كانت تُسلب مني الحياة، حينها أدركت حتمًا أنه لن يعود أبدًا، ولن أعود .. وقال لي عمرو يومها يواسيني بعدما سألت عنه بعد إفاقتي:

– لا أطيق أن أسمع اسم هذا الوغد.. إنه السبب فيما حدث.. لقد نسي كيف كان يأتي إليك محاصَرًا ومطاردًا بالمكتبة.. ووقت الجد تلاشى كدخان سيجارة متهالكة في الهواء، وسقط قناعه الزائف، وسقط هو كالرماد. انسيه يا ندى.. إن مثله لا يُعتد به رجلًا، لقد خلف وعده، ولا يستحق حتى ذكر اسمه.

- هل ما زالت روايتي الأخيرة تُطرح بالمكتبات؟

سألته في وهن.

- نعم إنني على مشارف إصدار الطبعة الثالثة.. لقد حققت نجاحًا منقطع النظير.

- أوقفها يا عمرو، واسحبها من المكتبات، وسوف أتحمل عنك كل الخسائر.

- لماذا يا ندى؟

- لأنها رواية حلم زائف سُطرت نهايته بواقع واهم.. والحقيقة أن الحلم كان كاذبًا، والواقع أليمًا مرعبًا كالكابوس.. وإني لن أكتب حرفًا عن الأحلام المحطمة والأوهام بعد اليوم.

كان عمرو يعرف أن هذه الرواية روايتي معه.. ولم يود أن أُصاب بألم أعمق كلما تحدث عنها أحد أمامي.. لقد ساعدني "عمرو" على الشفاء من هذا الألم بعد ذلك، لذلك فإني لا أغضب منه إن ثار بوجهي أو هاجمني؛ لأنني أعرف جيدًا أنه يُكِنُّ لي شعورًا طيبًا، ويودُّ لي الخير في أحسن صورة.. ثم أوقفت المكتبة طبع هذه الرواية وسحبتها من جميع المكتبات وأحرقتها كما احترق فيها قلبي وآخر أحلامي.

بعد بضعة أشهر أصررتُ فيها على التعافي بعدما خضعتُ لعلاج طبيعي مُكثَّف، وعلاج نفسي ليؤهِّلني لتقبُّل الوضع الجديد بحياتي .. وتحمُّل وقع

الهزيمة القاسية وتبعاتها من اليأس والألم المستوطن فوق أنقاض الحب.. بدأت العودة إلى عملي في المكتب رغم أن طول فترة بقائي في البيت كنت أسلمهم التصميمات الجديدة بعد إصراري على أن أقوم بعملي من فوق مقعدي المتحرك رغم معاناتي دون مساعدة. وامتننت لهم تقديرهم لحالتي.. كنت في تحدٍّ وإصرار على أن تصبح تصميماتي تفوق تصميمات شركة المهندس العظيم.. وانطلقت في الكتابة لدرجة أن الفيض الذي تفجَّر من نبع الألم بداخلي لم يكن له حدٌّ ولا قيد.. لم يمنعني عجزي عن أن أسبح في فضاء خيالي الشاسع لألمس النجوم، فالعجز الحقيقي ليس إعاقة جسدية بل هو عجز عن الحلم، عجز عن العطاء .. حتى إن "عمرو" كان مذهولًا؛ لأنني كل أسبوع أسلمه بضعة مقالات وكل بضعة أشهر أسلمه كتابًا أو رواية.

وقد بدأ اسمي يتألق في المجالين اللذين دفنت حياتي فيهما، فأصبحا هما جناحيَّ اللذين أحلق بهما في الفضاء وحدي.. من فوق مقعد متحرك. في عالمي الحقيقي البعيد الوحيد بعدما اعتزلت عالم الكذب المرير.

مَرَّ عامان على الحادث، وقد تعافيتُ بدنيًّا، وبدأت الحركة كطفل صغير يتعلم أولى خطواته، ورغم استعادتي قدمي فإن جزءًا مني قد فُقِد للأبد.. فلم أتعافَ نفسيًّا كلما تذكرت أنني حُرمت الأمومة.. فيُهاجمني الانهيار المرير من جديد.. ولكن أمي كانت تؤازرني وتحتويني.. وعمرو كان سندًا لي في محنتي، وتحمَّل معي أوقات انهياري العصيبة، فكان لي نعم الصديق.. حتى

جاءني عمرو ذات يوم وأخبرني أن روايتي الأخيرة فازت بجائزة دولية في الرواية العربية.. في تلك اللحظة التي حققت انتصارًا على ضعفي، وعلى مرضي، وعلى هزيمتي النفسية.. وُلدت من قلب المحنة ندى أخرى تأخذ بيد ندى الحزينة المهزومة من دامس الظلام إلى النور، بعدما سطعت بروحها شمس جديدة مشرقة بأمل أعاد الحياة لشقوق الروح المعتمة.

وذهبت إلى دبي مع عمرو وفريق إدارة المكتبة ودار النشر لحضور المعرض الدولي وحفل التكريم لكتابي.. وغمرتني السعادة البالغة بالإشادة التي تلقيتها من أهم رواد الأدب ونقاده في الوطن العربي.. وقد أصبح اسمي لامعًا في سماء الرواد الذين أشادوا به عن جدارة.

وفي كل يوم كنت أُجدد عهدي بأن الانكسار العميق الذي حوَّلني إلى شبح مومياء لا تصلح لأي شيءٍ خصب سوى الخيال، قد أصبح وسيبقى كل يوم صرحًا عظيمًا من الإرادة، بات يعلو إلى أن لامسَ عنان السماء منفردًا بقلبي المسكين، وسوف يبقى قلبي نجمًا عاليًا للجميع يضيء لهم من بعيد، ولا يصل إليه حتى الحالمون.. ولكن يبقى الجزء الذي مات بروحي منطقة مهجورة لا أحاول أن أقترب منه شفقة مني على حالي.. أما الجرح الغائر فلا يد تستطيع أن تربت عليه برفق وتشعر بعمقه ومدى ألمه إلا يدك الأخرى.

***

- اليوم أوفيتِ وعدك يا ندى، والتقينا ثانية بعد حين، اليوم حطَّمتِ صرح كبريائي. وقد فرض القدر كلمته.

- اليوم أوفيتُ وعدي يا حسام، والتقينا ثانية بعد حين، ودارت الكأس التي جرعتني منها السُّم المعسول بيديك.. لتجترع اليوم منها بيد قرة عينيك.. وشاء القدر أن يخمد نيران أضرمتها بأعماقي نهشت قلبي طويلًا بعد أن كسرت قلبي وخسرت من أجلك وطن أولادي الضائعين.

واستفاق كل منهما من ذكرياته البعيدة المؤلمة ليعود إلى الواقع الأكثر ألمًا لمواجهة القدر المحسوم الذي أقرَّ اليوم حقيقة مخيفة لا مفر منها.

طَيفٌ أضاءَ عتمتي

جاءت رشا وجلست أمام حسام في هدوء بعد أن استفاق من ذكرياته البعيدة الأليمة التي تجسَّدت من ظُلمة أعماقه منذ وقت بعيد.. وقالت له بصوت حائر مستسلم:

- لا تُعنف بلالًا على ما فعله اليوم.

- لماذا هي بالذات ليخترها القدر من بين كل البشر لتطلق رصاصتها في صميم قلب ولدي، وأقف عاجزًا منكسرًا أمامها لا أستطيع حمايته؟

- يجب أن أتساءل أنا هذا السؤال.. لماذا يختارها القدر لتسلب مني أغلى ما أملك مرتين؟

- هل هذا ذنبها المُعلَّق برقبتي يا رشا؟ هل كسرتها إلى هذا الحد حتى أعادها القدر من جعبة النسيان بهذه القوة لتقتلني اليوم في صميم قلب ولدي؟

نظرت إليه رشا نظرة طويلة صامتة منكسرة مفعمة بالألم والعجز عن الجواب.

- أين بلال؟

سألها.

- إنه يخلد إلى حلمه بها.. لم أره بمثل هذه السعادة قط قبل اليوم.

- لم أتوقع أن يكون بارعًا إلى هذا الحد معها. إن ما حدث اليوم شيء من الجنون يا رشا.

- تحدثتُ مع أحمد بخصوص ما حدث، وأخبرني ألَّا يحاول أحدُنا أن يُشوِّه هذا الحدث أمام بلال أو يلومه على ما فعل، وإلا فسيصاب بانتكاسة لا نعلم عواقبها.

- وما الحل إذًا؟

سألها بصوتٍ تشوبه الحيرة والانكسار.

- قال لي اتركيه يحيا سعادته كما يخلقها هو بحلمه وواقعه بلا لوم ولا تعنيف.

- أأترك ولدي لها؟ أستتركينه أنتِ لها تعبث به انتقامًا؟

- سوف أذهب إليها وأتحدث معها.. لم أستطع أن أتحدث معها اليوم في زحام ما عشناه من قلقٍ من فرط تشتتي وخوفي على بلال.

- لا.. لا تذهبي إليها مرة أخرى.

- عندما يتعلق الأمر بحماية عائلتي من الخطر يجب أن أذهب إلى العدو في معقله لأمنع خطره مهما تبلغ قوته ومهما يكلفني الأمر. فإني سأبعدها عن بلال كما أبعدتُها عنك ذات يوم.

- لقد تشفَّت اليوم وهي ترى في لحظة انتصارها انكساري.

- وأرادت أن تثبت لي أن القدر هو من يفرضها بحياتنا كل حين.. ويا له من قدر!

***

مرت أيام وأصبح العرض الكبير الذي أطلق عليه الإعلام اسم "رقصة الثلج".. حديث الساعة عن النجمة اللامعة التي شاركت معجبها جنونه.. وأصبح عرضًا مستمرًّا تبثه كل القنوات والمواقع الإلكترونية، والذي لاقى ملايين الإعجابات والمشاركات، وقد انهالت الاتصالات الصحفية والتلفزيونية على الجانبين، ورفض حسام الرد على أي اتصال بخصوص بلال.. ورفضت ندى الشيء نفسه.. فلحظات السعادة الحقيقية لا يمكن وصفها في لحظتها أو استعادتها في بضعة كلمات.

وبعد أيام قرر حسام السفر بعائلته فترة حتى يهدأ تأثير هذا الحدث، فيستطيع بلال ممارسة حياته الطبيعية بعيدًا عن الأضواء والصخب .. أملًا

في أن يهدأ الوهج في قلبه وينتهي تأثيره فيه.. ولكن المفاجأة كانت صادمة لحسام عندما رفض بلال السفر.. وقد أخبره صراحة أنه لا يريد أن يبتعد عن ندى..

- كلنا في حاجة إلى إجازة.. لماذا ترفض السفر معنا؟

- لستُ في حاجة إلى إجازة يا أبي.

- ولكن لا يمكن أن نتركك هنا وحدك.. ترى كيف تلاحقنا الصحافة منذ أيام بسبب ما فعلت.

تدخلت رشا لتحدَّ من انفعال حسام قبل أن يتفاقم وقالت لبلال محاولة التزام الهدوء:

- كيف تقول حتى لا تبتعد عن ندى وهي ترافقك دومًا بالحلم، ألم تخبرني بذلك؟

- نعم أخبرتك بذلك يا أمي.

- إذًا أين المشكلة؟ نحتاج جميعًا إلى إجازة لنكون معًا.. أتفضل أن تكون مع ندى على أن تكون مع عائلتك التي تحبك وتريد صحبتك؟

- بل أفضِّل أن أكون معكم ومعها.

- حسنًا، بلال.. مثلما ترافقك في أحلامك هنا يمكنها مرافقة أحلامك في أي مكان آخر.

قالت رشا في استعطاف أخير لتثني بلالًا عن قراره.

- كفى يا رشا.

صرخ حسام بها ولم يعد يستطيع أن يكبح زمام غضبه أكثر من ذلك، وقد قام يفرغ ثورته بإلقاء صورة ندى المعلقة على الحائط بغرفة بلال على الأرض، فتهشَّمت أمام ناظريه، ثم وجَّه كلامه لبلال، وقد كانت نظرته شاخصة محتقنة كجمرة متقدة:

- أي حلم هذا الذي تستسلم له وتتركه يتملك منك إلى هذا الحد؟ ألستَ رجلًا؟ الرجل لا يضعف أمام امرأة أبدًا.

صرخ بلال مكررًا بألم يعتصره:

- لستُ ضعيفًا، إني أحبُّها.

وكان يهتز بجسده بعنف بلا توقُّف محملقًا بصورتها الملقاة على الأرض، لا يحيد عنها، فكانت الصفعة مباشرة على وجه حسام بهذه الكلمة القاسية.. التي ردَّ عليها بكل عنفوان:

- ولكنها لا تحبُّك.. ولن تحبك أبدًا.

ازداد اهتزاز بلال وارتجاف جسده بتكرار عنيف .. كأنه فَقَدَ السيطرة عليه، وكأن نوبته القديمة التي لم تعاوده بهذه الحِدَّة منذ وقت طويل بدأت

تُهاجمه اليوم بلا رحمةٍ كعاصفة ألمٍ شديدة تجتاح قلبه الساكن، تجرفه من مكانه جرفًا وتطيح بكل اتزان. وبينما كانت رشا تحاول أن تتصدى لغضب حسام.. وتطالبه بالسكوت.. انفجر البركان بأعماق الفتى المسكين.. وصار غضبه أقوى من احتماله.. وبدأ يطيح بقبضته كل شيء أمامه يكسره، يهشمه دون وعي، بكل ما أوتي من قوة وغضب.. صارخًا، مُكررًا كلمة أبيه الأخيرة "ولكنها لا تحبُّك" .. "ولكنها لا تحبك" .. "ولكني أحبها" ..حاول حسام السيطرة عليه والإمساك به كي لا يؤذي نفسه في سكرة غضبه دون أن يشعر، ولكنه دفعه عنه بقوة رجلٍ يافع يملك من القوة ما يمكنه أن يدمر أي شيء أمامه، شعر حسام في تلك اللحظة التي سقط فيها على الأرض بعجزه وشيبته أمام قوة ولده الذي أصبح رجلًا صلبًا يدافع عن حلمه بضراوة، انهارت رشا تتوسَّل إلى ولدها أن يهدأ، وهي تحتضنه باكية من خلفه تتشبث به، وهو يُقاوِم بعنفٍ، وهي لا تتركه بكل عزمها حتى بدأ يهدأ بالفعل، وقد التقط صورة ندى من فوق الأرض يرفعها بيديه الداميتين، وقد أخبرته أمُّه أنها ستتصل بندى لتأتي إليه.

"هذا القدر الذي لا يمكننا قمعُه ولا تغييرُه ..لا يمكننا قتل نبتة خضراء أزهرت وحيدة في قلب الجليد الذي سكن بالحب .. ربما لا نعرف كيف يشعر القلب الجليدي بالحب، ولا نعرف كيف يحدث في مثل تلك الحالة، ولكننا في كل الأحوال لا نملك عليه سلطانًا."

استسلم حسام، وأدرك أن الحرب ضد قلب نقي يعشق بكل هذا الصدق حرب خاسرة.. وأن القدر قد شاء أن يزرع كل هذا الحب الذي سكن قلبه يومًا ووأده قديمًا في مقبرة النسيان أن يُصيب قلب ولده المسكين لتظلَّ ندى نابضة به إلى آخر العمر.

هدأ بلال وهو يكرر مرارًا: "ستأتي ندى" غير آبهٍ بنزيف يديه اللتين أطاح بهما كل عائق بينه وبين حلمه الذي تعلق به وقت رأى صورته محطمة.. صارت رشا تضمده بدموعها صامتة مستسلمة للألم. وكان حسام واجمًا حزينًا.. يعجز أن يواجه نفسه بالحقيقة المريرة.. وقد حان وقت الاعتراف بالهزيمة.

مرت سويعات من الصمت المرتقب حتي جاء أحمد ومعه رانيا معلمة بلال المسؤولة عنه منذ بداية تأهيله .. بعد أن اتصل به حسام يخبره بما حدث جزعًا، وقد اتصل بماجد ليحضر أيضًا على وجه السرعة.

مكث أحمد ورانيا مع رشا في غرفة بلال يحيطونه حتى هدأ تمامًا وهو يحتضن الصورة المكسورة لحلمه الوحيد مكررًا نداءه: "ستأتي ندي".. وبقي ماجد مع صديقه حسام الذي استسلم للهزيمة قائلًا لماجد:

- قتلتني امرأة وردت طعنتها بصميم قلبي اليوم بلا رحمة.

- هل تحاربها لأنك تكرهها يا حسام أم تحارب ولدك الذي أحبها فأثار حبها القديم من مرقده؟

التفت حسام إلى ماجد في صمت ووجوم مندهشًا من السؤال.. ثم أجابه بهدوء:

- لم أفهم سؤالك يا ماجد.

- بل تفهمه جيدًا يا حسام.

- منذ أن عُدتُ إلى حياتي وعائلتي نسيت أمرها تمامًا.. كيف تظن بي هذا الظن يا ماجد؟ وكأنك لا تعرفني؟ وكأنك لا تعرف حجم الخطر الذي يحيط بولدي المسكين وبقلب أمه المرهق وبقلبي.

- بل لأنني أعرفك أكثر مما تعرف أنت نفسك سألتك يا حسام. وكنت على يقين أنك لن تجيبني بالحقيقة التي تهرب دومًا من مواجهتها.

- أي حقيقة؟

- إنها ما زالت تسكنك رغم الفراق، ورغم الألم والنسيان، ورغم كل ما يحدث الآن . إن هذا ما تخشى مواجهته مع ولدك.

- إني أحبُّ زوجتي وأكتفي بها.. لم يخطر ببالي قط أن تفسِّر هذا التفسير يا ماجد.

قال حسام منفعلًا.

- حسام.. لا تختلق موقفًا تتخذه مني.. تعلم مكانتك أنت وعائلتك عندي.. لا أحب أن أرى هذه العائلة التي صمدت كثيرًا في وجه الصعاب

وهي تنهار في ريح عاصفة عابرة، كم عبرتم من عواصف معًا! ولكن هذا الحب الذي تملَّك من ولدك لا يمكن بالعنف أن يزول.

- لو ابتعد عنها سوف ينساها.. كما فعلتُ.

- لن ينساها.. كما فعلتَ.

- لماذا؟

- لأنها كانت لك بديلًا عن نقص.. استطعت أن تتخلى عنه وقت عُدتَ واكتملت بحياتك.. ولكنها لبلال حلمه الأول الحقيقي الذي جسَّدته له بكُتبها وجسده هو معها على الجليد، وإنه يتمسك به بقوة، ولن يتخلَّى عنه بسهولة.

- سوف تنتقم منه يا ماجد.. ألم ترَ نظرة التحدي بعينيها في لحظة انتصارها وهي تمسك بيده؟

- لن تنتقم منه.. هي تعلم أنه لا ذنب له فيما فعلتَ أنت.

- وماذا فعلتُ؟ لم أرتكب جرمًا.. لم أتزوجها وأرميها ظلمًا.. اهتممت بكفاءتها بالعمل، ورعيتُها ماديًّا وقت الحادث.. وابتعدتُ عنها تمامًا كي تستطيع أن تُكمِل حياتها.

- بعد أن حاصرتها بحبك ووعدتها فصدَّقتك؟

– كل رجل يمر بنزوةٍ في منتصف العمر تمر وتنتهي.. لا أحد معصوم، ولا أحد يموت أو تتوقف حياته على ماض انتهى ورحل مطويًّا في طريق النسيان.

– نحن نُقرِّر ما يخصنا وما نشعره بدواخلنا يا حسام، ولكننا لا نستطيع أن نحدد حجم الألم ولا تبعاته الذي مَرَّ به غيرنا.. ربما ما نراه تافهًا يكون عند غيرنا عظيمًا.. ربما ما نسيناه في يوم يحتاج غيرنا إلى عمرٍ فوق عمره كي ينساه .. وربما ما نحتاج إليه بقوة.. يكون رفاهية غير ضرورية في حياة غيرنا يمكنه الاستغناء عنه.. لا يمكن حساب كل شيء نشعر به خاص بالمشاعر بالورقة والقلم، أو نصدر حكمًا على الآخرين بشكل مطلق، ونحن لسنا مكانهم.

– ماذا تريد أن تخبرني يا ماجد؟ هل تبعثر لي أخطائي أمام عيني وتنصب لي منصة المحاكمة في مثل هذا الموقف العصيب على نفسي اليوم؟

– لأنني صديقك؛ لا يجب أن أتركك تتمادى في أخطائك.. لا تحاول أن تقتلها الآن بقلب ولدك؛ لأنك تقتله هو هذه المرة.

– كل ما يهمني الآن هو ولدي ... إنك لم تر التحوُّل الرهيب الذي أصاب بلال وهو يدفعني عنه بقوة هائلة أسقطتني، أشعرتني بالعجز أمام قوته، ولم أستطع أن أسيطر عليه في ثورته العارمة، أخشى أن يؤذي نفسه أن صَدّته وصدمته.

– لا لن يؤذي نفسه، وندى لن تؤذيه.. هذا العنف جزء من طبيعته، يجب ان تكون متقبلًا له .. إنه نَفَثَ غضبه كما فعل يوم أخرج حلمه من خيال عالمه إلى أرض الواقع. ولا أفهم يا حسام كيف بعد أن بلغ ولدك الثانية والعشرين.. تعامله على أنه ابن الثانية عشرة؟ بلال أصبح شابًّا مسؤولًا.. ومن حقه أن يعبر عما يشعر به كيفما يشاء.. هو ليس مريضًا ولا مصابًا بخلل عقلي.. المتوحِّد إنسان يعاني بعض الاضطراب، ويحتاج فقط إلى فهم احتياجاته، واهتمام بالغ بقدراته.. وتفهم خاص لحالته وتقلُّباته .. وجهد كبير لمنحه الأمان والثقة بالآخرين؛ حتى يسهل عليه التجاوب والتواصل معهم، وأظنه قد تخطى كل ذلك الآن إلى حدٍّ كبير، ويجب الاعتراف أن هذه هي طريقته وقُدرته على التعبير.. والتي لا يعرف سواها. يجب أن تتقبل ذلك دون خوف منه أو عليه.

– ربما لأنني تركت لرشا مسؤولية الاهتمام به صرتُ أنا مصدرًا ثانويًّا له في الاهتمام.. هو لا يحبُّني مثلما يحبها.. ولا يحبنا مثلما يحب ندى.

– بل يحبك ويحترمك ويتخذ منك قدوة...لقد حان الوقت لتتخذ منه صديقًا حقيقيًّا.. وتعامله كرجلٍ مسؤولٍ عن قراراته.. وتؤمن به وبحلمه وتدعمه، وتكون بجواره.

– هل ستعود ندى إلى حياتي مرة أخرى؟

- ألم أقل لك إنك ترهب اسمها الذي طالما هربتَ منه؛ لأنها ما زالت تسكنك.

قالها ماجد مداعبًا.. رغم أن الكلمة استقرت بروح حسام كقطرة ماء تدفَّقت إلى أعماقه الجرداء.

***

- هيا يا رشا أنتِ وعمر اتركاني قليلًا مع بلال.

قال أحمد الطبيب والصديق المقرب من بلال.

خرجت رشا وعمر ورانيا وقبل أن تغلق رشا الباب عليهما ناداها بلال بجمود نظرته الثاقبة في صورة ندى قائلًا:

- سوف تتصلين بندى؟

نظرت إليه رشا نظرة يشوبها الابتسام المصطنع وقالت:

- نعم يا حبيبي، سأفعل.

وأغلقت الباب.

التفت أحمد إلى تلك اللمعة التي ارتسمت نقية على عينيه في وجومها وقد ذَكَرَ اسمها الذي أذاب الجليد. ثم سأله برفق:

- هل تحبُّها؟

- نعم.. كثيرًا.

- كلنا نحبها.. لأنها ناجحة؛ ولأنها طيبة وتحب الجميع.

لم يفهم بلال مقصده .. ثم استطرد أحمد:

- قل لي: كيف كان شعورك وأنت ترقص معها؟

- لا أعرف .. كنتُ متوترًا.. بل كنت مكتملًا.

- أكنت سعيدًا بمشاركتها لك؟

- نعم .. كثيرًا.

- كيف قمتَ بهذا الإبداع أمام كل هذا الحضور الغفير؟

- لم أرَ أحد سوى ندى ..

- لقد كان كل شيء مبهرًا .. كيف رتَّبت كل ذلك .. من ركَّبَ الأضواء البراقة وسلَّطها على أرضية الثلج؟ ومن صَنَعَ الصورة الكبيرة لها التي أُسدلت على الحائط وقد سُلطت الأضواء عليها بشكل بديع قبل بداية الموسيقى الرائعة، وزيَّن المكان كله بهذه الزينة الباهرة لتنسجم مع حركاتك المدهشة بشكل بديع؟ هل كان كل ذلك ما خططتَ أنت؟

-نعم، وصديق لي ساعدني..

- من يكون؟

- صديقي عبد الرحمن .. أخبرته في أثناء التمرين أني أريد أن أجهز لندى مفاجأة يوم حضورها إلى النادي في ندوتها، فاستعنا بمنظم حفلات.

- يا لها من مفاجأة! لقد كانت رائعة حقًّا.

ابتسم بلال في شروده، كأنه تذكر تفاصيل اللحظة مع ندى .. ثم استطرد أحمد:

- ولكن أخبرني: كيف شاركتك ندى كأنها أدت هذه الحركات معك من قبل؟ هل تدربتما معًا؟

- لا، كنت اذهب إلي قاعة التزلج و أحلق معها وحيدًا منذ وقت طويل.

- إذًا كيف فعلتَ ذلك؟

- قالت إني أثق بك يا بلال.

صمت أحمد منبهرًا من قوة هذه المرأة التي استطاعت بكلمة واحدة صادقة تحمل فيها قوة كامنة أن تُفجِّر نبعًا صافيًا من قلب الجليد أذابه في لحظة.. وحفرت نهرًا من السعادة أفاض من قلب الصمت من عالم هذا الشاب ليفيض عذبًا على أرض الواقع ..ثم استطرد قائلًا:

- وأنا أيضًا أثق بك تعلم ذلك.

- أجل، أعلم.

- إذًا لماذا كسرت المنزل وتركت يدك تنزف؟ ألسنا متفقين ألَّا نحاول التفكير السيئ في الأمور أو الكلمات؟

- أبي ألقى صورة ندى بعنف على الأرض وكسرها.

- إنه لم يقصد.

- وصرخ بي: "ندى لا تحبك..ولن تحبك أبدًا" .. كيف يعرف وقد قالت إنها تثق بي؟

- حسنًا، أنت تعلم أيضًا أنه يحبك.. وكان قلقًا عليك كثيرًا.. يجب أن تتفهم ذلك وتقدره.

- لِمَ قال إنها لا تحبك؟ كيف يعرف؟

- لا يعرف.. لقد أخطأ حين قال ذلك، ربما لو كان يعرف لما أخطأ، ولكن لِمَ لَمْ تتحكم أنت بردة فِعلك؟

- لا أدري، لم أشعر.

- حسنًا.. عِدني أنك ستكون على ما يرام.

- هل ستأتي ندى؟

نظر أحمد إليه نظرة مُطوَّلة بعد تفكير قائلًا:

- نعم.. ستأتي ندى.

انفرجت ابتسامة بلال براحةٍ، واستلقى على فراشه هادئًا، وهو يحتضن الصورة.. ولم يدع لأحمد أي مجال بعد تلك الإجابة للكلام.

خرج أحمد من الغرفة في وجوم.. وكان ماجد وحسام ينتظرانه . وقد تجنَّبت رشا الحديث مع حسام، وبقيت معها رانيا حتى تهدأ هي أيضًا.. وبدأ أحمد في توجيه الكلام إلى حسام بشيء من اللوم:

– ثورتك على بلال غير مبرَّرة يا حسام!

– فقدتُ أعصابي يا أحمد، إنك لم تشاهد ما فعله اليوم.. إن ولعه بهذه المرأة قد وصل إلى حد الهوس.

– لم يصل إلى هذا الحد.. لا تبالغ.

– ألم ترَ كيف راقصته في ذلك اليوم؟ ألم ترَ كيف كان متشبِّثًا بها وبصورتها منذ أن تركته؟ وتقول لي ليس إلى هذا الحد؟

– اهدأ حسام.. الموضوع أبسط مما تتصوَّره.

– هل أترك ابني يضيع مرة أخرى بعد كل ما قطعناه دهرًا من العناء حتى أصبح رجلًا مسؤولًا لتأتي امرأة عابثة تعصف بحياته واتزانه؟ وتعيدنا إلى ما دون الصفر؟

– إني أرى مخاوفك تجاوزت حد الهاجس يا حسام.. أي صفر تتحدث عنه وولدك عبَّر عن مشاعره بصورة عبقرية كما يراها ويشعر بها.. وترك في هذا الحدث بصمته وحُلمه وجزءًا من روحه وقد غمرته سعادة حقيقية.

- وهل يعرف المتوحِّد كيف يشعر وكيف يحب؟ أجبني أيها الطبيب؟

- ربما لا يعرف المتوحِّد المعنى الدقيق و العمق الحقيقي لمفهوم الشعور.. ولكن من أجزم أنه لا يشعر؟ ربما لا يترجم شعوره كما نفهمه نحن، ولكنه يعرف كيف يترجمه لنفسه ويخلق سعادته ويعيشها في لحظة ولادتها بداخله، حتى وإن كان لا يعرف كيف يصفه .. وقد أدرك بلال سعادته في حلمه بندى.

- لا أفهمك.

- ما يشعره بلال تجاه ندى ليس حبًّا عاطفيًّا أو غريزيًّا كما نسميه نحن.. بل تعلقًا بصورة لحلم بداخله رسمه لنفسه ليسعده .. صورة بديعة في خياله يحبها هي بطلتها، لقد حاول أن يجسِّد حلمه معها واقعًا كما يراه ويعشه في عالمه بطريقته .. وهذا التواصُل قوي ومذهل، لقد استطاع أن يخرج من العزلة إلى الواقع بإرادته ..عندما سمح لندى بمشاركتها حلمه بها عندما راقصته على الثلج.

- دعني أشرح أنا يا دكتور أحمد.

قالت رانيا محاولة تهدئة حسام.

- كما تعلم أن المتوحِّد انسان منطوٍ، ولا يُبدي الاهتمام والشعور بصورة طبيعية، ولا يكترث بالآخرين، بلٍ يهرب منهم بالعزلة والصمت،

ويُفضِّل القيام بأعمال روتينية تخصُّه هو، فيكون بها عالمه الخاص الذي لا يشاركه أحد فيه.. وبلال لم يكن مصابًا بهذه الدرجة الكبيرة من "التوحُّد الكلاسيكي" الذي يفصله عن شعوره كاملًا ..وإنه لم يكن لديه إعاقة ذهنية تؤثِّر في حسِّه وإدراكه كليًّا، بل إنه ليس من محدودي الذكاء الذين لا قدرة لهم على خلق الخيال والتصورات، كما في الحالات الشديدة من مصابي التوحد.. بل بالعكس .. أنه يعرف كيف يشحن كل طاقته وتركيزه في الشيء الذي يتعلق به من خلال الصورة التي يرسمها بخياله الخصب ويحلم بها فيسعى لتحقيقها كما يراها، ونظرًا لتميُّزه بقوة ذاكرته ولقراءته العميقة في التاريخ وعلوم الأساطير وقراءته أيضًا لكتب وروايات ندى التي تحثُّ على خلق الأمل، واكتشاف الذات، فقد وَجَدَ فيها ما يُطابِق حلمه الداخلي مما زاد اعتقاده بأنه بطل منفرد له أسطورته الخاصة، يراها ويشعر بها بداخله، ويشعر أنها تُميِّزه، بل تغمره سعادة كبيرة، فأصبحت ندى هي من تفهم ما بداخله فأصبحت جزءًا من حلمه وعالمه .. لذلك فإن تُعلُّقه بندى هو تعلقه بالحلم الذي يسعد به والصورة التي يرى نفسه عليها .. وإن تعلُّقه بالحلم هو دافعه للشعور بقدرته على إخراج المزيد من طاقته الإبداعية المفرطة من داخله، وخَلْق سعادة بنفسه ولنفسه.

– إنه يحبها .. لقد اعترف بذلك؟ هل تسمعين يا رانيا؟؟ هل سمعتِ بنفسك يا رشا؟ إنه يحبها.

قال حسام وكاد يفقد سيطرته على انفعاله مرة أخرى بعدما أبدى عدم اقتناعه برأي أحمد ورانيا.

- بل يحب نفسه من خلالها يا حسام.. ندى هي مرآته المجسِّدة لذاته التي تعكس له حلمه من فوق جدار الثلج بداخله على أرض الواقع والذي وجده بين سطورها، والذي يشعر أنها تُشاركه فيه، وترسمه معه وهي تخاطبه وحده من خلال كلماتها دون قصد منها.. قال أحمد محاولًا استكمال ما قالته رانيا، ملتزمًا الهدوء رغم اندهاشه من مبالغة حسام في مخاوفه وانفعاله .. ثم استطرد:

- اسمع حسام.. قلتَ للتوِّ إن "بلالًا" أصبح رجلًا مسؤولًا وأنا أعتبره كذلك.. لقد أصبح لديه من الوعي والإدراك ما يجعله يعرف ما يريد إلى حدٍّ كبير حتى وإن كان لا يفهم نفسه بشكلٍ كامل، أو ربما نحن من لا نفهمه كما فعلت ندى.. هو يقبل نفسه كما هي عليه بنقصها.. بل إنه يحلم بمثالية أنه لا يرى فيها نقصًا. وكل ما تبقى من طيف التوحد هو احتفاظه الشديد بروتين حياته وتعلُّقه الشديد بما يحب وردة الفعل العنيف التي تصيبه بين الحين والحين هي جزء من طبيعته تظهر مفرطة وقت يمسُّ أحد سلامه الداخلي أو يعتدي على الشيء الذي يتعلق به أو يهين حلمه أو يقتحم عالمه الذي يعيش فيه .. وهذا ما يمكن أن يصيب أي شخص طبيعي لا يتحكم

جيدًا بانفعالاته.. ولا بأس في ذلك الإفراط ما دام لن يؤثر فيه بالأذى.. بل بالعكس إن ذلك يحفِّزه على الإبداع. لا تتصرف معه على أنه مريض.. لأننا تجاوزنا مرحلة المرض، وقد تجاوزنا هذه المخاوف قديماً.. وما تبقى من آثارها ليست بهذا القدر من السوء، وإن كان ما زال الأثر باقيًا لن يزول. عليك أن تقبله على ما هو عليه.

- إذًا هو يحبها كرجل ..لا كصورة في حلم.

قذفها حسام كقنبلة موقوتة للمرة الثالثة في وجه الجميع، ولم يستطع أن يخفي تخوفه الغريب من هذا الشعور تحديدًا الذي اختلج وجدانه رغمًا عنه.. وطمس عن أذنيه كل التفاسير.

تركت رشا الغرفة بعد أن وصل حنقها إلى ذروته.. فهي تعلم جيدًا سبب هذا الخوف البالغ الذي تملك زوجها، وأخرجه عن شعوره، بل أطاح به وباتزانه. حينها أدركت أن هذه المرأة قد هزمتها اليوم مرة أخرى، واحتلت القلبين منها رغمًا عنها.

شعر أحمد ورانيا أن هناك عاصفة أخرى وشيكة بسبب هذا التشتت الذي أصاب حسام من مخاوفه المتفاقمة، فهم لا يعرفون ما وراء تفاقمها.. لم يدرِ أحد أن ندى قد أثارت غبار حبها القديم بقلبه دون أن تقصد ودون أن يعترف هو أنها ما زالت تسكنه.

استأذن أحمد ورانيا وانصرفا بعد أن أوصيا حسامًا بعدم التدخل في الأمر، وحذراه من أي محاولة للضغط على بلال.. وأخبره أحمد أنه سيتحدَّث مع ندى موضحًا لها أبعاد الأمر، وعواقبه حتى يضع معها خطة للخروج من هذه الأزمة بسلام. وقبل أن ينصرف ماجد الذي لم يجد ما يقول لصديقه الثائر الحزين.. قال له في آخر كلماته:

- أرجو أن تترك "بلالًا" ..وأن تترك أنت ما دفنته قديمًا في مقبرته، ولا تحاول أن تثير غبار عاصفة سوف تقضي على صرح البيت الكبير فينهار من بين يديك.

وانصرف على أمل أن يتصل به بعد أن تهدأ العاصفة.

تُخلق الأنثى حرة إلى أن تصير أمًّا .. فقط أمًا

أغلقت رشا على نفسها باب الغرفة الأخرى وظلت بها حتى تهدأ، فاليوم ولأول مرة منذ ذلك اليوم البعيد لا تستطيع أن تنظر إلى عيني حسام رفيق الدرب وحبيب القلب الذي بات على محك الضياع منها مرة أخرى.

فتحت رشا النافذة على مصراعيها بعد أن سكن الليل، واعتلى البدر عرش السماء بين النجمات المضيئات على صفحتها وكأنها لؤلؤ منثور، وسحبت نفسًا عميقًا بعدما كادت على مشارف الاختناق، وسبحت وهي تحبس دمعاتها الحارة من السقوط من فوق سفح مقلتيها العزيزتين لتبقى كبرياؤها صامدة في وجه العاصفة.. سبحت فيهما مغمضتين إلى عالم الذكرى الدفين.

" كان حسام منذ أن وقعت عليه عيناي في أول لقاء هو ذلك الفارس الذي كان يرافقني بأحلامي القديمة، وشعرت يوم التقيته في حفل عائلي

برجفة قوية بقلبي، تضرعتُ إلى الله يومها أن يكون لي.. وكانت ساعة إجابة وجمعنا الله على رباطه الوثيق.. لم أعرف الحب قبل أن ألتقي حسامًا.. كنت منهمكة بدراستي للطب بين الكتب والمراجع والاختبارات الدورية التي تتميز بها جامعتي عن باقي الجامعات، والتي تسحب العمر في دوامة متلاحقة من القراءة والجهد في العمل المتواصل المستمر سنوات طويلة.. تخرجتُ وأصبح حسام هو أكبر أحلامي.. وعندما تحقَّق وتمَّت خطبتنا في عام الامتياز.. فضَّلت البقاء بجانبه على أن أبحث عن طموحي ومستقبلي المهني، فكان نجاحه هو نجاحي وسعادته هي أوج سعادتي.. وقد أدركتُ اليوم أن غلطتي الكبرى أني أفنيتُ نفسي وروحي وكياني فيه.. بلا مقابل.

انشغل حسام بعمله بعد أن أسس شركته الهندسية ليكبر بها، أصبحتُ وحيدة تمامًا.. وقرَّرت أن أتقدَّم إلى الدراسات العليا لأقضي على ذلك الفراغ الكبير الذي خلفه حسام بانشغاله الدائم عني ليعلو اسم شركته، ويُحقِّق طموحه الكبير وذاته.

وبدأت في دراسة الماجستير حتى حملت ببلال.. وكانت فرحتي الغامرة يوم زفَّت لي زميلتي الخبر.. فرحة أطاحت بكل فجوة مللٍ ملأ حياتنا في أول عام بعد الزواج.

وأصبح بلال لي هو الأمل والرفيق الذي سيصاحبني، ولا أشعر في وجوده بالملل أبدًا. وقمت بإجازة لرعاية طفلي الوحيد رعاية فائقة.. وكانت

في هذا الوقت حياتنا مستقرة وهادئة وسعيدة.. فحسام كان يحاول جاهدًا أن يرافقنا أطول وقت ممكن، لقد كانت سعادته ببلال سعادة غامرة تملأ الكون، ولكني أصررتُ عليه ألَّا يهمل عمله خوفًا عليه.. وكان خطأ كبيرًا أن تتنازل زوجة عن أقل حقوقها، وهو أن يحب زوجها أن يبقى معها فترة طويلة حتى لو على حساب عمله.. لم أكن أعلم أني قد بدأت في إبعاده عني وعن بلال دون قصد بنية التضحية والحب والخوف عليه.

كنت أنظر للموضوع نظرة أخرى بها سعادتي بالتضحية من أجل أن أوفِّر له وقتًا لعمله على حسابنا.. وهذا الخطأ غير المقصود دفعت ثمنه من كرامتي يوم علمت بحبه لأخرى شغلت قلبه المهجور. والذي ظننت أن مقاليده معي وحدى ولن يستطيع أحد أن يدخله وهو لي. وتناسيت أن القلب لا يمكن أن يملك مقاليده أحد، ولا حتى صاحبه.

بعد عامين من اهتمامي البالغ ببلال.. بدأت ألحظ عليه تغيرًا ملحوظًا، ثمة تأخُّر في النطق.. مع بعض الأفعال الغريبة غير المألوفة التي لا تطرأ على الأطفال في مثل عمره، كعدم انتباهه إلى صوتي أو لأي صوت حوله، فإنه كان لا يلتفت لندائي .. حتى الأصوات التي تحدث ضجيجًا حوله يدب في قلبه الخوف منها فيبدأ بالصراخ صراخًا هستيريًّا لا يهدأ إلا بعد عناء، عدم اكتراثه بوجودي إن ناديته أو أبديت أي انفعال أمامه، إنه لم يكن ينظر إليّ إلا نظرة خاطفة وكأنني شيء مارٌّ أمام عينيه كالطيف لا يثير اهتمامه

وفضوله. استشرت على الفور أحمد زميلي وصديق العائلة وطبيبه الخاص حيث قمنا بفحوص شاملة للسمع والبصر ورسم المخ وفحوص مقطعية ومخبرية شاملة، بجانب الفحص الإكلينيكي، وكانت نتائجها كلها سليمة، فاطمأننت وانتظرت فترة أن ينطق ويقول لي: أمي بلهفة وشغف، إلى أن مَرَّ عامه الثالث، وكنت قد عزمت بعده أن أبدأ معه جلسات للتخاطُب ليبدأ في النطق، وتعلم الكلام كمثله من المتأخرين .. ولكني بدأت ألحظ تغيرات أخرى بدأت في الظهور على سلوكه، وعلى حركته، لقد أصبح مفرط الحركة بشكل عنيف.. سريعًا في مشيه وركضه.. عنيفًا في الإمساك بالأشياء التي تُثير انتباهه حتى التي كانت منها لا تعجبه، كان يحطمها تحطيماً بعنفوان غريب، كما اتضح لي انشغاله بالأشياء أكثر من انشغاله بالأشخاص حيث كان يتجنب النظر إليهم، كان دائم التشتت بعينيه، صائب النظر بأشيائه الخاصة بنظرات حادة ثاقبة، لا يبتسم حتى وإن ابتسمتُ له، وكان ينفر بعنف وينزعج بشدة أن اقترب منه أحد، أو لامسه سواء أنا أو والده لنحتضنه أو نقبله، كان يصرخ بهستيريا إن اقترب منه غريب أو شعر برعب من أشياء لا تثير الخوف كمواء القط مثلًا أو صوت المطر والرعد، ولا يهدأ صراخه إلا بصعوبة، وكان يُفضِّل الوقوف على أطراف أصابعه في حركة غير منطقيةٍ، ولا مناسبة للحدث، ولا لطفل تجاوز الثالثة من عمره.. يرفرف بيده كالطائر الذي يستعد للتحليق في الفضاء في لحظة انفعاله، لم أطمئن لهذه السلوكيات الغريبة وعرضته مرة أخرى على أحمد أستاذ الطب

النفسي والسلوكي للأطفال، وكان للتوِّ عائدًا من إنجلترا بعد بعثته الدراسية للحصول على الدكتوراه في تعديل السلوك. وبعد إعادة بعض الفحوص السمعية والبصرية واجراء بعض فحوص الدم الجينية والوراثية والهرمونات والتمثيل الغذائي لاكتشاف أي خللٍ في عملية الأيض والرسم الكهربي والفحص المقطعي للمخ، وبعض اختبارات التقييم السلوكي والإدراكي والانفعالي؛ تبيَّن وجود خللٍ في أحد الجينات على أحد الكروموسومات التي تحمل الجين الناسخ أدت إلى حدوث طفرة "طفيفة"، وإلى ارتفاع معدل تكوُّن بروتين غير طبيعي ينتجه الجين المصاب، فيتسبب ذلك في إحداث خلل بين النواقل العصبية التي تنقل الإشارات من المؤثرات الداخلية والخارجية إلى مركز المخ والجهاز العصبي المركزي الذي يترجم الإشارات ويرسالها منه إلى الأجهزة الحركية والأيضية والحسية بالجسم.. وهذه الطفرة الجينية بأحد الكروموسومات نتج عنها ما يعرف بـ "طيف التوحُّد"، أما عن بقية الفحوص فكانت سليمة؛ مما جعل أحمد يطمئنني أننا أمام تشخيص لـ"طيف التوحد" البسيط المعروف بـــ" متلازمة اسبيرجر".. لأنه لم تحدث إلا طفرة طفيفة في نسخة واحدة من الجين، ولم يحدث نسخ الكثير من الجينات الشاذة التي تؤثر سلبًا في مراكز الحركة والإدراك بالمخ، فيصبح الطفل في أسوأ حالاته من الإعاقة إذا أصيب بخلل عقلي ينتج عنه تخلُّف شديد، وفقد كبير في التواصل مع المحيط سواء باللغة أو الإدراك أو الاستجابة للمؤثرات الخارجية والانفعالات الداخلية أو الاستجابة للألم. وهذا ما لم يحدث في

حالة بلال. بل بالعكس وجد أن هذا الخلل كان في صالح تنمية تعويضية لمراكز أخرى بالمخ بمهارة عالية أكثر كفاءة من الطبيعي كالذاكرة والحركة.

يومها شرح لنا أحمد حالته بالتفصيل:

- إن طيف التوحُّد هو اضطراب له درجات متفاوتة؛ لذلك سُمي "طيفًا" قد تختلف من طفل لآخر حسب درجة الإصابة ومكان الخلل الجيني وحجمه أو الطفرة التي حدثت بالكروموسوم السليم وعمر الطفل وقت الإصابة، وكلما كان اكتشاف المرض مبكرًا، كانت الاستجابة للعلاج فعَّالة وبرامج التنمية المهارية واللغوية والسلوكية متقدمة جدًّا في نتائجها إلى الحد الذي يعود فيه الطفل لدرجة كبيرة مع مرور الوقت من عزلته وانفصاله عن المحيط .. وأظن أن حالة "بلال" هي أحد أشكال الطيف المسمى "متلازمة اسبيرجر" .. أي التوحد الطفيف.. الذي لا يصاحبه إعاقة ذهنية، ولا يُحدِث تلفًا في المراكز الحسية، ومراكز الإدراك كليًّا بل بالعكس لقد وجد أن معدل ذكاء هؤلاء المصابين بالمتلازمة يكون فوق المتوسط، وأحيانًا فوق الطبيعي إلى حد الذكاء الخارق، وإذا تم تداركه مبكرًا وتدريب الطفل تدريبًا كثيفًا على تنمية مهاراته في التواصل والتفاعل منذ اكتشاف المرض، فإن ذلك يحقق نتائج مذهلة، ولأن الأعراض التي ظهرت عليه ظهرت بعد عامه الثالث.. هذا ما يفرق "متلازمة اسبيرجر" عن "الأوتيزم" أو "التوحد الكلاسيكي".. وفي ذلك إشارة جيدة جدًّا إلى أن بلالًا يمكن التعامل معه ببرنامج علاج

سلوكي وتنموي مهاري مكثف دون حاجة إلى علاج دوائي مكثف أو مطوَّل لأنه قد تبيَّن بالفحوص أنه لم يصب بإعاقة عقلية.. وهذا أهم ما في الأمر.. ولكن الموضوع سيحتاج إلى جهد وتقبُّل للأمر الواقع يا رشا، إن التعامل مع طيف التوحد سيحتاج إلى صبر كبير؛ لأنه اضطراب متغير ومرهق، وأنا أثق بقدرتك على التحمل.. والتأهّيل لهذا الطريق الصعب الطويل.

– هذا ابني يا أحمد.. ابني الوحيد.. سوف أفعل المستحيل مهما يكلفني الأمر كي يعود إلى طبيعته من هذا المرض.

– سوف يعود يا رشا .. ثقي بذلك.

ورغم الصدمة التي عصفت بوجداننا وفرحتنا التي لم تكتمل أنا وحسام وقت عرفنا أن لدينا طفلًا توحديًّا.. فقد تقبَّلت الأمر سريعًا، وشحنت كل طاقتي للعناية بطفلي الوحيد حتى أستعيده من عزلته، من عالمه المغلق ليستطيع التواصُل معنا ومع المجتمع المحيط، وكان هذا هو الأمل الوحيد الذي قررت أن أحيا وأصمد لأجله.

كان حسام في هذه الفترة يضغط عليَّ من فرط حزنه وخوفه من ألا يستجيب بلال للعلاج المطوَّل الذي سنقطع رحلته بكل حزم وصبر آملين عودته.. فأصرَّ أن يكون لدينا ولدٌ آخر.. وقد رفضت هذه الفكرة رفضًا قاطعًا، حينها ثار وقال لي:

– لا أريده أن يعيش وحيدًا يا رشا.. يجب أن تُقدِّري شعوري.. فإني أتألم لأجله.

– عندما يستطيع الاعتماد على نفسه ويعود إلى طبيعته ويبدأ الدراسة سوف أوافق على أن يكون له إخوة، إلى هذا الحين لا تتحدث معي في هذا الموضوع.. لقد سمعت بنفسك من طبيبه أنه سيخضع لعلاج سلوكي وبرنامج تنموي مكثف وشاق، وأن احتمال إصابة إخوته بالتوحُّد احتمال قائم، ونحن مشاركون في فريق علاجه، وعلى عاتقنا مسؤولية كبيرة.. كيف تطلب مني أن أرعى ولدًا آخر وابني يحتاج إلى كل رعايتي؟

صمت حسام ولم يكن راضيًا عن قراري الذي حسمته، ولكنه كان يعلم جيدًا أنني فهمت ما يجول بخاطره، وفهمتُ أنه لا يريد أن يرى قطعة منه تكبر أمام عينيه بهذا الخلل، وأنه رغم كونه متقبلًا هذا القدر، فلم يقلها صراحة، إنه كان يريد طفلًا آخر طبيعيًّا.. كان يحلم ولم أستطع أن ألومه على ذلك.. ولكني لم أقرر أن أشاركه فيه.

منذ ذلك الوقت كنت أتجنبه عن غير قصد.. وأتحجج ببلال.. وأنه لا يجب أن أتركه بمفرده ينام وحده أو يجلس وحده؛ لأنه لا يستطيع أن يطلب ما يريد بنفسه، فكنت أنا دليله إلى ما يريد. ابتعد حسام تدريجيًّا عنا بعد أن اتسعت بيننا فجوة الفتور.. وأصبحت لقاءاتنا خاطفة باردة وأصبح عمله هو حياته وعالمه الذي يستعيض فيه ما ينقصه من الحنان والرعاية التي كنت أمنحها بالكامل بلالًا دون أن أتوقع أنني تسببت له في فراغ عاطفي لم يستطع أن يملأه بالعمل والأصدقاء كما ظننت.. من فرط ثقتي به أنه أبدًا لن يخون..

ولو بفكرة عابرة في أحلامه.. لم أفكر مطلقًا، فكان بلال هو الشاغل الوحيد لكل حياتي وتفكيري.

بدأنا البرنامج التأهيلي لبلال بالمركز الذي كان يضم اختصاصي التخاطب ومعلمة التربية الخاصة والاختصاصي النفسي وتعديل السلوك واختصاصية التغذية تحت إشراف الدكتور أحمد.. وكانت لنا جلسة يومية مع كل منهم في إطار البرنامج التنموي والتأهيلي المتكامل.. لم يكن بلال في حاجة إلى علاج دوائي مكثف إلا بعض مثبطات فرط النشاط، كما أخبرني أحمد من قبل، فهرمونات النمو عنده تفرز بشكل طبيعي، وكل ما يحتاج إليه هو التقليل من أنواع معينة من البروتين حتى تتم عملية التمثيل الغذائي والهضم بشكل سليم والتركيز على محفزات الانتباه وتنشيط الذاكرة من أحماض الأوميجا في برنامج غذائي أعدَّته لنا اختصاصية التغذية وكانت تتابعه معنا باستمرار.. وكانت جلسات التقويم والتعديل السلوكي تتم تحت معايير محددة أهمها أن نلفت انتباه بلال إلى كل شيء يحيط به إلى أن يعتاده، ويستطيع بالتدريج الالتفات إليه وحده دون مساعدة .. ورصد ردة فعله الأولية، ثم تمرينه على الانفعالات المناسبة، وتغذية عقله بالكلمات والأسماء التي يتلقاها كحصيلةٍ لغوية توسِّع مركز الإدراك لديه.. ومع تقييم الأشياء التي يحب أن يلتفت إليها بنفسه أو التي يطيل التركيز فيها، أصبحت لعبه الباهرة ذات الألوان الصاخبة والتي كان يفرح بها فرحًا كبيرًا ..هي أكثر ما يثير انتباهه.. فكان لا يفضِّل اللعب إلا بها، وكان يضعها جميعها متراصة دائمًا في صفٍّ واحد

بجانبه.. ويثور إذا ما حرَّكها أحد من مكانها أو غيَّر له ترتيبها.. وبعد ذلك كان التقييم يشتمل على ملاحظة قدرته على التواصل مع الآخرين وانفعالاته وردود أفعاله تجاه الأشخاص.. فكان تحفيزه وتشجيعه على الالتفات للأشخاص في أثناء حديثهم وأولهم أنا، احتاج إلى تدريب طويل مني كي يطيل النظر لي في أثناء كلامي وبالنسبة لالتفاته للأشياء وتركيزه في أداء ما يبرع فيه ومكافأته عليه هو أوَّل خطوات التأهيل وأهمها وأكبرها.. والذي جعله متحفزًا بالتدريج لتطوير نفسه مرة بعد مرة.. وأكثر ما كان يبرع فيه بلال في عمر الخامسة.. هو الركض بسرعة فائقة من فرط حركته .. ورغم تكرار حركاته بصورة نمطية كالدوران المستمر في مكانه أو الاهتزاز المتكرر و رفرفة يديه والمشي على أطراف قدميه بلا سبب.. إلا أنه قد بدأ يستجيب عندما بدأ توجيه انتباهه وحركته المفرطة إلى الركض، وبذلك قلَّت تدريجيًّا حركاته العشوائية ونفوره عند اقتراب أحد منه لمداعبته أو ملامسته حتى ولو كنا نحن والديه، وحين وضع تركيزه بالركض نحو أشيائه ولعبه التي يتعلق بها. ثم اعتاد الأمر بعد ذلك كلما وجد فيه حافزًا أو مكافأة؛ مما ساعده أن يستجيب لأولى خطوات التطوير الذاتي وهي أهم إنجاز يحققه التأهيل بعدما اكتسب بالتعلُّم مهارة الإدراك، ومن ثم أيضًا كان تدريبه على استخدام مفردات اللغة مكثفًا، وتعليمه التعبير اللفظي والأسماء السهلة بالترديد والتقليد.. كاسمه واسمي واسم أبيه ومعلمته.. ومحاولة تدريبه على عدم نطق الكلمات والجمل مقلوبة أو غير مرتبة أو غير مفهومة أو معكوسة

الضمائر، حتى جاء ذلك اليوم المنتظَر بعد عناء كبير يوم نطق "أمي" لأول مرة دون ترديد أو تقليد ودون مساعدة.. في هذا اليوم الذي كنت أقف فيه بالمطبخ وهو يلعب أمامي وكان يريد أن يقول شيئًا يفكر فيه يحاول نطقه وحده.. ثم نظر إليَّ بتمعن بعد همهمات متكررة، ونطقَ فجأة وهو ينظر إليَّ:

- "أمي.. جبن شطيرة".

نظرتُ إليه في ذهول سيطر عليه ارتجاف قلبي الذي فاض في تلك اللحظة الفريدة فرحًا امتزج بالامتنان لله، وقد أغشت روحي سحابة السعادة التي أمطرت حمدًا وشكرًا عميقًا حين نظر إليَّ لأول مرة محدقًا بنظرةٍ طويلة يراقب فيها ردة فعلي العميقة وابتسامتي الباكية، لأول مرة أسمعها واضحة بصوته الخالص بتلقائية ومن بين شفتيه.. لأول مرة بعد ستة أعوام من وحشة الصمت أشعر أنني أمٌّ..

انهمرت دموعي علي وجنتي بغزارة واحتضنته بقوة من فرط اشتياقي إليه، كأنه كان مسافرًا في عالم آخر، واليوم عاد إلى حضني، إلى وطنه الذي كان مظلمًا موحشًا في غيابه، لم يرفض حضني الطويل له هذه المرة.. لقد عرفني.. واعتادني.. وأحبني.. في هذه اللحظة كأنني ولدتُه من جديد.. ودبت معه الحياة بروحي في كلمة نطقها ولدي الوحيد أحيتني وانتشلتني من الحزن الطويل .. ولم تكن فرحة حسام تقلُّ عن فرحتي عندما أخبرته بالحدث.. بل ازداد يقينه أن "بلالًا" في طريقه إلى الشفاء.. لأنه لم يتأخر كثيرًا عن ركب

من سبقوه من هم في عمره.. وأن مستوى ذكائه الأعلى من مستوياتهم سوف يضعه في مرتبة فوقهم عندما يلحقهم في الدراسة المدمجة .. يومها احتضنني حسام بكل حبٍّ وامتنان وقال لي:

- لا أعلم ماذا كنت سأفعل من دونك في هذا الطريق المرهق الطويل.. إنك شمس هذا الدرب التي لولاها لفقدتُ الأمل.

كم أسعدني تقدير حسام، وفرحه في هذا اليوم كأنه كان يشعر أنني أحتاج لهذا الدعم كي أقوى على الاستمرار.. لقد أحيانا بلال من جديد بعد سنوات الخوف و الحزن والتبدُّل بين غصون الليل وأعتاب النهار، بين الأمل اليائس في درب شاق طويل .. فكانت أول جملة وأول كلمة "أمي" في منتصف الدرب الطويل هي ذلك النور الذي أضاء به عتمته وهزم الخوف والظلام.

وأصبح بلال يستجيب بشكل ملحوظ بعد أن اعتاد الكلام، ولو أن كلامه كان قليلًا وغير مرتَّب أو مفهوم في بادئ الأمر، ولكن يكفي أنه أصبح يجيد التعبير والتمييز .. حتى أصبح جاهزًا لخوض مراحل الدراسة بالدمج عند السابعة .. وفي أول يوم بالدراسة تركته عند باب المدرسة، ورأيت نظرته الحزينة لي وهو يُودِّعني، حينها أيقنتُ تمامًا أنه أصبح يتأثر لفقداني.. لقد استعدتُ ولدي قرة عيني إلى الحياة الطبيعية بعض الشيء، ولكنه كان أفضل من الفقد في اللاشيء.. وقتها فقط قررت أن يكون له أخ. كما كان يلّح عليَّ حسام وأصبحت أتمنى ذلك بعد أن اطمأننت على بلال.

وفي حديث مع أحمد بعد متابعته الأخيرة قبل أن أخبره بقراري في مؤاخاة بلال، وبالطبع سألته إن كان ذلك سيؤثر فيه بشكل إيجابي أو سلبي؟ فأخبرني بكل جدية أن الأمر أصبح ضروريًّا ليتفاعل بلال مع إخوته بدلًا من رفاقه في المركز أو المدرسة.. وأنه الآن يجب أن يكون بين أقرانه الطبيعيين؛ لأنه أصبح مكتسبًا لكل مهارات التواصل بشكل ممتاز، وقادرًا على أن يخوض الدراسة و التعامل مع محيطه بسلوك طبيعي إلى حدٍّ كبير ..ويومها طلب أحمد أن يجري المقياس الدوري لي ولحسام معًا وهو المقياس المتبع لطيف التوحُّد من سن ٦ إلى ١٨ عامًا.

والعلامات من ٠ إلى ٤ (أبدًا - نادرًا - أحيانًا - كثيرًا - كثيرًا جدًّا)، (كانت تحدد نتيجة المقياس):

هل ينزعج من الملابس وما عليها من ملصقات؟

- أحيانًا.

هل يبحث عن التفاعل مع الغير؟

- أحيانًا.

هل يبدي القليل من العواطف والانفعال؟

- نادرًا.

هل يتبع التعليمات التي يفهمها؟

- كثيرًا ..فقط التي يفهمها.

هل يتجادل أو يتشاجر؟

- كثيرًا أيضًا.. وهنا قطع حسام إجابتي قائلًا لأحمد:

- لا يتجادل.. وإنما يخبرنا بما يريد.. وبما يراه ويفكر به.. وقد يقصُّ قصة علينا ونحن نصدقها ويتشاجر فقط إذا حرَّك أحدنا شيئًا يخصُّه من مكانه، ويكون ردُّ فعله عنيفًا غير متوقَّع.

ردَّ أحمد:

- حسنا هذا دليل على تمرنه على التخيل الخصب بنجاح وتخزينه الجيد للصور والمعلومات بذاكرته، فلنكمل الأسئلة:

- هل يشارك الأنشطة مع الآخرين؟

- نعم كثيرًا، ولكن الأنشطة التي يحبها هو.. كالركض والموسيقى وسباق السيارات.

ينظر إلى الآخرين عندما يتحدث إليهم؟

- كان لا يكترث بالنظر، ثم كان لا ينظر إلا نظرة خاطفة، وبدأ ينظر لي نظرات قصيرة، ثم بدأ يطيل لي النظر، ويطيل النظر للأشياء والصور التي يحبها والتلفاز.. أما عن الآخرين.. فإن كان كل غريب يتجنبه .. هو فقط يحتاج إلى وقت لاعتياد الشخص أو الشيء.

يندمج في المهام التي تتطلب جهدًا مستمرًّا؟

- نعم عندما يكون هناك حافز يحبه أو مكافأة.. غير ذلك فنادرًا.

يتجنب النظر إلى من يتحدث إليهم؟

- كثيرًا، ولكن كما قلت لك، أحمد، إنه يحتاج إلى الراحة إلى الشخص ووقتٍ للاعتياد.

- يلعب بألعابه بطريقة مناسبة؟

- نعم كثيرًا.

- له رد فعل قوي على تغيير الروتين؟

-نعم، كثيرًا جدًّا، وربما هذه هي المشكلة التي لم نتخلص منها حتى الآن، فصراخه وعنفه غير محدود إذا كسر له أحد روتينه.

- يفهم وجهة نظر الآخرين؟

- أخبرتني مُدرِّسته أنه يستجيب لفهم الدروس، ولكنه قليلًا ما يشارك في التحدث أو الإجابات عن الأسئلة، ولكن علاماته الشهرية مميزة.. فهو يكتب أكثر مما يتكلم.

- يتعلم مهامَّ بسيطة ينساها بسرعة؟

- لا ينسى بسرعة.. لديه ذاكرة لأدق التفاصيل. وعندما يتحدث، يتحدث عن تلك التفاصيل.

- يتحدث بلغة من يصغره عمرًا؟

- لا إن لغته تتناسب مع حدود إدراكه ويستطيع الآن استخدامها بشكل جيد، ولكنه قليل الكلام، لا يتحدث إلا للضرورة.

يدخل في مشكلات مع الكبار؟

- لا بل يبتعد عنهم.

- يتكلم كلامًا مبهمًا غير واضح وعشوائي؟

- في وقت ثورته وغضبه .. يكرر الكلمات مرارًا .. يصدر همهمات مع فرط حركته، ولكن بعدما يهدأ يعود إلى طبيعته.

- يردد عبارات أو كلمات لا علاقة لها بسياق الحديث؟

- أحيانًا.

- يُظهِر هوسًا بالتفاصيل؟

- كثيرًا جدًّا.

- يتحدث حديثًا متواصلًا غير متقطع؟

- نعم، ولكن قليلًا ما يتحدث.

- يصر على تأدية الأفعال بالطريقة نفسها كل مرة؟

- أحيانًا بعد أن كان دائمًا.. ولكنه يعاود كل مرة تكرار الفعل نفسه على فترات.

- ينفر من اللمس؟

- منا نحن لا. من الغريب، نعم، ولكن ليس بالصورة التي كان عليها من قبل.

يتحسس من الروائح؟

- لا.

يتذوق الطعام؟

- نعم، أصبح يحب الجبن المدخن ويطلبه تحديدًا.

- يتشتت فجأة؟

- نعم، كثيرًا.

يفهم الإشارات والملامح؟

- أحيانًا.

يرتكب أخطاء كثيرة بواجبه الدراسي؟

- في بعض المواد، ولكن في الرياضيات والتاريخ ينتهي منهما بدقة فائقة..

- ينتبه إلى معلمه في الدرس؟

- نعم، أحيانًا.

- يتحدث كثيرًا عن أشياء غير مهمة؟

- كثيرًا.

- يبدي اهتمامًا بأفكار الآخرين؟

- أفكاره هو لها الأولوية عنده، فنعتبر الإجابة أحيانًا.

- يبدي اهتمامًا بشعور الآخرين؟

- أحيانًا.. إذا شعر بهم.. فإن رآني أبكي تتحول ملامحه الجامدة على وجهه إلى الحزن، فأفهم أنه تأثر لبكائي، ولكنه لا يفعل ذلك دائمًا مع الآخرين.

- لا يُكمل واجباته المنزلية؟

- نعم سريع الملل من الأشياء التي يكرهها، ولا يمل أبدًا من تكرار الأشياء التي يحبها.

- يرفرف بكفيه عند الانفعال؟

- أحيانًا بعد أن كان كثيرًا.

- يتحدث عن أشياء يخلقها في خياله؟

- كثيرًا جدًّا.. وربما هذا ما جَدَّ عليه في الفترة الأخيرة.. ربما لعشقه الصور الملونة والأفلام الكرتونية القصيرة؛ لأنها تحوي قصصًا أسطورية يحبها.

- يبتسم بشكل لائق؟

- لا يبتسم كثيرًا، ولكنه يبتسم بشكل لائق إذا فرح بشيء ما.

- يضع الأشياء في صفٍّ واحد؟

- كثيرًا.

يمشي على أطراف أصابعه؟

-نعم، عند انفعاله أو مع الموسيقى.

- يضحك ويبكي بشكل مناسب للحدث؟

- أحيانًا.

- يقاطع الآخرين أو يتطفل عليهم؟

- إذا لفت انتباهه شيء يجذبه معهم.

يبالغ في ردة الفعل وقت الشعور بالخطر؟

- بل يقلُّ شعوره بالخطر، وربما هذه النقطة تحديدًا هي التي لم نتجاوزها بعد.

- أغلب الأوقات يظل وحيدًا؟

- منهمكًا في عالمه؟

- نعم.

يقوم ببرم أو تدوير الأشياء أو الدوران حولها.

- نعم، أحيانًا.

- يعكس الضمائر في الحديث؟

- أحيانًا وأحيانًا لا يستخدمها، ومع الدروس بدأ يستخدمها بشكل صحيح.

- يرسم ويلون؟

-نعم، كثيرًا.

يتحرك كثيرًا حركات عشوائية أو منظمة؟

- نعم، كثيرًا.

- يفهم ما يقال له ويبدأ في تقليده؟

- نعم، كثيرًا.

حسنًا، رشا، حسام لقد انتهى الاختبار.. قال وهو يقوم بحساب النتيجة.... ثم انفرجت أسارير "أحمد" انفراجة كبيرة وهو يخبرنا بحماسة:

- والآن أهلًا بالطيف عائدًا من عالم الانطواء.. ولكن...

بعد أن فاضت أعيننا فرحًا وحمدًا من نتيجة الاختبار، ومعدل الاستجابة، والتحسن إلى حدٍّ كبير، وكان أهم شيء هو نفي وجود شبح الإعاقة الذهنية. استطرد أحمد في كلامه عن التعليمات الجديدة:

- أولًا .. يجب أن يكون له إخوة، وهذا حقُّه وحقِّكم أيضًا، ولكن كل ما نخشاه هو عدم قدره علي التحكم في درجة عنفه وقت الغضب.. أو الانتكاس إذا فَقَدَ القدرة على التواصل وقت الأزمات أوالتشتت و فقد القدرة علي التعبير في مواقف تفوق احتماله ..هذه هي مشكلتنا القائمة معه، وسيظل على برنامج التعديل السلوكي حتى يستجيب إلى تعديل انفعالاته بشكل كبير.

ثانيًا.. يجب ألَّا يوضح تحت ضغط مفاجئ أو تعنيف مبالَغ على الأخطاء التي يرتكبها بقصد أو بدون قصد لأن ذلك سيولِّد عنده الرغبة في رد فعل عدواني سريع و قوب، بالإضافة إلى أن درجة شعوره بالخطر لم تعد إلى الحد الطبيعي بعد، فربما يعرضه ذلك لأن يؤذي نفسه أو الآخرين عن غير قصد.. فيجب أن يؤخذ في اعتباركما عدم تعنيفه بشكل مبالغ فيه.. لأنه لن يستجيب إلا إلى رغباته.. ولتكن المساعدة على شرح الخطأ وفهمه هي أفضل طريقة يقابلها تحفيز على إصلاح الخطأ فيتحول بداخله إلى رغبة إيجابية.

ثالثًا.. يبدأ بالتدريبات الرياضية بالنادي في الرياضة التي يبرع فيها.. لأن أداءه للرياضة مبكرًا وبشكل منتظم ومحفز هو الشيء الضروري لبقائه

منشغلًا بجانب إيجابي مستمر بحياته يخرج فيه فرط نشاطه وطاقته.. فيساعده ذلك على التطوير من خلال روتين يتبعه ويناسب طبيعته .. كل ذلك محاولة لتجنُّب السلبيات والحد من وجودها واستمرارها قدر المستطاع، وذلك بالتركيز المستمرعلى الإيجابيات.

أما دون ذلك فلن يتبقى من أثر للطيف إلا بعض الإنطواء و الخيال وعدم التحكم القياسي للانفعال، وهذا يسهل تقبُّله والتعامل معه.. واعتياده.

شكرنا أحمد كثيرًا على تعبه مع بلال ومعنا وكل الفريق المتابع لبلال ورفاقه في المركز، وقد تحدَّد لنا برنامج آخر بمستوى آخر يتناسب مع التغيُّر الجديد لاستقبال بلال جديد.

وحققت رغبة حسام ورغبتي في مؤاخاة بلال وحملت بعمر.. فكان قدومه هو الفرحة الغامرة التي أعادت استقرارنا وسعادتنا بعد طول غياب.

كل شيء عاد إلى مجراه، ولكن الذي لم يعد هو حسام.. لقد كان اهتمامه بعمله وانشغاله به عنا قد تملَّكه، فما عُدتُ أراه إلا كل فترة بين سفرٍ وسفرٍ.. كان يقضي معنا الوقت في تدليل الولدين وخاصة عمر.. لأنه كان يخشى كثيرًا أن يصبح مثل أخيه فنبدأ المشقة من بدايتها.. ولكنه رغم حبه لبلال فقد كان يتحسس أحيانًا من ردة فعله النافرة عند لمسه والذي خضع لتجنبها طويلًا في برنامج تأهيله.. حتى قَلَّت بشكل ملحوظ معي ولكنها لم تقل مع الآخرين . ربما لأنه لم يكن قريبًا من بلال كقربي أنا منه.. فكان يستعيض

ذلك في عمر واهتمامه بعمر وتدليل عمر المبالغ فيه حتى أصبح تعلُّق عمر به أكبر بكثير من تعلق بلال به.. ولكني مع الوقت والجهد حاولت الموازنة بين بلال وعمر، وبذلت جهدًا شاقًّا فيما بعد الحادث أن يكون بلال وعمر ليسا فقط أخوين بل صديقين قريبين رغم الفارق بينهما.. وأما عن الحادث.. فإني لا أحب أن أتذكره.. ذلك الحادث الذي حاول بلال في ردة فعل عنيفة إغراق أخيه في المسبح دون اكتراث كما كان يغطس ألعابه تحت الماء.. وكان في الثامنة وعمر لم يتجاوز العامين.. وبأعجوبة أنقذ حسام عمرَ من موت محقَّق عندما قفز من نافذة المكتب.. ليلتقطه من المسبح، وكان يصارع الغرق ببكاء متقطع مكتوم.. وقد أنقذته العناية الإلهية بعد بقائنا بالمشفى به بضعة أيام حتى استقرت حالته دون ضرر.. واستعدنا بعدها عمر طبيعيًّا، ولكني كنت أتجنب تمامًا أن أتركهما وحدهما فيما بعد.. ولكن بلالًا كان لا يزال عنيفًا وقت غضبه غير مبالٍ بالخطر.. وقد خضع لجلسات سلوكية ونفسية بعد هذا الحادث في برنامجٍ آخر أُعدَّ له بعدما أخبرت أحمد.. كي يستطيع السيطرة على انفعالاته قبل الخطر وفي أثنائه.

منذ هذا الحادث أصبحت عنايتي بهما هي الشاغلة لكل وقتي وجهدي.. فلم أنتبه إلى أنني أضعتُ حسامًا، وألقيت به في هوة الفراغ العميق الذي ما كان يجب أن أتسبب فيه ثم أعود لألومه فيما بعد إن شغلته أخرى عني. لم يكن لديَّ وقت لأفكر عما إذا كان حسام سيفكر في غيري أم لا.. لأنني كنتُ على يقين من فرط ثقتي به أنه لن يفعل.. وخدعت نفسي بأنه ليس لديه

وقت إلا لعمله واجتماعاته وسفره المتلاحق، ثم العودة بين أحضان ولديه، وروتين حياتنا الذي اعتدته دون تغيير ودون شعور بأن شبح هذا الروتين قد خلق بيننا فجوة اتسعت رغمًا عنا، ربما كانت غير قابلة للإصلاح.

مرت الأيام تسحب بعضها البعض في شريط الحياة، ولأنها متشابهة فلم نعد نعدُّها، ولم نعد نميز لها لونًا إلا إذا تحقق إنجاز جديد يضفي لونًا عليها، وكان ذلك في نجاح أحد الولدين.. ومن ثم في نجاح بلال تحديدًا وصعوده إلى عام دراسي جديد، وبالطبع نجاحه في رياضته التي كانت محفِّزه الأساسي، ومُخرج طاقته المفرطة، وهي الركض، فكان يشارك في مسابقات العدْو في النادي، وكان تحت إشراف مدربه الذي كان يراهن على أن البطولة ستؤول إلى النادي على يديه.. لقد كان بلال عداء بارعًا، متوقَّعا له أن يحقق رقمًا قياسيًّا في الأولمبياد، كما كان دومًا يقول الكابتن عبد الرحمن مدربه.. الذي أصبح فيما بعد صديقه الوحيد.

وبعد أن بدأ بلال ينتقل من مرحلة طفولته إلى بداية شبابه كمراهق وقد أخبرني أحمد أن هذه الفترة بالذات فترة تقلبات مزاجية حادة، ربما يتعرض على أثرها إلى نوبات متكررة من التقلبات، وعودة مباغتة أحيانًا لما قد تخطيناه في علاجه من صعوبات، وطلب مني ومن حسام الذي كان قد ابتعد إلى حد كبير عنه، طلب منا أن نحاول أن نتجاوز هذه المرحلة الصعبة بأن نصادقه ونتفاعل مع كل ما يحلم به حتى لو كانت أحلامه غير معقولة ولا منطقية..

وألَّا نحاول أن نسخف منها ولا نسخر منه ولا حتى على سبيل الدعابة التي لا يفهمها في أغلب الأحيان، وفي المقابل يجب أن نزيد من فترات تدريبه الرياضي حتى يكون دافعه لشغل الوقت بشيء إيجابي يحرز فيه نجاحًا مميزًا. كانت تلك الفترة التي تخشاها أي أم في التعامل مع ابنها المراهق وهو طبيعي، فما بالنا وأنا أم لديها طفل توحُّدي مراهق شديد الفرط في كل الانفعالات.

وبينما كنت أتبع تعليمات أحمد وفريق متابعة بلال وبرنامجه في المستوى الجديد.. بدأت ألحظ تغيرات واضحة على حسام.. لم أعهدها فيه من قبل.. ولأول مرة يصيبني حدس المرأة تجاه زوجها بأن هناك شيئًا يثير شكوكي تجاهه.. ورغم بقائه طويلًا خارج البيت في سفره وشغله، وأن هذا الوضع قائم منذ قديم، وأنا أتقبَّله بلا خوفٍ، ولم يطرأ عليه تغيير، فإن التغيير بدأت ألحظه بقوة في لمعة عينيه واهتمامه الفائق بذاته في أوقات معينة عن سواها.. بعد أوقات اختلائه للقراءة التي بدأ يواظب عليها يوميًّا قبل النوم.. ومحادثاته الهاتفية الكثيرة في هذا التوقيت أيضًا كنت أرى ابتسامته الخافتة التي يحاول أن يداريها بتوجيهها إلى عمر وقت كان يداعبه.. أو إلى بلال وقت يحفزه أو يكافئه على إنجاز له، وكنت أشعر أنها ابتسامة سحر لا ترتسم إلا على شفتي عاشق، إني أعرفها جيدًا، وأفتقدها منذ وقت طويل.. بل إني أفتقدها منه دائمًا.. فلم يحدث أن ابتسم لي حسام ابتسامة عشق.. فنحن متفاهمان.. متحابان.. متكافئان .. ولكننا لم نكن يومًا عاشقين.

ثمة وهج جديد أشرق بالقلب الجليدي الذي دبت فيه الروح بين صفحات كتاب..

وأي كتاب يقرؤه يخطفه إلى هذه الحالة؟ بحثت عن الكتاب وأنا أرتِّب غرفته ووجدته رواية بعنوان "ما لا نملك عليه سلطانًا".. لكاتبة تدعى ندى.. ووجدت لها كتبًا أخرى جميعها في مكان خاص بغرفته.. مُرتصَّة بعناية فائقة كما يفعل بلال بأشيائه الخاصة، وفتحت تلك الرواية التي وجدت عليها إهداءها له.. بخطها. " إلى الحلم الذي سكن القلب ولم أعد أملك عليه سلطانًا "..

أيقنت أن هذه الفتاة تسللت إلى مملكتي لتسلبني جزءًا من روحي .. ولكني لن أسمح لها أن تتعدى حدود مملكتي ولو شبرًا واحدًا لتهدَّ الصَّرح الذي بنيته بعمري، وتحرمني مكانتي فيها، وتسلبني زوجي ووطني، لن أسمح لأحد أن يقترب ليسرقه مني دون عناء، من اليوم سأكون مقاتلة لأحمي مملكتي وحدي من الخطر.

قرأت روايتها.. كل كلمة بين السطور كانت إلى زوجي، كانت تخترق قلبي سهمًا مسمومًا.. كل وصف دقيق في ملامح زوجي التي حفظتها هي أكثر مني كان يصيبني بدوار، كأنني فقدتُ الوعي وأنازع الموت من شدة ما كنت لا أستطيع أن أصدق أن ما أقرؤه حقيقيًّا، وليس كابوسًا مخيفًا سأفيق منه على واقعي بأن حسام الذي أحفظه عن ظَهْر قلب ما زال لي.. لم أكن

لأصدق أن إهداءها له حقيقي.. ووجودها بقلبه حقيقي.. فهذا مكاني وحدي الذي ليس لي مكان سواه.. كيف احتلته هي ومقاليده معي أنا؟

كيف خنتَ العهد الغليظ يا حسام؟ وبعد كل هذا العمر والصبر والعشرة تقرر أن تقتلني بخنجر الخيانة .. وأنت ظهري الذي أستند إليه مطمئنة؟ وأنت من آمنتُ بك وأسلمت لك روحي لتسكن بين كفيك؟

ولكني وعدتُ نفسي في هذا اليوم ألَّا أتركك لها ولا لسواها أبدًا.. سأحارب حتى أقتلها على أبواب مملكتي التي لن يتحطم صرحها، ولن تحتلها عابثة في نزوة عابرة.. وسوف أقبرها على أبواب الحصن المنيع.. أو أن أموت.

وذهبتُ إلى المكتبة بعد أن قرأت اسمها على الرواية.. ذهبت لأراها.. وأسترد من بين براثنها قلب زوجي. وحدثتني بكل هدوء رغم الحزن البالغ الذي ألقي وشاحًا قاتمًا أطفأ وهج عينيها الأزرق العميق.. وكأنها كانت تستعد لهذه الحرب التي تعرف جيدًا في قرارة نفسها أنها ستخوضها، وأنها خاسرتها، ولكنها لم تكن تتحدث بضعف المتهم.. بل بقوة الصادق المتمسك بحلمه للنهاية، وهو يثق جيدًا أن القلب الآخر الذي يؤمن به أبدًا لن يخذله.

وتحدتني، وقالت إنها ستبتعد عنه، ولكن عليَّ أن أبعده هو عني بقوة أكبر من قوة القدر الذي جمعهما إن استطعت، بقوة تجعلني أستطيع أن أخدع نفسي وأصدق أنها لن يبقى لها مكان بقلبه حتى بعد الفراق.. أخبرتها أني

سأفعل وأن قوة بلال وعمر أكبر من قوتها، وأن مملكتي أقوى من العواصف العابرة.. وتركتُها ومضيت وأنا أترنح بين الألم والغضب.. وعزمت على مواجهة حسام بكل ما تبقى فيَّ من كبرياء مجروحة.

وبعد أن جمعت عقلي من شتاتٍ ولملمت حطام قلبي الحزين، وضمدت بكل عزيمتي جرحه الغائر مكان الطعنة الغادرة.. واجهتُه فلم ينكر، وطلب مني أن أرأف بحالها.. وهي في وضع بين الحياة والموت بعد حادث أليم تعرضت له بعد زيارتي لها.. ولم تهتز لي شعرة، وشعرت أن انتقام الله جاء أسرع من انتقامي.. ولكن مشهد انهيار حسام أمامي لا أنساه إلى اليوم.. انهار باكيًا كطفل تائه يبحث عن ملجأ يؤمِّنه.. وعندما احتضنته بقوة شعرت بشبقه إلى هذا الحضن.. وشعرت أني من دفعته إلى هذا التشتت بعدم اكتراثي بالفجوة التي كانت تتسع كل يوم في صمت قاسٍ مبرر بالتضحية من أجل أولادي.. وفي حقيقة الأمر أن الرجل الذي يكبر في منفى بعيدًا عن وطنه لا يستطع أن يعش وحيدًا حتى لا يموت.. فما كان منه إلا أن أرتاح في قلب امرأة أخرى، وقد وجد فيها وطنًا آخر يزهر فيه.

وفي لحظة انهياره قررت أن أستعيده بقلبي.. وعاهدته ألَّا أتركه وحيدًا مرة أخرى.. شرط أن ننسى تلك النزوة وكأنها لم تمر بحياتنا ولم تكن. واستجاب حسام فورًا.. وبذلت قصارى جهدي في رعايته فيما بعد، والتي اكتشفت أنها رعاية تفوق رعاية بلال وعمر، وقد أصبح لديَّ ثلاثة أطفال يستظلون بي.. وكنت لهم وطنهم الوحيد.

مرت السنوات والتحق بلال بالجامعة، رغم حصوله على مجموع كبير فقد اختار دراسة الشيء الذي يحبه وهو التاريخ.. لم نعترض أنا وحسام بل دفعناه إلى ما يحب بكل حماسة وتشجيع.. لم يزل بلال يفضل العزلة بين الكتب والموسيقى أو مع مدربه بالنادي وقت التمرين.. فرغم استعادة تواصله مع المحيطين إلى حد ما فإن أصدقاءه كانوا قلة مختارة. إنه كان يتجنب الاحتكاك بمن يستثير غضبه لما يترتب عليه من نتائج للعنف المفرط قد لا تكون حميدة.

أتذكر تلك الواقعة التي تشاجر فيها مع أحد الشباب من زملائه بالجامعة حاول أن يمازحه بأخذ كتاب من بين يديه بالمكتبة، فضربه بعنف لم يستطع الولد الخلاص من بين يديه، وقد أُصيب بجرح عميق تعدى فترة العلاج المسموحة مما دفعه إلى إقامة دعوى ضد بلال سوَّيناها بأعجوبة حتى لا يضيع مستقبله.. لم نود أن نخبر أحدًا من زملائه عن حالته واضطرابه أو الأسباب التي تدفعه لفرط العنف.. حتى لا يصير مَوصومًا بين زملائه، ونحن نعلم جيدًا كيف أن المجتمع هنا لا يتقبل المختلف بسهولة ولا المريض ولا ذوي الاحتياجات الخاصة، وكيف يتم تجنبهم ونبذهم بقصد أو عن دون قصد أو التقرب منهم عن افتعال او استغلال ضعفهم والمتاجرة بمرضهم .. بلال لم يكن من ذوي الإعاقة الذهنية، ولكنه كان من ذوي الطيف، وذوي الحاجة إلى الكثير من الرعاية والاهتمام والصبر في التواصل معه.

لقد أصبح من قريب صديقاً لحسام رغم الفجوة بينهما منذ قديم، لقد كان متعلقًا بي وبعمر أكثر من حسام الذي ابتعد فترة، ولكن بعد عودته بيننا حاول التقرب منا جميعًا، وحاولت معه أن تصبح مكانته عند بلال مساوية لمكانتي.. ولم أفكر في أن أرتكب ذلك الخطأ مرة أخرى في أن أكون أنا وحدي في كل المساحة.. على حساب حق والده ومساحته بحياته .. بالطبع كان مجهودًا رهيبًا كي يتقبل بلال وجود حسام بصفة مستمرة، يتقبل أحضانه وقبلاته.. يتقبل تشجيعه وتحفيزه، ويتقبل أيضًا عقابه غير العنيف.. ولكنه كان ما زال على نمطيته في أن يضعني أنا وأخاه ومدربه وطبيبه ومعلمته في مرتبة قبل حسام.. ولكن حسامًا تقبَّل الأمر، وكان على يقين أن بلالًا سيتقبله مثلهم في ذات يوم.

وكنت أساعد الأخوين على التقرب من بعضهما البعض بكل عزيمة وحب.. واستعدتُ مملكتي بعد أن أنقذتها من خطر محقَّق كان يهددها وكاد يدمرها على يدي فتاة تسللت إلى قلب زوجي، وقد قتلتُها على أبواب قلبه، وطردها هو من أجلي، وأوصدنا الأبواب لتبقى مملكتنا هادئة لا ينتزع صفاءها غريب، ولا يعبث بحدودها عابر سبيل.. لتبقى دومًا مفعمة بالحب الذي يعيننا على إكمال طريق الصعاب معًا.

حتى جاء اليوم الذي لم أتوقعه.. ولم أنتظره ولم أعمل له حساب.. يوم أصبحت الفتاة العابثة بعد كل هذا العمر نجمة لامعة.. طيف يمر في عيني

ولدي كلما اشترى لها كتابًا وقرأه وعاش فيه حلما بين سطوره.. ذلك اليوم الذي تفاجأت بكتابها في غرفته وأنا أرتِّبها.. وعشت لحظتها شعور الصدمة الأولى نفسه، وأنا أمسك بكتابها القديم الذي وجدته بغرفة زوجي.. ودون وعي مني فتحت صفحته الأولى أبحث عن الإهداء مكان الإهداء القديم.. فلم أجد إهداء. هل تكون هي الفتاة نفسها التي قتلتُها أنا وزوجي على حدود مملكتنا منذ سبعة أعوام مضت وما زالت على قيد الحياة؟ ما زالت تخترق القلوب الآمنة بسلاحها القوي من الكلمات؟ هل اخترقت قلب ولدي كما اخترقت قلب زوجي منذ يوم بعيد؟ هل بُعثت من جعبة النسيان لكي أحاربها وتحاربني على قلب ولدي من جديد؟

ولكن بلالًا غير حسام.. بلال لا يتنازل عن حلمه أبدًا .. إن كان يؤمن به حقيقة.. إن حربي معها في تلك المرة حرب خاسرة، وستنتصر هذه المرة عليَّ أقوى انتصار.

خشيت أن أواجه بلالًا.. نعم.. خِفتُ.. وخفتُ أيضًا أن أخبر حسامًا حتى لا تشتعل نيران قديمة أخمدناها معًا منذ وقت سحيق.. فتلتهمنا جميعًا، وتحطم صرحنا الكبير .. وفكرتُ جيدًا هل أعاود الاتصال بها لأطلب منها الابتعاد عن ولدي؟ ولكن كيف؟ لقد أصبحت نجمة معروفة وليس من المنطقي أن يكون النجم منشغلًا بكل معجبيه. وإن كان ولدي أحد معجبيها كيف أطلب منها هي أن تبتعد عنه؟ هي لم تخطّ له إهداء خاصًّا ولم تكتب عنه

رواية.. أدركتُ أنه ليس لديَّ أسلحة لأحاربها بها.. ولا أستطيع أن أمنع ولدي عنها.. في هذا اليوم تذكرت كلمتها..

"عليك أن تجمعي قوة أكبر من المشيئة لتمنعي القدر".. وأنا لا أستطيع أن أحارب القدر.. لا أحد يستطيع أن ينتصر على مشيئته.

مرت أيام وأشهر وأنا أتابع شغف بلال بها أمام ناظري.. وجَمْعه لكتبها في مكان خاص بغرفته بشوقٍ وشغف كبيرين.. وصورتها التي كانت على حاسوبه. كان ينهش الخوف قلبي.. والذي كنت أزحزحه من وساوسي مبررة بأنها لا تعرفه.. إنها الآن امرأة ناضجة ربما تزوجت ولديها أولاد وحياة، ولا تكترث بمن يعجب بها ومن لا.. ولكن في حقيقة الأمر لم أستطع خداع نفسي تلك المرة.. فهي لا تهمني قدر ما يهمني ولدي.. الذي تعلَّق بها كتعلقه بأشيائه التي لا تتغير مهما يكبر عليها. وأصبحت ندى الآن من ضمن هذه الأشياء، بل كان يؤلمني أن أعترف أنها أصبحت أهم هذه الأشياء، وعلى رأسها.

هل أتحدث معه أم أتركه في عالمه؟ ففي كل الأحوال هي نجمة بعيدة عنه لن يلتقيها أبدًا.. وهذا ما بنيتُ عليه أملي في أن تظل بعيدة عنه وعنا حتى وإن ظلت تسكن أحلامه دائمًا.

فقررت ألَّا أتحدث في الأمر حتى لا أشعل النيران بمملكتي من جديد. حصرت النيران بين أضلعي كي أحتملها وحدي وأفتدي ولدي كما افتديت زوجي من قبل.

تخرج بلال في الجامعة.. وقد أخبره أبوه يوم تخرجه أنه أصبح الآن موسوعة تاريخية يستطيع أن يعود إليها كل راغب علم فخور به.. لقد كانت سعادتنا في ذلك اليوم سعادة طيَّبت كل جروح الماضي البعيد ومشقته.. وقد تم قبوله لكفاءته للعمل بمكتبة الإسكندرية، أكبر صرح تاريخي في بلدنا.. فقمة نشوته كانت تلك الأوقات التي يقضيها في القراءة عن التاريخ القديم.. وكتابة الأبحاث عن العصور الهيلنستية والفرعونية، وما تخبئه من أسرار وأساطير. بالإضافة إلى نشوته وشغفه لقراءة كُتب نجمته البعيدة.

وفي يوم من الأيام.. سمعت حوارًا دائرًا بين بلال وأخيه عمر.. أثارني لدرجة لم أستطع السيطرة على زمام غضبي، ويومها ولأول مرة نهرت "بلالًا" دون أن أشعر.. كأنني أنتقم من ضعفي ومن خوفي من شبح الماضي الذي بدأ يطاردني من جديد.

– لقد استبعدوا ندى من الجائزة هذا العام بسبب موقفها من التطبيع في روايتها الأخيرة عن الأرض المقدسة.

قال عمر لبلال.

– نعم عرفت.

رد بلال بتجهُّم على أخيه.

– أين حرية الرأي إذًا وحرية الإبداع التي يتحدثون عنها؟

– أغبياء.. كل ما يبحثون عنه هو مجدهم الشخصي. فيحاولون تشويه الحقائق والتاريخ وتزييفهما.

– ولكن ندى أوضحت حقائق تاريخية بقوة في روايتها عن بني إسرائيل الحقيقيين والمزيفين منهم الآن الذين يدَّعون ملكية الأرض بالتاريخ وبالتوراة بهتانًا وزورًا.

– هذه الأرض كانت للكنعانيين، أقدم من سكنوا الأرض المقدسة، ومعظمهم كانوا عربًا مهاجرين من شبه الجزيرة في الأصل، ثم استمرت سلالتهم من أبناء النبي إبراهيم بعد هجرته إليها من بابل، وهم إسحاق ويعقوب ويوسف وعشيرتهم، من كانوا بني إسرائيل الأولين الذين انتقلوا للعيش بمصر بعدما بُعث إليهم أخوهم يوسف عندما كان عزيزًا على مصر، وكانوا على دين أبيهم إبراهيم .. ثم أصبحوا فيما بعد التوراتيين أو أهل موسى بعدما أخرجهم من مصر ليعود بهم إلى فلسطين وقد حرَّرهم من بطش فرعون وجنوده.. وقد كُتب عليهم التيه عندما رفضوا دخول الأرض المقدسة مع نبيهم بعد الأمر الإلهي الذي عصوه.. وقالوا: إن فيها قومًا جبارين ..وقالوا له: اذهب أنت وربك وحارباهُم .. فكيف لصهاينة شُردوا خارج الأرض بعد عصيانهم الأمر الإلهي أن يطالبوا بالأرض ويدخلوها وليس لهم حق فيها؟

– ولكن التيه كان أربعين سنة فقط كما ذُكر ..

- هم من رفضوا دخولها، ومن ثم تشتتوا في كل بقاع الأرض، واستعمروا أماكن بعيدة عن الأرض المقدسة.. بإرادتهم.. وقت أن كان عليهم دخولها بالأمر الإلهي ليستقروا فيها ويعمروها، ومن ثم كانوا يتيهون حتى عن رسالة نبيهم الذي عندما غاب ليكلم الله، وعاد اليهم بألواح التشريع وجدهم انساقوا وراء السامري ليعبدوا عجلًا، له خوار، وحتى من بعد نبيهم موسي الذي أدركه الموت في أرض التيه، ولم يدخل بهم القدس.. كانوا يقتلون أنبيائهم فيما بينهم من بعده من أجل التحايل علي أوامر الله والتزوير التاريخي للتشريع الإلهي المقدس وللحقائق ويكتبون ما تمليه عليهم أهواؤهم ليبقى سلطانهم الروحاني على قومهم قائمًا بالزيف، ولم تكن تلك المرة الأولى التي تركوا فيها الأرض التي دخلوها أسرى و عبيدا ، لقد تمَّت إبادتهم جميعًا منها فيما بعد، إنهم كانوا يتآمرون ويزعمون كذبًا أن الهيكل المقدس الذي بناه نبي الله سليمان ما زال موجودًا رغم أنهم يعلمون تاريخيًّا أنه قد تمَّ تدميره نهائيًّا في عهدين مختلفين من الحروب، حيث أبادهم الآشوريون وملكهم سرجيون الثاني، ثم بعد ذلك البابليون وملكهم نبوخذ نصر الذي دمَّر القدس وأحرقها وأبادهم فيها، وسبى الآخرين، وساقهم إلى بابل، ونسف الهيكل المقدس بأكمله. وكان هذا التدمير الأول للهيكل السليماني، ثم كان التدمير الثاني على يد الرومان، حيث أبادهم الإمبراطور طيطس، وتبعه أوريانوس الذي بنى معبدًا وثنيًّا مكان معبد الهيكل الذي لم يتبقَّ منه حجر سليم .. والآن يدَّعون أحقيتهم في الأرض دينيًّا وتاريخيًّا

بالتدليس بهتانًا وزورًا.. وهذا ما أشارت ندى إليه في روايتها.. إن بني إسرائيل ليسوا هم بني صهيون الزائفين المدّعين.. مغتصبي الأرض وقاتلي الأبرياء.

- لا يجب أحد الخوض في هذا الأمر.

- لأنهم جميعًا متواطئون من أجل مصالحهم وضمان بقائهم خوفًا من بطش القوى العظمى التي تحكمهم بالمال والقوة؛ أو لأنهم لا يعرفون حقائق التاريخ التي تم طمسها عمدًا وتزويرها إثمًا، ولحقائق الأديان الصحيحة والأرض المقدسة.

- ولكن ندى ستواجه حربًا شعواء معهم، كان يجب أن تحسب لهذه الحرب قبل أن تُخرج روايتها.

- ندى تنتصر في أي حرب إني أثق بها.

- عندما يتعلق الأمر بمن هم أكبر منها لا أظنها ستنتصر عليهم يا بلال.

- بل ستنتصر.. لأنها حقيقية وهم مزيفون.

- لن أستطيع أن أنتصر عليك أنا الآن وأنت تدافع عن ندى بهذه القوة يا بلبلي.

قال عمر مبتسمًا مداعبًا لأخيه.

- ندى قوية.. أحبها لقوتها وصِدقها.

- وجمال عينيها يا أخي؟ زرقاوان كالبحر العميق.

رد عمر متغزلًا.

- أنا أحبها لجمال كلماتها، وليس لجمال عينيها.

- وأنا أحبها لجمال عينيها.

كان عمر يداعبه.. ولكن النظرة الواجمة التي نظرها بلال لأخيه بعد أن قال له هذه الكلمة، وكأنه يغار بعدما ظننت أنه لا يفهم ما يعنيه أخوه كانت كافية لقتلي.

حينها ردَّ عليه وقد أيقن عمر أنه يجب عليه التوقف قبل هبوب العاصفة قائلًا:

- لا أحد في هذا العالم يحب ندى مثلما أحبُّها.

حينها لم أتمالك نفسي وأنا أنزف من قوة الطعنة، فولدي الذي أفنيت عمري لكي أستعيده من عالمه المعزول يغرس بقلبي الخنجر المسموم دون أن يقصد ودون أن يدري.. ودخلت الغرفة عليهما ونظرت له بحنق طويل نظرة لم يفهمها، ولكن عمر قد فهمها.. فرد قبل أن أوجِّه كلماتي الغاضبة لبلال حتى يمنع عاصفة الغضب الوشيك:

- كنت وبلال نمزح ونحن نناقش كتابًا.

قالها عمر الذي رأى شَرَرَ الثورة الوشيكة في عينيَّ، لكنه لم يفلح أن يمنع انفعالي على بلال لأول مرة بحياتي.. حينها عنَّفته قائلة بصوت كالزلزال:

- هذه المرأة تكتب للجميع.. لا تعرفك ولن يفيدها حبُّك هذا، فهي يحبها الكثيرون.. لا أريد أن أسمعك تتحدث عنها بهذه الطريقة مرة أخرى.

كان بلال ينظر إليّ نظرة دهشة يعتليها الوجوم.. فهو لم يصدق أن صوتي لأول مرة يعلو عليه.

ثم تكلم عمر محاولًا تهدئتي:

- بلال لم يقصد شيئًا يا أمي.. إنه يتحدث عن كتابها الذي كنا نقرؤه.

لم ألتفت إلى عمر، وكانت ما زالت نظرتي الثاقبة عالقة ببلال الصامت الواجم غير المستوعب لحالتي ولتصرفي.. وصرخت فيه:

- لا أريد أن أسمع اسم هذه المرأة في هذا البيت أبدًا.

رد بلال بتوجُّس وهدوء يسبق العاصفة:

- ماذا تقصدين يا أمي؟

- أقصد ما سمعت.. وإلا اضطررت للتخلص من كل كتبها الخرقاء بإحراقها جميعًا.

انتفض بلال من فراشه بعنف، وتراجَع عمر إلى الوراء خوفًا، وتراجعتُ حين توقَّف أمام مكتبته التي تضم كتبها، كأنه مقاتل تسلَّح من أجل الدفاع

عن حصنه.. حينها اجتاحني الخوف الذي كاد يقتلع قلبي من مرقده، ولكني كنت لا أستطيع أن أحجِّم انفعالي وقتَ أفلت زمامه، وكان عمر يرقب المشهد في خوف هو الآخر.. وبدأ بلال يقبض يديه بحركات عنيفة متكررة.. وبدأ جسده يهتز وهو يرطمه على باب الخزانة بقوة وتكرار عنيف.. ثم اخترقتني نظرته كالطلقة استقرت بروحي والتي لا أنساها في تلك اللحظة العصيبة التي فجرت غضبًا هائلًا بأعماقي حين قال لي بتحدٍّ كبير:

- إذًا أحرقيني قبل أن تحرقيها.

هزمتني ندى، وأعلنت انتصارها على كبريائي رغم غيابها، في لحظة لم أستطع محاربة ولدي، ولا محاربة القدر الذي أسكنها بقلبه.

تراجعتُ متقهقرة ومقهورة للوراء كي أحجب دموعي المنهمرة كالسيل في لحظة الانكسار.. بينما كان عمر يحاول تهدئة أخيه قبل أن يعصف به غضبه الثائر بداخله، فيحطم كل شيء.. كفاه أن حطَّم قلبي في تلك اللحظة التي أطاحت بعمري كله هباء منثورًا.. سقطتُ أمامهما على الأرض مغشيًّا عليَّ، وربما كان هذا السقوط ما أنهى لحظة الغضب الجارف وتبعاتها والتي لم نكن لنحمد عُقباها.

أفقتُ بعدها، ووجدت عمر، وكان قد اتصل بأبيه الذي هُرع على الفور ومعه الطبيب.. أشار علينا بضرورة السفر لتغيير جو التوتر، وأن ما أمُرُّ به هو حالة من الضغط النفسي الشديد، ويجب أن أبتعد عن أي مسببات للتوتر

فترة حتى أستعيد صفاء ذهني.. أي صفاء ذهن وصفاء قلب تحدثت عنه أيها الطبيب وقد كانت مملكتي على محك الضياع في مهب ذكرى أَبَتْ أن تذهب مع النسيان.. والزمان.. أبت أن تموت.

ورغم قلقه فلم يحاول أن يقول لي كلمة.. هل لأنني هاجمت عالمه الخاص أسوأ هجوم.. أم لأنه لم يتوقع مني أنا هذا الهجوم؟ لقد أدركت مؤخرًا أني في لحظة انفعال غير محسوبة أحدثت شرخًا بثقته بي هدَّد الصرح الكبير بيننا، بات آيلًا للسقوط في أي لحظة.

سافرتُ وحدي إلى بيتنا بالساحل الشمالي بضعة أيام، هكذا طلبتُ من حسام.. أن أختلي بنفسي حتى أستعيد شتات روحي وأفكاري، ولم أخبر حسامًا عما حدث بيني وبين بلال، وطلبت من عمر ألَّا يخبره.. فأنا لا أقوى على فتح جبهةٍ أخرى في حربي مع هذه المرأة التي تسللت عبر جسر أقامته بين القلبين لتعبر خلالهما رغمًا عني لتشق روحي إلى نصفين في لحظة عجزٍ لم أستطع فيها طردها وهزيمتها.

كنت أطمئن على بلال من عمر ومن حسام ومن أحمد الذي أخبرته بما حدث، فكان على تواصُل مع بلال في تلك الفترة تجنُّبًا وترقُّبًا لأي تطورات، ولم أكن أتحدث معه وكأنني تمنيت أن يبادر هو ليثبت لي أني الأولى في قلبه وحياته، وأن هذا مكاني الذي لن تنافسني فيه امرأة أخرى أبدًا.. ولكن خاب ظني.. ثم قررت العودة بعد أن حسمت الأمر.. لقد هزمت.. وعليَّ أن أستسلم للهزيمة وأواجه مشيئة القدر.

عاد بلال من عمله وعلم بوجودي.. فجاءني مترددًا بتحفظ قائلًا:

- مرحبًا أمي.. هل أصبحتِ بخير؟

وددت أن ألومه على عدم سؤاله عني.. ولم أستطع.. رفضت من أعماقي أن أضغط عليه ليعاملني كما أريد.. أردت أن ينبع منه الحب تجاهي تلقائيًّا.. كما نبع إلى تلك الأخرى تلقائيًّا .. أردتُ أن يثبت لي مكانتي عنده.. أردتُ ألَّا أستجدي منه عطفًا ولا وُدًّا.. كُسرت أمام ولدي كسرًا أقوى من كسري أمام زوجي على يد المرأة نفسها.. ولكنني سأكمل حربي الباردة معها للنهاية وسأنتصر.. فإن حرب النساء لا يجب أن تشتعل إلا بالمكر، ولا تفوز المرأة على المرأة إلا بالدهاء.

ابتسمت له وسألته عن حاله فأخبرني أنه بخير.. وكان مترقِّبًا متحفظًا.. وكنت أعتصر قلبي من الألم الذي قاومته حين اقتربت منه لألمسه بحنان على وجنتيه وقلت له:

- إني بخير يا حبيبي.. ما دمتَ انت بخير.

ثم أتبعتُ الكلام فورا بسؤالي الحماسي عنها:

هل فازت ندى بالجائزة أم أصروا على استبعادها؟

ابتسم كالشمس في مشرقها ابتسامة غمرتني دفئًا رغم الألم.. ثم أجابني:

- لا، لم تفز.. إن ندى لا تخشى السقوط.

- هل تتحدث معها؟

- أرسلتُ إليها كثيرًا، ولكنها لا ترد.. أظنها لا تقرأ رسائلي.

- ألم تلتقِ بها من قبل؟

- لا.. بل أراها وأتابعها من خلال صفحتها والتلفاز.

- سوف تراها عما قريب.

- حقًّا أمي؟

قالها وما زالت ابتسامته المضيئة باسمها لا تفارقه.

- نعم.. ربما إن حققتَ فوزًا مع النادي في البطولة القادمة .. ويصبح اسمك لامعًا مثلها فتهنئك بفوزك.

لا أدري لماذا قررتُ استخدامها كحافز له على التقدم والتميُّز كي أنافسها به، فينقلب السحر على الساحر، لعلي أمحو أسطورة النجمة عندما يعلوها البدر.

وكانت له أقوى حافز.. أقوى من كل ما تعلق به من أشياء.

مرت أيام الترقب والألم كالضيف الثقيل الذي لا يغادر ولا يحسن البقاء.. ولكني كنت أخدع نفسي بأن سعادته تكفيني. صار يتمرن كثيرًا.. وزاده حلم لقائها البعيد القريب إصرارًا على النجاح والفوز؛ ليحقِّق رقمًا

قياسيًّا في البطولة التي كانت محطته النهائية للتأهل إلى الأوليمبياد.. كنت أشجِّعه على المثابرة والتركيز على هدفه الذي ربطه بها.. وقد ساعدته أنا على ذلك رغمًا عني.. من أجل أن أراه سعيدًا.. لم أفعل ذلك ذات يوم مع حسام وقت تمكنت من قلبه هذه المحتلة.. أدركت في تلك اللحظة أني كنت أستطيع أن أهدَّ الصرح فوق حسام إن كان اختارها هي، وكنت سأُلملم حطام قلبي وأستعيد بناءه وحدي مع ولديَّ .. وإني الآن لا أستطيع أن أهدَّ الصرح لأن به قلب ولدي الذي لن أحتمل العيش من دونه دقيقة إن ضاع مني.

لقد خلقت الأنثى حرة إلى أن تصبح أمًّا.. فقط أمًّا.

كنت أتقرب منه بالحديث عنها، وأستعير منه كتبها لأقرأها لأعرف كيف تفكر غريمتي، لأعرف ثغراتها ونقاط ضعفها، وكيف أشاركه اهتماماته لأذيب ذلك الجليد الذي شيَّدته بيننا في لحظة غضب.. ولا أدري لماذا عندما بدأت أقرأ لها وجدت قوتها تكمن في كلماتها الإيجابية الهادفة وجملها الصادقة التي تخترق القلب من الوهلة الأولى.. وأيضًا في حزنها العميق الطاغي على بلاغتها وقدرتها على رسم الحلم، ووصف أدق الشعور دون تكلُّف كأنها تصيب الأماكن المغلقة ببواطن أعماقنا.. فتنفتح نوافذها للشمس، إن لها قدرة مدهشة على أن تسحبك إلى عالم سحري بين السطور، لا تقوى على مقاومته، ولا أن تدرك بدايته ولا نهايته.. كأنها تقودك إلى أسرٍ خفي لا يستطيع أحد منه الخلاص.

دخلتُ على صفحتها لأعرف عن حياتها.. ربما استطعت أن أعرفها أكثر، أو ربما تكون ما زالت تكتب عن حسام، أو ربما يكون قائمًا بينهما الاتصال في لعبة القنص وحرب الكر والفرار .. إن مجرد إثارة الفكرة في أعماقي لم تجد صدى كافيًا كذلك الخوف الذي تملكني عندما ظننت أنها تتصل ببلال.. هل أصبح بلال أغلى عندي من حسام؟ لأول مرة أكتشف ذلك الأمر الذي لم أواجه به نفسي قط من قبل.. لأنني لم أتصور ولو في مخيلتي أن يدق قلب بلال الذي لا يعرف الحب ولا يعرف الخوف لامرأة.. أبدًا.

كنت أتابع نجاحها، وأتابع أيضًا حماسة ولدي المتأججة ليحقق نجاحه من أجلها.. لأول مرة أرى وجهًا آخر للحب لم أعهده.. معنى سام أن يمتلئ الإنسان بالفيض العذب الذي ينبع من نظرة أو كلمة حفرت مجراها بالقلب طويلًا تُحوِّل الإنسان الباهت إلى هالة من نور.. الحب الذي يجعل الإنسان حيًّا .. يجعله كالطيف ينثر بديع ألوانه على القلب فيزهر على جدرانه ربيعًا دائمًا يتلألأ تحت شمس عشقه الذهبية التي عنه لا تغيب.

هذا السريان الخفي للفيض العذب بين القلوب بات نهرًا متدفقًا لا نملك أن نمنعه أو نقمعه إلا باغتيال الزهر.. وسفك الأمل في القلوب.

نحن لا نملك على القلوب سلطانًا

كان عليَّ أن أتقبل التغيير والواقع مهما يكونا قاسيين ومريرين.. هكذا قررت مُرغمة.. مستسلمة أمام سعادة ولدي واستقرار حياته. تحدثت مع أحمد عندما ذهبت إليه .. وأخبرته عن كل مخاوفي.. وتشتُّتي.. وهزيمتي.. أمام رغبة ولدي في أن يحتفظ بصورة هذه المرأة أمامه نقية غير قابلة للكسر أو التشويه وسألته متوجسة:

- هل يحبها حبًّا حقيقيًّا يمكن أن يؤذيه إن تعرض لصدمة متوقعة؟

- أي صدمة تخشين منها يا رشا؟

- تعلم أن هذه المرأة تكبره سنًّا.. وربما لديها أولاد قريبون من عمره.

- لماذا تخشين أن يكون تعلقه بها تعلُّقًا عاطفيًّا؟

- لأنه أصبح رجلًا .. وهي امرأة.

- حتى ولو أصبح رجلًا .. وهي امرأة .. هي بالنسبة له ليست بهذه الصورة ..هي له انعكاس لحلمه.

رأيت بنفسك عندما وضعتها أمامه كحافز له كيف اشتعلت حماسته، وكيف ازداد تركيزه في التمرين؛ كي يتفوق على نفسه.. أليس هذا كافيًا لأن تدركي أنها بالنسبة له حافز لطاقة إيجابية تُخرج منه حماسة هائلة ولسعادة جديدة يشعر بها؟

- نعم رأيت يا أحمد.. ولكني أسألك خوفًا إذا ما تعرض لصدمة منها .. هل هو يحب مثلنا؟

- مثلنا يا رشا؟ أما زلت تتعاملين معه على أنه ما زال طفلك ذا الطيف؟

- ما زال به آثار الطيف الذي لن يزول. رأيت ذلك في ردة فعله وقت ارتفع صوتي عليه.. لقد دب الخوف في نفسي لأول مرة منذ وقت طويل.

- رشا.. إن العودة من التوحد ليست كالعودة من الإنفلونزا.. قطعنا شوطًا كبيرًا وحققنا نتائج رائعة.. ولكن لن تكتمل الصورة التي تودينها.. وبالمناسبة.. كلنا لا نملك صورًا مكتملة بدواخلنا مهما نبدُ طبيعيين.. لنا نواقصنا وعيوبنا.. تقبلي بلال على نقصه.. مثلما يتقبل هو نفسه الآن.

- كل ما أخشاه أن يحدث له أي شيء إن تعرض لصدمة منها.

- أي صدمة؟

- إنها ليست له ولن تكون.

- ندى معه في حلمه.. يستحضره بإرادته.. حلم يمنحه كامل طاقته.. وأظنه لا يفكر في تحقيقه إلا من خلال تحقيق ذاته فيه.

- كيف؟

- بمعنى أنه يتفوق على نفسه كي يحقق رقمًا قياسيًّا في البطولة .. إذًا هذا هو تحقيق الذات المراد.

- وماذا إن لم يقابلها كما وعدته أنا؟ وماذا إن قابلها ووجدها غير مكترثة به؟

- لا أعتقد أن هذا الأمر مهم له إلى هذا الحد.. إن انفعاله بها ليس بهذا العمق.. هو يقوم بتثبيت الصور بمخيلته ويعيش معها حلمه كما كان يفعل مع كل متعلقاته التي يحبها.. وندى له مجرد انعكاس الحلم ..لا تفترضي السوء قبل وقوعه يا رشا، وتتصرفي على أساسه.. ربما مخاوفك ليس لها أي أساس.

- حسنًا، أحمد.. أرجوك لا تتركه هذه الفترة.. فإني مُشتَّتة تمامًا.

- ثقي به.. مثلما أثق به.

وكان حواري مع أحمد قد هدَّأ من مخاوفي بعض الشيء رغم أنني لم أحكِ له عن أن هذه المرأة تحديدًا يمكن أن تنتقم مني ومن حسام في أعزِّ ما لدينا.. وتستغل ضعفه فقط من أجل أن تحقق نصرًا نفسيًّا في حربها ضدنا، سيهزمنا هزيمة لا أستطيع أن أفكر في مدى عواقبها.. ولكني بعد ما تحدثت معه خرجت من عنده وقررتُ أن أترك الأمر برمته .. فسلاحي الوحيد الآن هو الدعاء.. أن يغير الله شر القدر.

حتى جاء ذلك اليوم الذي عاد بلال فيه طائرًا من فرط السعادة وهو يخبرنا في النادي بعدما أنهى تمرينه أن هناك إعلانًا عن استضافة ندى في ندوة أدبية مقامة بالنادي بعد بضعة أيام، وأنه سعيد جدًّا لأنه سيلقاها.

دبَّ الخوف بقلبي، وارتجف رجفات خوف متلاحقة لم أستطع السيطرة عليها.. هل جاءت لحظة المواجهة بهذه السرعة؟ هل عليَّ أن أستعد الآن لأخطف ولدي من بين براثن هذه المرأة كما استعدتُ منها زوجي من قبل؟ هل سأنتصر أم ستنتصر هي؟ كنت حقًّا لا أدري.

لم أنطق وأنا أرى مدرب بلال وصديقه يشاركه سعادته، كأنه يعرف ما لا أعرفه.. وانصرفا من أمامي وبقيت وحدي أُصارع شبح الخوف اللعين من اللقاء المريب المرتقب.

وفي اليوم التالي وجدت "بلالًا" قد عاد مبكرًا ومعه الكثير من الأغراض التي ابتاعها هذه المرة بعناية فائقة.. طوال عمري كنت من أختار له ما يناسبه من ملابس وألوان، حتى وإن كان يرفضه، ويختار ما يريد كنت أشاركه فيه برأيي. أما هذه المرة لم أشاركه ولم يطلب مني رأيًا. وكنت أرقب سعادته في ترتيب ما سيرتديه بعناية أمام صورتها الملازمة له على حاسوبه، كأنه يوم عرسه، اليوم الذي تحلم به كل أم.. ولكن في حالتي.. كنت أرتقب يوم عرس ولدي على صورة في حلم.

وخلال الأيام المتبقية على ميعاد الندوة كان يغيب طوال اليوم ويعود متأخرًا.. وكنت أحادثه على الهاتف فيخبرني أن لديه تمرينًا مكثفًا لاقتراب البطولة.. وكنت أُصدِّقه.. وكنت أخبر نفسي أنه يود لو كانت البطولة قبل لقائها.. حتى يصبح لقاؤها مكافأته على الفوز. كما كانت صورتها حلمه وحافزه.

وجاء يوم الندوة المرتَقب.. كان النادي يستعد لاستقبال النجمة.. بتجهيز القاعة التي سيتم استضافتها فيها.. وتجهيز الكاميرات وتنظيم الدخول وتعليق صورة كبيرة لها ولكتابها الأخير الذي ستناقشه في الندوة.. وكانت للتو عائدة من تكريمها في روما في أكبر مراكز الثقافة هناك.. وكان بلال منذ صباح هذا اليوم قد خرج مبكرًا بملابس التمرين بعد أن وضع أغراضه المُعتنِي بها بعناية في سيارته، وانطلق متحمسًا مبتسمًا محلقًا بسعادة وقبَّلني قبل انصرافه قبلة عميقة لم أشعر بمثلها من قبل.. وأوصاني ألَّا أتأخر أنا وأبوه وعمر، وشدَّد على جدته وعمته وماجد. سألت عمر بعد أن خرج بلال.. عما إذا كان أخوه قد أخبره بشيء بخصوص ندى!

فرد مندهشًا:

- لا أفهم سؤالك يا أمي؟

- أقصد إذا كان قد اشترى لها هدية أو ما شابه؟

- لا لم يخبرني أنه قد ابتاع لها هدية.

- لقد رأيتُ عنده أغراضًا كثيرة قد اشتراها مؤخرًا.

– نعم إنها ملابس جديدة وعِطره المفضَّل وساعة، وسوف أستولي عليها كلها منه بعد أن يفرح بها قليلًا.

قالها بدعابة الأخ الودود.

– ألَم يكن من بينها هدية لندى؟

– لا، لم يكن معه خاتم خطبة.

قالها عمر وهو يضحك على قلقي الذي لم أفلح أن أخفيه.

ثم غادرته على طاولة الفطور، وكانت غلالة الألم قد اكفهرت على مقلتي فهربت قبل أن تمطر.. فأمسك بيدي قائلًا وهو ما زال يضحك على ردة فعلي الطفولية:

– لقد كبر بلال وصغرتِ أنتِ يا أمي.. وتخشين أن تخطفه منك ندى.

مضيتُ إلى غرفتي، وبكيت من وقع الكلمة التي لم يكن يقصدها ولدي الآخر.. وكان يعتبرها دعابة.. وهي طلقة أطلقها دون قصدٍ استقرت بقلبي الحزين.

عاد حسام من عمله على الغداء.. ورغم أنني ترددتُ كثيرًا في أن أفتح معه هذا الموضوع فقد قررتُ أن أفتحه اليوم.. ولكني تراجعت.. لم أكن لأحتمل، لا أستطيع أن أتحمل كل هذا التمزق، إن رأيت في عينيه نظرة شوق واحدة لماضٍ قديم.. أليم. فما وجدت نفسي إلا أن طلبت منه أن يأتي معنا إلى

النادي ليشاهد تمرين بلال اليوم، وأنه قد طلب منا ذلك.. ولم أخبره بالندوة، ولم أحاول أن أثير غبار ذكراه الأليمة على نفسي إن لاح أثرها بعد الغياب الطويل في عينيه.

كنت صامتة واجمة ونحن في طريقنا أنا وعمر وحسام والعائلة إلى النادي.. لأواجه قدري الصعب في حرب ستنتهي أمام عيني بالهزيمة.. إذا ما تعرضت له هذه المرأة لتلقي بحلمه الكبير من فوق سفح الانتقام لترى كسرنا في أعيننا أنا وحسام بعد كل هذا العمر الذي محونا فيه اسمها من ذاكرتنا.. هذا هو مصيري إذًا.. وإني يا إلهي لا أملك إلا دموع الرجاء. لم يرد بلال على هاتفه عند وصولنا.. وكان النادي وقتها على أهبة الاستعداد لاستقبال النجمة.. كان الزحام في ذلك اليوم مختلفًا.. وكأن كل العالم اجتمع اليوم هنا ليشاهد هزيمتي وانكساري. كل صوت حولي كان يرتد من على جدران قلبي المرتجف كالصدى.. وكأنه لا يريد أن يتقبل أنه عليه أن يستسلم لمشيئة القدر القاسية بعد لحظات.

إنه اللقاء الأول لحلم بعيد عزيز تجسَّد أمام حالمه على الأرض.. وإنه اللقاء الثاني لشبح ماضٍ بعيد، قتلناه ودفناه معًا أنا وزوجي عاد قويًّا اليوم من جعبة النسيان.. أقوى مما كان، ولا نستطيع أن نحاربه، ولا أن نهزمه بعدما بعثه القدر من جديد، وعلينا أن نقف أمامه في استسلام تامٍّ لينفذ فينا مشيئة الانتقام.. صامتين.. صامدين لتحمل كل ألم من أجل ألَّا ينكسر قلب ولدنا النقي.. سنحتمل من أجله الهزيمة المريرة، وكَسْر قلبينا راضيين.

جلستُ بعيدًا عن القاعة التي كنت أرقب مدخلها كل لحظة بعيني.. ومع كل مارٍّ يدخلها ويخرج منها أرتجف.. كم تمنيت أن تنقلب بها السيارة مرة أخرى اليوم وهي في طريقها إلى هزيمتي، فينتهي كابوس مرير بحياتي إلى الأبد.

كان حسام بجواري.. صمتَ هو أيضًا.. يرقب القاعة بالرهبة نفسها وربما الشغف.. ربما لا يزال مشغوفًا بها.. فتأتيني الطعنة منه هو في صميم قلبي وقلب ولدي الذي لا يعلم شيئًا عما كان.. هل سأخسر قلبين عِشتُ عمري من أجلهما.. اليوم؟ آه يا ربي.. أنهِ هذه اللحظات القاسية.. فلم يعد بقلبي طاقة ولا صبر.

دخلت النجمة.. محاطة بالأضواء.. والترحيب والتصفيق المدوي.. وأظن استقبالها الضخم بكل هذه الحفاوة لن يجعلها تنتبه من الأساس لشغف معجب مسكين من معجبيها.. أفنى عمرًا يحلم بتلك اللحظة.. يا لها من لحظة تحملُ في طياتها كل ألمٍ حُفر على جدران قلبي الحزين بعمري كله!

لم أر بلالًا متجهًا إلى القاعة بعد وصولها.. واتصلت بهاتفه فأخبرني أنه لم يذهب إلى الندوة.. انشرح قلبي فجأة.. وزالت غشاوة السواد القاتمة منه.. وانفرجت أساريري وقتَ تنفستُ الصعداء، وقلت في نفسي: لقد تغلَّب على ضعفه من نفسه وفضَّل أن يستمر بالتمرين .. وأن هذا الوهم سيظلَّ وهمًا مهما يتجسد على أرض الواقع.. هي مجرد صورة متعلق بها في خياله كما أخبرني أحمد.. بدأتُ أتمالك نفسي، أُلملم شتاتها من ضياعي بين ظنوني

ومخاوفي.. وقلت له: إني قادمة إليه.. قال لي: ليس الآن.. سأتصل بك بعد دقائق .. لم أفهم مغزى رده.. ولكني كنت في سعادة من عدم دخوله عندها كانت تكفي لأن أتقبَّل أي صدمة بعيدة عن ذكر اسمها.

مرت قرابة الساعة وقد أوشكت الندوة على الانتهاء.. ولم يتصل.. وأرسلت عمر يبحث عنه في القاعة؛ فلم أكن أقوى على الدخول.. فخرج وأخبرني أنه ليس هناك، وأن الندوة قد أوشكت على الانتهاء.. ازدادت سعادتي وأملي في أن ترحل اليوم دون أن تلتقيه فيطمئن قلبي.

وفجأة.. أُضيئت أنوار خرافية حول قاعة التزلج.. صوت الموسيقى الذي غمر المسامع المنبعث من داخلها والذي سرى كالترانيم الساحرة في الهواء تخلل مسامع كل الحضور خارج القاعة.. ما الذي يحدث هنا؟ تساءل الجميع.. ازدادت الأضواء تلألؤًا وإبهارًا.. ازدادت النغمات سحرًا وسريانًا عذبًا إلى الوجدان.. ازداد فضول الناس في معرفة ما الذي يحدث بداخل قاعة التزلج .. وانفضَّ الجميع من حولي متجهين إلى هناك.. حينها جاءني عمر راكضًا وعلى وجهه علامات الخوف واللهفة..

- أمي.. بلال بداخل قاعة التزلج يستعدُّ للتزلج وحده على الجليد.

انتفضت من مقعدي أسابقُ الزمن.. كي أصل إليه قبل أن تصل هي إليه لترى كيف تمكنت منه دون أدنى جهد لتمتلكه.. هذا ما كنت أخشاه.. أن يتوحَّد مع نفسه وينفصل عن الواقع. ليرافقها في حلمه البعيد.. دخلت القاعة المزدحمة عن آخرها .. فوجدت الجميع منبهرًا بصورتها العملاقة على

الحائط تحت مؤثرات الضوء التي ألقت حالة من ذهول وإبهار وقعت في النفوس مثلما استقبلتها العيون.. ضوء طفيف على عينيها.. ضوء مثله على أرض الجليد تركز على هذا الحالم الثائر الذي يستعد ليُحلِّق إلى حلمه في عالمه الشاسع على الجليد وحده.. كما اعتاد أن يحلمه وحده.

الأرض بيضاء كقلبه.. جليدية كطبعه .. الخلفية صورتها وعيناها .. الحضور قلوب تتقد في الظلام.. تنعكس أضواء الحلم الأسطوري على مرآة روحه.. تشعل القلب العاشق بالحماسة.. تأسره.. تجذبه كالنار التي تجذب فراشة مخملية ناحية لهيبها، تُحلِّق حولها في خِفة، ثم دون وعي تلقي نفسها فيها بفرح ولا تشعر بالاحتراق.. ولا يدري أحد أن هذه النيران قد اضطرمت بقلب الأم التي عجزت أن تحمي ولدها من لحظة فيض عنيف، لحظة جنون لا تعرف مداه.

بلال قد بدأ حركته الدائرية بالمزلج على الجليد.. ويكررها مرارًا .. سقط قلبي المنفطر بين قدميه.. ظننتُه قد تعرض لصدمة جعلته يقوم برد فعل عنيف إلى حد الألم.. لقد تحوَّل ولدي إلى طيف.

صرخت فيه بكل قوتي المنهزمة.. ألَّا يقوم بالتزلج العنيف .. أيقنت في لحظتها أن ندى أهملته.. وخيبت أمله الكبير في لقائها، فجاء يجر قلبه المكسور إلى هذا المكان لينتقم من نفسه ومن روحه التي تعلَّقت بها.. ليعيش معها الحلم وحده كاملًا يطير إليه بعنفوانه بعد رفضها حتى أن تنظر إليه.. لم

يسمع صراخي.. لم يأبه لدموعي.. لم يستجب لأي نداء.. وقد علا الصخب بأعماقه فصار لا يسمع أي نداء، وبدأ في الطيران.

أنصت الجميع للحن البديع.. للحركة المنتظمة.. لتحليق الحالم الوحيد في فضاء روحه على الثلج بلا قيود ولا حدود، يجوب أرجاء حلمه بأجنحته البيضاء لا يسمع إلا صوت قلبه.

جلست مستسلمة لدموعي، مهزومة أمام قدري.. أمسك حسام بيدي لأهدأ ليعلن هو أيضًا استسلامه.. في تلك اللحظة دخلت هي.. حلم ولدي الذي يؤمن به، والكابوس الذي تجسَّد في لقاء ثانٍ معي ومع حسام.

التقت عيناها بعيني حسام .. لحظة فاصلة .. تملكت من حياتنا بأمر القدر.. وها نحن جميعًا اليوم اجتمعنا بمشيئة القدر لنشاهد مصيرنا.

ترك حسام يدي وذهب إليها بخطوات غاضبة تزلزل الأرض من تحته، ولكنه كان يخفي بها ارتجافه، لم يستطع أن يثور في وجهها كي لا ينكسر قلب ولده .. فانكسر هو .. وكانت نظرتها الثاقبة المنتصرة كافية لأن تقتله وتقتلني.. نظرة صامتة اخترقت حاجز الألم بلا رحمة استقرت سهمًا بقلبي، وخنجرًا بقلب حسام.

وتفاجأتُ بها ترتدي المزالج وتدخل إليه.. تشاركه حلمه.. تُحلِّق معه في عالمه البعيد أمام أعيننا جميعًا.. بكل انسيابية كأنه حلمها هي الأخرى عاشته معه آلاف المرات.. كيف تناغَمت حركاتها مع حركاته الخطِرة فوق الجليد؟

كيف رأيت حماسة ولدي وهي بين يديه يفيض سحرًا ليخرج إبداعًا لم أره من قبل.. شيء فريد قد انبعث عندما تصافحت أعينهما في أولى لحظات اللقاء.. ثم تعانقت مرة أخرى في آخر لحظاته، ولأول مرة أرى ولدي يمسك بحلمه بهذه القوة.. يبتسم بهذا الفرح .. يتوهَّج بكل ألوان الطيف، يُحلِّق بهذا الانطلاق.. بعد أن ذاب بقلبه الجليد وهو ينظر في عينيها في لحظة النهاية.. بكل هذا الحب.. اليوم رأيت ولدي لأول مرة عاشقًا. لقد نبض الطيف عِشقًا ولم يعد طيفًا صامتًا باهتًا.

انتهى اللحن ولم ينته الحلم.. صفَّق الحضور انبهارًا بعد أن أفاقوا بعد برهة من عالم ساحر تصفيقًا مدويًّا صمَّ مسامعي عندما خضع قلبي أمام سعادة ولدي، ولم تكن هناك جدوى من الخفقان.

نظرت في عيني حسام الذي كان مهزومًا هو الآخر.. وكانت نظرته المكسورة تتبعها وهي تمسك بيد بلال وهما يخرجان من ساحة التزلج، وسط حفاوة تصفيق الحضور وإثنائهم وهتافهم من فرط البهجة التي غمرتهم من هذا الحدث المدهش. فذهب إليها هو وماجد وتلاقت أعينهما مرة أخرى حين استقر خنجر نظرتها المنتصرة بقلبه ومضت من أمامه بعد أن قالت له بكبرياء: "نحن لا نملك على قلوبنا سلطانًا"، .. مضت النجمة تشعُّ توهجًا تتبعها كل الأعين في انبهار، وتركته بمكانه يحترق من وهجها دون أدنى مقاومة. وتركتني ألملم هزيمتي أمامها في صمت .

اللقاء الثاني

طرق الباب وقد بدأ الشروق يُزيح ستار الليل الحزين من فوق عينيها اللتين غفتا بين صور الذكريات .. وكان بلال:

- صباح الخير يا أمي.

- صباح الخير يا حبيبي.. كيف حالك الآن؟

- أفضل.. بحثت عنكِ في غرفتكِ لم أجدكِ، ولم أجد أبي أيضًا، كنت أود أن أعتذر إليه.

- لقد خرج مبكرًا.. وغفلت وأنا هنا.. إنه لم يحزن إلا خوفًا عليك، يجب أن تعرف ذلك.

- أعرف.

- هل أُجهِّز لك فطورك؟

- لا.. سوف أتناوله بالنادي.. مع عبد الرحمن.

- كيف ستذهب ويدك ما زالت مجروحة؟

- لا بأس يا أمي.. لقد اقتربت البطولة.. يدي مجروحة، فإني أركض بقدمي.

ابتسمت رشا .. وتركته يمضي داعية له بالتوفيق. وقررت أن تتحدث مع ندى.. وقالت بنفسها:

- ربما رحمت ضعف قلبي وأنا أم.. لأنها بالتأكيد هي أيضًا أمٌّ.

ظلت تبحث عن وسيلة لتتصل بها.. حتى عرفت من صفحتها ميعاد ندوتها القادمة بعد بضعة أيام.. فعزمت أن تلتقيها هناك.

وفي مكتب حسام الرجل الخريفي العمر، المشتت عقله بين ذكريات الماضي ومخاوف الحاضر كان يتخذ مقعده أمام نافذته المطلة على البحر الثائر الحائر كقلبه .. يرتشف قهوته في سكون. تسبح ذاكرته بين الصور المضيئة على جدرانه بعد أن زال من فوق سطحها غبار النسيان.

- لماذا عدتِ يا ندى إلى حياتي فرضًا مفروضًا مرة أخرى؟ أم أنك من الأساس لم ترحلي؟

كان السؤال يجول بخاطره وهو يتذكر تلك النظرة التي عصفت به في مكانه وصهرته كشمعة مسكينة احترقت وحدها بين صخب الأضواء في مكانها.. حين رأى تعانُق نظرة ولده بنظرة عينيها، هاتان العينين اللتين أعلم جيدًا كيف يكون السحر فيها آسرًا، كيف يكون النبع فيها فياضًا من الأعماق.

كان يخاطب خاطره.. ولا يعرف كيف سيواجه هذا الألم الذي ظل سنوات يتجاهل وخزه كلما تذكر آخر مشهد رآها عليه في المشفى وهي تنزف مكسورة فاقدة للوعي يوم الحادث.. فعاد هو يختبئ بأحضان زوجته، يغتسل من ذنبه بغفرانها.. منذ ذلك الحين كان يتجنَّب أن يعرف عنها أي شيء.. إلا بعدما سطعت في السماء، فكيف الآن يتجاهل النظر لنجمة غمرت العالم ضياء .. وغمرت قلب ولده المسكين عشقًا أمام ناظريه.

ثم انتقل إلى حاسوبه يحاول البحث عنها.. عن أي وسيلة ليتصل بها.. فحتمًا لو أرسل إليها رسالة ستكون في قائمة الانتظار بين آلاف الرسائل من آلاف المعجبين.. وربما يطول الانتظار.

ثم تذكر عمرًا صاحب المكتبة الذي قذفه بكلمته يوم الحادث، واستقرت بقلبه سهمًا يعلق عليه ذنبًا مستديمًا لا يُغتفر.. هو مدير أعمالها، حتمًا سوف يطَّلع على الرسائل، ثم أرسل إليه رسالة على حسابه الشخصي.

"لقد كتب القدر مشيئته، وانتقم مني أشد انتقام .. ولكن ولدي لا ذنب له لأن يدفع ثمن ذنبي الذي هربتُ منه.. سأتحمله عنه دون أن تؤذيه ندى انتقامًا مني.. أخبرها بذلك، فهي تعلم أن ولدي ذا الطيف لن يحتمل مُرَّ الهزيمة وألم الانكسار، أستحلفها بأولادها فهي أم لا تقدر أن تؤذي أمًّا مثلها، ولا أبًا مكلومًا في ولدهما المصاب. "

وضغط على زر الإرسال منتظرًا مصير الرسالة.

قرأ عمرو الرسالة بعد عدة أيام.. وكانت ندى تستعد لندوتها بعد أيام بمركز الفنون والإبداع في الأوبرا.. قبل أن تسافر إلى فرانكفورت لحضور حفل تكريمها ومناقشة روايتها بمعرض الكتاب العربي هناك.. وبعد أن تردد عمرو، هل يخبرها بأمر الرسالة أم يتجاهلها لتمضي في طريقها دون الالتفات إلى الماضي الأليم المغلق على جرح خامد قديم والذي أشعلته لحظة جنون وسوف تفتح بابًا من الألم لن يوصد إلا على حزن طويل؟ وبينما كان يفكر في العواقب بادرته هي في ذلك اليوم في مكتبه:

– عمرو.. لقد أرسلت لي والدة بلال رسالة تودُّ فيها مقابلتي بعد الندوة.

– ماذا تريد؟

– أظن الأمر يتعلق ببلال.

– إن هذه المرأة تظهر دومًا عندما يتعلق الأمر بأحد رجالها.. في الماضي زوجها والآن ولدها.. أرجو أن تتجاهلي الأمر ولا تردي عليها يا ندى.

– ولكني حددتُ معها موعدًا بعد الندوة.

انتبه عمرو مندهشًا:

– إنك تفتحين بابًا من جحيم أوصدناه من قديم.. لماذا يا ندى؟ ماذا سنجني من جراء الانتقام؟ لقد انتهينا من هذه القصة المؤلمة برمتها نهائيًّا أم أنكِ نسيتِ ما مررتِ به من خسارة بسببهم؟

– لأنني لم أنسَ لذلك وافقت على لقائها.

– لقد مر الوقت يا ندى وكان كفيلًا بالنسيان.. لا داعي لأن نقترب من ذلك الجرح الغائر لنفتحه من جديد وأنتِ الآن ندى النجمة اللامعة.

– لقد التأم الجرح يا عمرو.. ولكنه ترك نتوءًا مشوهًا لروحي.. وحرمني أغلى أحلامي في الحياة.

– لقد عوَّضك الله بأفضل من هذا الحلم.. فليست كل أحلامنا منالة.. تؤمنين بذلك وتكتبين عنه.

– ولكني أريد أن أقابلها وأسمع ما تود أن تقول هذه المرة.

– ندى.. لا جدوى من ذلك، يكفيها أن لديها ولدًا مسكينًا يحتاج إلى رعاية خاصة.

– يكفيها أن لديها ولدًا.. وحرمتني هي أن يكون لي ولد.

– هذا قضاء الله.. لا مشيئة لمخلوق فوق مشيئة الخالق.

– حسنًا.. سوف أسمعها لينتهي الأمر.

– لقد أرسل زوجها أيضًا رسالة منذ أيام.. وقد تجاهلتُ الرد عليه.

قال بعدما وجدها حاسمة للأمر ثم أعطاها الرسالة لتقرأها:

وبعد فترة من الوجوم والشرود الذي أصابها.. قالت له:

– حدد له موعدًا في موعد زوجته نفسه. قالت بعد تفكير عميق:

– أظنه سيأتي معها؟

- لا أظن.

- لماذا؟

- أعرف انه لن يأتي معها، لأني أعرفه جيدًا، فليتواجها إذًا؛ لتعرف أن زوجها كان وما زال يتصرف في الخفاء.. حتى ولو كان الدافع مختلفًا.

- إنك تخيفينني يا ندى.

- لا تخف.. إن هذين لا خوف عليهما.. يعرفان كيف يغفران لبعضهما البعض أسوأ الأخطاء.

- لا أخاف عليهما، ولا يعنيني أمرهما.. أخاف عليكِ أنتِ من شيطان نفسكِ الذي يُزين لكِ وَهْمَ الانتقام.

- لست ملاكًا يا عمرو.. تكون مخطئًا لو أنك تراني كذلك.. حدِّد معه الموعد وإلا فسأحدده بنفسي.

***

مرَّت أيام الترقب والانتظار المصاحبة للرهبة والتمني.. بأن يمر هذا الكابوس المتأجِّج بعاصفة الذكريات والجرح القديم إلى مخمده في سلام، جاء موعد الندوة.. موعد اللقاء الثاني.. بين الحاضر والماضي والأمل المزعوم في الرحيل دون خسارة أو بعد خسارة في معركة الانتقام.. وخرجت ندى من ندوتها، واتجهت إلى مكانهما حيث المواجهة الثانية في ساحة الحرب القائمة،

وكانت رشا في انتظارها وحيدة .. حين دخل حسام المكان نفسه بناء على الموعد ذاته.. فاصطدم بزوجته.

لحظة ألم عميق عصفت بقلب رشا وقت رأته أمامها.. اشتعلت نظرتها حين نظرت إلى عينيه نظرة عصفت باتزانه، ولكنه تداركها وتقدَّم إليها في لهفةٍ وهي تهم بالنهوض.

– رشا.. لماذا أنت هنا؟ كانت رشا في طريقها للهروب من هذا المشهد القاسي على روحها لتجد نفسها تعيشه مرة أخرى بعد كل هذه السنوات بتفاصيله نفسها مع المرأة نفسها.

تبعها حسام بتوتر ممسكًا بذراعها قائلًا:

– اسمعيني بهدوء من فضلك.

– هدوء؟ لماذا أنت هنا يا زوجي المخلص؟

– لا تثوري ثورة بلا معنى تعميك عن الحقيقة.. جئتُ لأتحدث معها لتبتعد عن بلال.

– لماذا لم تخبرني إذًا لنأتي معًا؟ أم أنك اشتقت إلى هواك القديم؟

– ترتكبين الخطأ نفسه للمرة الثانية، وتقابلينها دون علمي.. في أمور يجب أن نحسمها معًا دون انفعال ولا اندفاع.. من أجل ولدنا.

- لا تخف أيها العاشق، لن يحدث لها حادثة أخرى.

- رشا، اهدئي من فضلك.. نحن بمكان عام.

- لن أهدأ وسوف أحمي ابني منها حتى الموت.. واذهب أنت إليها كما شئتَ، لم أعد آبه لأمرك.

- أذهب أنا إليها؟

قالها مصدومًا.

- نعم هأنت هنا من أجلها.. لقد وضعني القدر في اختيار صعب، إما أن تنال منك أو تنال من ولدي.. وإني لن أدعها تنال من ولدي ما حييتُ.

وبينما كانت رشا تتجه نحو باب المكان لتغادر تاركة حسامًا في صدمته ظهرت ندى..

وقابلتها على الباب وتوقفت أمامها برهة وبادرتها رشا بثورة الغضب:

- اسمعيني جيدًا.. لن تسلبي مني ولدي.. مهما فعلتِ هذه المرة.

- أنا لم أفعل شيئًا في أي مرة.. رجالكِ هم من يفعلون.. إنك ما زلتِ تتغاضين عمدًا عن الحقيقة، وتذرفين اتهاماتكِ الباطلة ظلمًا كي تسوِّغي لنفسك الغفران.

- لم يعد يعنيني أمركِ .. هذا زوجي الذي حاربتني من أجله.. انعمي به كي ترتاحي وتبتعدي عن ولدي.

ردت ندى في اندهاش:

– ألهذا الحد بلال أهم عندكِ من زوجك الذي جئتِ في يوم بعيد تحاربين من أجل استعادته من النزوة العابرة؟

– لن أتركك تكسرين قلب ولدي انتقامًا يا ندى.. تذكري أن ذلك سيرتد في ولدك.. ولن يرحمك القدر.

– الكلمات العقيمة نفسها عن القدر تذرفينها في وقت الغضب بلا تعقُّل ولا حسبان.. وكأن القدر دومًا في حمايتك أنت وعائلتك فقط دونًا عن بقية البشر.. لماذا أنت بهذه الثورة إذًا في وقت يقول القدر كلمته؟

– للمرة الثانية تخربين حياتنا المستقرة ولا ترحمين ضعف شاب مسكين.. يعاني.

– وأنتِ وزوجك هل رحمتماني؟ ألم تُخرِّبا حياتي لتستقر حياتكما؟

– دخولك حياتنا كان هو الخطأ الأكبر، وإن الحادث الذي أصابكِ كان قدرًا، لا ترددي هراءً أننا كنا سببًا فيه.

– بسبب الحادث الذي عقب ثورتك بوجهي يوم اتهمتني بالخيانة وأنت المرأة نفسها التي غفرت الخيانة نفسها للطرف الآخر زوجك، وهو الذي قد بدأها، وأشعلها ليعبث بنا، وغفرتها كي تحتفظي به.. حُرمت بسببكما أغلى أحلامي، حُرمت الأمومة.. وأصبحت بلا أولاد، ولن يكون لي لكي ينتقم القدر فيهم، فاطمئني.

صمتت رشا برهة بعدما رأت تلك السحابة القاتمة مرت في عيني ندى وكادت تمطر دموعًا تنبت بروحها الألم الدفين.. ثم قالت لها ندى بعد أن استعادت قوتها:

- اجلسي من فضلك، وحاولي التزام الهدوء.

فجلست.. ثم أشارت لحسام بالجلوس:

- جئتُ بناء على رغبتكما بخصوص بلال وإني أنصت.. ماذا تريدان؟

قالت ندى بعد أن استعادت شتات كسرها في لحظة انتصارها على حزنها الذي لا يبرحها.

- لماذا شاركتِ بلالًا؟

سألت رشا.

- لأن "بلالًا" رسم حلمًا لي طالما عِشته ورسمتُه، وكتبت عنه كثيرًا، رسمه هو بحالته. رسمه تمامًا كما كنت أحلمه .. لقد حفرته بكلماتي وحفره بلال بطيفه حقيقة على أرض الثلج.

- تعلمين أن "بلالًا" مصاب بالتوحُّد.

- أعلم كل شيء .. لكم أحببته كلما كان يحكي لي زوجك عنه وعنكِ.

ردت ندى بثبات.

- إنك لا تعرفين كيف تعاني أمٌّ صبرت، وتألمت من أجل أن تستعيد ولدها من براثن مرض كهذا يستنزف من الإنسان طاقته وعمره ووجوده.

– لو كنت أمًّا لكنت عرفت.. ولكني أعتبر نفسي رغم الحرمان أمًّا.. أمًّا لأبطالي الذين يأتي بهم القدر ليحققوا لي أحلامي البعيدة ويجسدونها من بين سطوري على الأرض كما فعل بلال.

لحظة صمت.. استطردت بعدها ندى الكلام بنبرة ألمٍ ترتسم على سطحها ابتسامة باهتة..

– يومًا ما حرمني زوجك أبسطَ أحلامي يوم فرَّق بيني وبين خطيبي كي ينعم بمغامرة شائقة تشغله في لعبة فراغه المملة.. في وقت انشغلتِ أنتِ فيه برعاية ولدك المحتاج لفائق العناية.. فعل كل شيء ليحاصرني ويحيطني عِشقًا واهتمامًا.. صدَّقته وتعاطفت معه بشعور كان أقوى مني.. شعور لا نملك عليه سلطانًا.. حتى جئتني أنتِ قبل الحادث وسردت لي حقارتي في هدم صرحكما الصامد، ثم هرب هو يوم الحادث وتركني روحًا مهترئة تُنازع الموت وحدها، لمجرد أنك استعدتِه لوطنكِ من المنفى بعد أن غفرتِ له ذنبه.. هل كان يجب أن يموت من أجل سعادتكما كل أولادي؟

صمتت ندى لتتمالك انفعالها، وكان حسام صامتًا واجمًا ينصت في خنوع.. ثم قالت رشا لها بلوم:

– جئتُ إليك في هذا اليوم البعيد لأبعدك عن حياتي لأحمي بيتي ومملكتي.. التي تعبت في بنائها.. لم أكن لأسمح لك أن تهديها أو تدخليها وتسلبي منها عمود الأساس. كي تؤسسي فوق أنقاضي حياتك وسعادتكِ.

ابتسمت ندى بأسى وقالت:

- ولماذا اقتحم هو مملكتي وهدَّدها قبل أن أبنيها وأحميها لتصبح لي مملكة مثلكِ؟ هل سألته: عم فعل بي؟ أم أنك جئت تذرفين اتهاماتك بوجهي وأنت له تغفرين.

- أنت لم تحمي مملكتك. وتركتها في مهب الريح..

- وهو برأيك لم يفعل أي شيء؟

قالت ندى بسخرية.

- مهما يفعل، إن الخطأ الأكبر أنتِ من تتحملينه.. لأنك قبلت أن تكوني بحياة رجل متزوج حتمًا سيعود إلى وطنه وبيته مهما يطل اغترابه.

- أكنتِ أنتِ الوطن وكنت أنا المنفى؟

قالت ندى وهي تنظر إليها نظرة تشبعت بالتحدي.

- بكل تأكيد.. وقد أجابكِ الزمن على ذلك.

- إذًا لماذا تنفينه الآن إلى المنفى نفسه.. هل ضاق به الوطن.. ولم يعد يحتمل إلا بلالًا؟

نظرت رشا إليه في صدمة.. وقبل أن تنطق منفعلة استطردت ندى..

– جميل أن أرى الوطن الأم تنفي من تشاء وقتما تشاء وتعيده وقتما تشاء، كأنك تمتلكين قطعًا من الشطرنج.. لا قلوبًا تحيا أقدارها وتختار حياتها بمحض إرادتها، تضحين اليوم بزوجكِ من أجل ولدكِ للمرة الثانية.. يا لها من تضحية!

هنا نطق حسام وقد حاول جاهدًا أن يلتزم الهدوء ليثبت لها أنها مخطئة، وأنها خاسرة لحربها .. وأنها لن تنال من صمود عائلته، ولا من هزيمته أبدًا قائلًا:

– اسمعي يا ندى.. وأنتِ أيضًا يا رشا، أعترف أمامكما أني أخطأت.. وكل رجل مُعرَّض للخطأ في فترة ضعف بحياته في خريف العمر.. ولو حوسب كل رجل على وهمٍ عابر مر بحياته لكنا جميعًا مقتولين. أنتِ أيضًا أخطأتِ يا ندى .. كان عليكِ الصمود.. تركك ذلك الخاطب المنتهز لفرصته.. لأن فرصته كانت أهم منكِ .. ليس لأنني أقنعته أن يتركِ .. لو كان يحبك لما ترككِ من أجل أعظم الفرص.. وكان عليك أن تتقبلي الأمر.. لم يكن هو أو غيره نهاية العالم والمطاف.. وكنت سوف تجدين من هو أفضل منه.. ولكنكِ استسلمتِ .. ولا يجب أن يقول الضعيف وقت استسلامه إنه كان ضحية.. وأني لم أعدكِ بشيء وقتها.. أخبرتك شعورًا متخبطًا كنت أظنه حقيقيًّا، وأدركت مع الوقت أنه لم يكن، فنحن بشر نضعف ونخطئ ونتوب، وانتبهنا لتهورنا وخَطَئِنا، وأنهيناه وذهب كل منا إلى حياته وإلى

قدره.. ولا يجب أن نعطي أخطاءنا أكبر من حجمها.. ولا داعي لأن يتملك منا الكره لدرجة الانتقام.. وأنتِ الآن أصبحتِ نجمة لكِ مكانتكِ وقيمتكِ بين محبيك. لم تتوقف حياتك على شيء عابر بها، ولم تتوقف حياتنا رغم كل المعاناة التي عشناها لنستعيد ولدنا وقُرة أعيننا. وإن كنتِ تأملين في الانتقام ليرتاح قلبك .. هأنا أمامك.. افعلي بي ما شئتِ . لن ألومك.. ولكن لا تستغلي ضعف بلال.

كانت ندى تتألم من كل سهم يرتشق بجرح قلبها الغائر في كلمات حسام المسمومة.. رجل خريف العمر.. حبيب العمر، الوطن الضائع.. الذي اختزل كل الحب العذب الذي فاض يومًا بينهما في" لحظة ضعف " عابرة الى وادي النسيان، ثم صوَّبت نظرتها وأطلقت سهمها القاتل في عينيه قائلة بعد برهة صمت أليم .. بابتسامة ألم يغمرها التحدي:

– هل حقًّا تخشى عليه؟ أم أنك تخشى منه؟

انتفضت رشا غاضبة.. لأنها أدركت ما جال بخاطر ندى في نظرتها الثاقبة.

وقبل أن تنطق.. رد حسام بقوة غضبه الذي انفلت منه:

– لن أسمح لك باستغلال بلال.. كوني واثقة هذه المرة، ولو اضطررتُ لمحو اسمك من ذاكرته، ولو كلفني هذا الأمر كل ما أملك.

نهضت ندى من مكانها، وما زالت نظرتها الباسمة بالتحدي مصوَّبة إلى عينيه المحتقنتين بالغضب:

- إذن امحني من قلبه أولًا .. ما دمتَ قد استطعتَ أخيرًا أن تملك على القلوب سلطانًا.

ومضت في طريقها رافعة راية الانتصار فوق الألم المشتعل بداخلها فوق جرحها الغائر، وغادرت ساحة الحرب.

حاول حسام اللحاق بها، ولكن رشا أمسكت بيده كي تهدأ ثورته التي انفجرت كالبركان.. وجلسا في مكانهما تتأجج قلوبهما من الألم ومن الخوف من القدر.. وقالت رشا في توتر:

- لقد أعلنت الحرب علي ولدى يا حسام؟

- من اليوم لا تتدخلي إن الحرب الآن هي حرب انتقام بيني وبينها.. وأعدكِ وأعد "بلالًا" أنني سأهزمها للنفس الأخير.

- حسام.. إني خائفة.

قالت رشا وهي ترتعد من الخوف.

- أمسك حسام بيديها وقبَّلها قائلًا:

- لا تخافي يا حبيبتي.. كم مرت على الصرح الكبير رياح عاتية، ومضت عابرة، وبقي الصرحُ صامدًا.

وهج الانتقام

كانت ندى تهزم ارتجاف خطواتها وهي تتجه إلى سيارتها.. وقد تعثرت بكل الصور الأليمة التي مرت بمخيلتها منذ ذلك اليوم البعيد الحزين الذي أحبت فيه ذلك العابث بقلبها في لحظة ضعفٍ كما وصفها رجلُ خريف العمر، مُغتفَر الذنب والخيانة. ومجرد أن استقلت سيارتها تذكرت اللحظة الأليمة القديمة وقت الحادث، فلم تستطع القيادة.. وطلبت سيارة توصلها إلى بيتها.. وفي الطريق اتصلت بعمرو ليلحقها حيث غيَّرت وجهتها إلى المكتبة.

- ماذا حدث في هذا اللقاء يا ندى؟

- جاء الرجل مُغتفَر الذنب وغافرته ليعاودا مهاجمتي واتهامي بارتكاب جُرم لم أقترفه.. يوم اقترفه هو بحقي.. وكسر قلبي واغتال به أملًا وحبًّا.

قالت بارتجاف عارم لم تستطع السيطرة عليه..

– ندى.. أرجوك.. ابتعدي عن هؤلاء، ما مضى قد مضى منذ وقت سحيق.

– لقد مضى، ولكنه لم ينتهِ بعد.

– سوف تحرقنا نيران الانتقام يا ندى.. انتقام لا خير بعده.. ولا جدوى منه، لقد أصبح لك حياة أفضل من حياتهم.

– لقد قال لي أمامها إني لست ضحية لأنانيته وغروره وعبثه بقلبي. وقال لي أن أبتعد عن حلم ولده.. ولم يذكر أنه لم يبتعد هو عن حلمي إلا بعد أن دمَّره.. فليجترع السُّم الذي سقانيه.

– اسمعي ندى.. لن أتركك تُضيِّعين حياتك ومكانتكِ أبدًا من أجل هذا الوغد مرة أخرى.. مهما يكلفني الأمر.

– إذًا ابتعد يا عمرو.. ففتيل الحرب قد اشتعل، ولن ينجو منها أحد.. إن كُتب عليَّ أن أموت مرة أخرى.. فلن أموت مهزومة هذه المرة.. لن أموت وحدي كي يحيوا سعادتهم على أنقاض أحلامي.

وخرجت ندى تتوهج بنيران أُضرِمت في شروخ الروح أحرقت ندبة الجرح العميق.

***

عاد الأبوان إلى المنزل.. وقد طلبت رشا من حسام ألا يتحدث مع بلال بشأن ما حدث..

كانت تخشى ردة فعله.. يكفي ما فعله بالأمس من ثورة أطاحت بكل شيء.. حتى تمر هذه العاصفة على خير.. ظل حسام شاردًا يفكر في وهج نظرة ندى المتحدية له والتي أشعلت فيه - رغم الحرب والألم - الشوقَ الدفين.

مرت أيام وسافرت ندى إلى ألمانيا.. بينما كان بلال قد عاد إلى عمله بعد بضعة أيام من الإجازة.. وكان أيضًا قد كثَّف التمرين قبيل موعد انطلاق بطولة الأندية الأفريقية في الركض الحُر، والتي سيترشح الفائز بها برقم قياسي إلى بطولة الأوليمبياد. وقد كان بلال واثقًا أنه سيحطم الرقم القياسي بفارق لم يحققه أحد قبله أو بعده في أي أوليمبياد.. كان هذا هو حلمه الكبير الذي عزم على تحقيقه بكامل طاقته والذي ظن أنه سيسعد ندى كثيرًا حين يشعر بأنه تفوق من أجل أن يكون مثلها في نجاحها، فيهديها نجاحه.

ثم تحدث بلال مع صديقه ومدربه عبد الرحمن بعد انتهاء التمرين:

- أريد أن أخبر ندى أني مشارك في البطولة، وأطلب منها أن تحضر.

- أرسل إليها رسالة على صفحتها.

- لا أظنها تقرأ الرسائل.

- حاول.

- حاولت بالأمس ولم ترد حتى الآن.

- حسنًا يا بلال، سوف نجد طريقة.

وبينما كان بلال يقوم بتغيير ملابسه.. سأله عبد الرحمن:

- ماذا وإن كانت ستتابع البطولة في التلفاز فلا داعي لإرسال رسالة.

- لا.. إني أريدها أن تحضر .. أريد أن أراها.

- وماذا وإن أرسلنا لها ولم تأتِ؟

- ستأتي.. أعلم ذلك.

- كيف تعلم ذلك؟

- لأنها أتتِ إلى الحلم عندما ناديتُها.

حدَّق إليه عبد الرحمن قليلًا، إنه لا يستطيع أن يخفي عدم فهمه لمقصده أحيانًا.. ثم قال له:

- حسنًا، نادِها كما ناديتها إلى الحلم. ولكن أرجو أن تنتبه للبطولة التي بعد أيام يا صديقي.. لقد وعدتني أن تحطم الرقم القياسي.

- ما زلتُ عند وعدي.

- حسنًا، أتمنى ذلك لأني أثق بك.. هيا بنا.

عاد بلال إلى البيت بعد انتهاء أيام طويلة من التمرين المكثف.. وعلى العشاء الذي التقى فيه والده منذ اليوم الذي نبذه فيه.. جاءته رسالة على هاتفه.. ومجرد أن فتحها وقرأها.. قفز من مقعده قفزة فرح مفاجئة.. أثارت انتباه الأبوين وأرجفتهما.. حين قال بسعادة عارمة:

- وأخيرًا ستأتي.

قال حسام بصوت مختنق كاد يخبو:

- من تقصد؟

لم يلتفت بلال إليه كأنه يخشى انفعاله عليه مرة أخرى، ولكنه أجابه بتلقائية اللحظة والشعور المسيطر عليه.. فرد بهدوء ممتزج بالسعادة وهو ينظر إلى هاتفه:

- ندى.. لقد أرسلت رسالة وقالت إنها ستحضر البطولة.

ولم ينتظر ليرد أبوه فيحطم سعادته بكلمة غاضبة كما فعل من قبل.. فاتصل بعبد الرحمن فورًا يخبره بأنها ردت على رسالته.. وترك حسام ورشا على الطاولة لا يحركان ساكنًا أمام ترتيب القدر وإعلان ندى بدء الحرب.

قام حسام ينفث غضبه قبل أن يطيح بكل ما تبقى به من اتزان واتصل بماجد ليقابله.. بينما كانت رشا تمطر دموعها في صمت وحدها على الطاولة، لقد استطاعت تلك المرأة أن تتحكم بكفتي ميزانها بكل ثقة عن بُعد.

ثم قامت وطرقت غرفة بلال.. فسمح لها بالدخول:

- لماذا قمت عن الطعام؟ ألا تعلم أنني وأباك ننتظر حتى تعود، فنتناول طعامنا معك؟

- آسف.. لقد تناولت الشطائر سريعًا مع عبد الرحمن بالنادي بعد التمرين، فلم أكن جائعًا.

- إنك لم تقم لأنك لم تكن جائعًا.

نظرت إليه نظرة مفعمة باللوم والحب مطولة، كأنها تودُّ أن تحتضنه بين جفونها.

ثم أغلقت الباب.

وذهبت لغرفتها تمسح دموع الألم وهي ترى بريق السعادة على وجهه، لطالما تمنت وانتظرت أن تنال نظرة حنان واحدة من عينيه وهو قرة عينيها.. واتصلت بأختها تدعوها على الشاي لتخرج معها ما بمكنونها من ألم وحزن..

وعندما جاءت أختها "منى" بعد ساعات.. أخرجت لها رشا كل ما بمكنونها من خوف من هذا التعلق الذي سيكسره حتمًا وهي لا تستطيع الوقوف أمامه لتردعه عنها وتمنعه وتقف أمام عدوتها عاجزة مهزومة.. فقالت لها أختها بجدية:

- لماذا لا يتزوج؟

- يتزوج!

اندهشت رشا وقد صدمتها الكلمة، فاعتدلت في جلستها يشدها الانتباه.

- نعم.. هل من مشكلة في زواجه؟

- لم أفكر بالأمر من قبل.. لا أعلم.

- كيف لا تعلمين رشا؟؟ إنه ولدك كيف لا تعلمين إن كان يصلح للزواج أم لا؟

- لم أفكر في أمر الزواج من قبل.. ولكن أظنها فكرة لا بأس بها.. ولكن يجب أن أستشير طبيبه أولًا وأستشير حسامًا.

- ولدك ليس معاقًا بخلل عقلي يا رشا، لماذا تتصرفين على ذلك الأساس .. إن كان لديه نقص ما.. فهو نقص مقبول.. ولكنه شاب طبيعي، وما تبقى من آثار التوحد بعد الجهد الكبير لاستعادته ليس بالأمر الخطير الذي يمنعه عن ممارسة حياته الطبيعية.

- حسنًا يا منى.. لقد أصبتِ.. إني لم أفكر في هذا الأمر من قبل.

- إذًا فكري بالأمر.. واتركي لي أمر اختيار عروس مناسبة له.

سمع عمر الحوار وهو قادم من الخارج وقد ألقى السلام على خالته في طريقه إلى غرفة أخيه.. الذي أخبره فرحًا مجرد ما أن فتح باب غرفته أن ندى

ستحضر البطولة.. فصدمه عمر بالخبر الطازج الذي سمعه للتو في جلسة سرية نسائية بالخارج، إن خالته تُجهِّز له عروسًا للزواج.

- عروس لي أنا؟

سأل بلال أخاه مندهشًا.

- نعم.. لك أنت.. أظن أنني ما زلت صغيرًا لتزوجني يا أخي.. ليتني كنت مكانك يا أخي.

قال عمر يداعبه.

- ومن العروس؟

- لم تعلن خالتك عنها بعد.. أظنها ستبقى سِرًّا حربيًّا.. اسمع بلبلي.. إن علمت أمي أنني أخبرتك فسوف تقطع رأسي ويصبح لك أخ بلا رأس. فلا تخبرها بأني أخبرتك.

وفي حديث بين رشا وزوجها بعد عودته في غرفتهما أخبرته بما قالته لها منى أختها في زيارتها اليوم.. فتجهم برهة ثم قال:

- ومن ستقبل به؟

- من ستقبل به؟ ماذا به لترفضه أجمل فتاة؟

ردت رشا بحدة.

– أقصد أننا سنخبر الفتاة وأهلها عن وضعه، وأظن أن تقبل هذا الأمر لدى أحد أمر ليس بالسهل.

– بلال شاب جامعي مثقف رياضي وسيم وغني، ومن عائلة كبيرة .. من هذه التي سيرفض أهلها شابًّا بمثل هذه المواصفات؟

ضحك حسام وهو يضمُّها إلى صدره بحنان قائلًا:

– أراكِ تقمصتِ دور أم العريس.

– حسام.

– نعم يا حبيبتي.

– أراه الوقت المناسب لأن يعيش بلال حياته الطبيعية لينتهي هذا الكابوس الذي نعيش فيه جميعًا.

صمت حسام وهو يربت على شعرها ويشعر بفيض من السعادة غمرته لتلك الفكرة، رغم تخوفه منها.. ثم قال:

– لنستشر أحمد في هذا الأمر.

يومان متبقيان على البطولة.. كان بلال يشحن كل طاقته ليحقق حلمه بالفوز وحلمه بندى التي شجعته ووعدته بلقاء ثانٍ ..وندى كانت في طريق عودتها من الخارج.. لتحضر البطولة أمام أعين غريمها وزوجته.. وكانت تقول في نفسها:

– إنها البطولة التي يجب أن يفوز بها بلال.. لتعلو كلمة القدر.. لأنتصر.

"لماذا أسرني هذا الشاب كليًّا وهو يراقصني بهذا السحر الغريب، كأنه سحبني الي عالمه البديع طواعية على ذلك البساط الثلجي وحدنا؟ كيف أني لم أشعر بالرهبة ولا بأي شيء حولنا، وقت أطاح بي وبقلبي وأنا مستسلمة بين يديه؟ لماذا وثقت به وأنا أعلم أنه ربما في لحظة واحدة قد يسقطني ويفلتني من يده؟ لقد شعرت في تلك اللحظة أنه قطعة حية من قلبي أمنتها ..وجدتها بعد الفقد .. وصورة نقية من روحي المكلومة التي شيعت حلمها البعيد الي مثواه مع الزمان.. ونور جديد بالقلب الحزين أضاءه بعد ظلام طويل ..وساكن فتح بابه الموصد على جرحه القديم جاء هو ليضمده، فطاب على يديه في تلك اللحظة .. هذا الحالم النقي.. هذا الطيف الهادئ هو قطعة حية من الماضي لم تتلوث بالحزن، ولم تتشوَّه بالكذب، هذا النقاء بعينيه، والصدق بقلبه لن يخذلني، وإني لن أخذله.. ما حييت.. أبدًا".

وجاء يوم البطولة الذي انتظره بلال بفارغ الصبر لتحقيق حلمه ولقاء نجمته .. حضور كبير.. اجتمعت له العائلة والأصدقاء وكل من يعرفه ومن لا يعرفه، وشاهَده محلِّقًا على بساط الثلج.. جاؤوا لتشجيعه من كل حدب وصوب.

كان عبد الرحمن يلقي عليه التعليمات الأخيرة قبل النزول إلى المضمار.. وكان هو يجول بناظريه بين كل الحضور لترتوي روحه من عينيها اللتين يبحث عنهما، فتتقد عزيمته وتصل إرادته إلى أوجها فيحقق هدفه المنشود..

وها هي الحلم المتجسد النجمة التي طغى بريقها على وهج الشمس في قيظ النهار قد حضرت كما وعدتْ في لحظة التفت العيون حولها كدوران الشمس تتبعها أينما تحركت إلى حيث استقرت في عينيه.. وفي قلبه الشغوف بها.. وابتسامته التي لمعت بنورها.

اضطرب حسام وقت دخولها، والتزمت رشا الصمت الأليم.. حين تعانقت أعين الغريمة بأعين القلب المسكين أمام أعينهما العاجزة. وابتسمت له ابتسامة خاصة أشعلت حماسته من أجلها.. صمتت الأم لتواجه قدرها وحدها فهي من جعلتها حافزًا له، وهي من حاربتها حتى أعادها القدر إلى ساحة الحرب اليوم رغمًا عنها.

أطالت ندى ابتسامتها لبلال وهو يستعد للنزول إلى مضمار السبق.. وابتسم لها.. ورصدت الأنظار والكاميرات هذه النظرة وخلدتها في آلاف من الصور.. ولم تحاول أن تلتفت ندى إلى حسام وزوجته.. فهي نجمة تشرق في سماء هذا البطل اليوم وحده.. إلى أن ينتهي السباق ليعلن انتصارها عليهم دون حاجة إلى أي كلام.

انطلق السباق بعد صافرة البداية .. وبلال العدّاء العتّي توحَّد طيفه مع خطوط المضمار البيضاء، كأن لا أحدًا سيقطعها سواه.. وتحول الطيف ينثر ألوان الربيع المزهر بأعماقه على ما حوله من ألوان.. صوت أنفاسه يتغلغل إلى مسامعه كصخب النغم المحبب إلى قلبه يوم راقصته نجمته فوق الثلج.. كل وثبة فوق خطوات المتسابقين حوله كانت وثبة ثابتة تنقله من حلم إلى

حلم، من زمن إلى زمن، ومن شغف إلى أقصى الشغف.. كي يحلق عاليا ليلمس الشمس الملتف حولها الأمل الوهاج بأعماقه .. حتى اقترب من خط النهاية.. ودنا الحلم على مرمى ثوانٍ معدودات من الزمن .. لا يفصله عنه سوى خطوة.. سوى خفقة.. تحمل فيها كل شغفه ويقينه.. وكل فيضه و حنينه .. وكل إرادته في الفوز الساحق ليهزم المستحيل. وتخطى بلال بقوة خط النهاية بفارق غير مألوف وغير متوقَّع بينه وبين منافسيه.. ليحطم رقمًا قياسيًّا عالميًّا.. صعد به بلا منافس ولا منازع إلى حلم الأوليمبياد.

وقف الجميع يهتفون فرحًا .. تحية لهذا البطل.. ووقفت ندى تنظر إلى انتصارها الكبير على الجرح العميق بعدما ضمَّده هذا البطل دون أن يدري.. لتحيّي من أعماقها هذا القلب النقي الذي بعث بظلمة روحها روح الأمل الموؤود.

هتف عمر مصفقًا من فرحته العارمة لفوز أخيه، هذا الفوز الساحق هو وأصدقاؤه والجماهير .. بينما كانت رشا تتقبل التهاني من كل الحضور في فرحة غامرة.. وسط شعور عميق بالفخر ببطلها .. وكان بلال واقفًا على أرض المضمار لا يرى بعينيه الذهبيتين الحادتين إلا شمسه المتوهجة تعلو فوق كل الحضور، وتغمر عينيه بنورها.

وبينما كان بلال يتسلم القلادة الذهبية على أرض المضمار بطلا متوجًا نظرت ندى إلى حسام وهي تغادر نظرة متوهجة بابتسامة الانتصار، كانت

كافية لأن تشفي غليلها منه بعد إعلان انتصارها عليه. ومضت في طريقها دون أن تهنئ "بلالًا".. لتصل رسالتها إلى حسام.. إنها ليست مثله تكسر القلوب النقية وتمضي فوقها هاربة.. وإنها تفي بالوعد مهما يكن.. وعندما خرج بلال بعد تكريمه بالفوز الكبير وحصوله على المركز الأول، وقد تُوِّج بطلًا للقارة السمراء.. التفت بعينيه في كل مكان ليجد شمسه قد غربت.. ويجد روحه قد أفلت عن الناظرين.

انتهى حفل التكريم.. وسط كلمات الثناء والمديح والمباركة من الجمهور والعائلة والأصدقاء.. وبعد أن تلقَّى تهانيهم جميعًا أمسك بذراع عبد الرحمن وسحبه بعيدًا وسأله:

- لماذا غادرت ندى قبل أن تهنئني؟

- لا أعلم.. ربما لديها موعد.. ولكنها جاءت كما وعدتك.

- كنت أودُّ لو انتظرت قليلًا كي أشكرها لحضورها.

- حسنًا، دعنا نحتفل بفوزك الكبير الآن، وسوف نشكرها لاحقًا.

كان حسام يسمع الحوار بقلب منفطر.. وهو يرى هذا الفوز الكبير قد تحقَّق فقط من أجلها..

وجال بخاطره في تلك اللحظة شبح توجسه.. هل كل فوزٍ أو خطوةٍ تقدُّم في حياة ولده سيكون من أجلها؟ آثر حسام الجواب بأعماقه وآثر الصمت الموجع .. فلم يود أن يُنغص فرحته وفرحة ولده البطل.

لا تعد طيفًا باهت الروح

اجتمع الجميع بيت البطل للاحتفال .. وقد أقام حسام حفلًا كبيرًا.. حضره الأهل والأقارب والأصدقاء وذووهم ومعارفه وأعضاء مؤسسته.. ليهنئوا الشاب البطل على إنجازه وفوزه بالميدالية الذهبية وصعوده بتميُّز للأوليمبياد.

وفي الحفل ظهرت "سالي"، إنها فتاة جميلة رقيقة.. في عامها الجامعي الأخير بصحبة خالته "منى"، والتي عرَّفتها منى إلى أختها رشا وإلى بلال.. ثم انسحبت تطلب رشا في الحديث وتركتهما معًا. وقالت هامسة لرشا:

- سالي ابنة المستشار شكري جارنا وصديق زوجي.. أظنها مناسبة لبلال.

قالت منى لرشا في حماسةٍ وهما ترقبان ردة فعل بلال مع الفتاة.. حيث كان صامتا يبدو خجولًا يجول بنظره في كل الاتجاهات إلا اتجاهها.. وكأن شيئًا في داخله رفض أن يتطلع إليها؛ لأنه ربط بين قدومها مع خالته منى وبين

العروس المرتقبة .. فتُرجمت فورًا بعقله على أنها ربما تكون هي العروس..
وبعد برهة صمت بادرت الفتاة بالحديث:

- لقد حققت فوزًا كبيرًا بالبطولة وحطمت الرقم القياسي يا بطل.

- نعم.

رد بعدم اكتراث وكأنه يجيب عن أسئلة في اختبار.

- هل صعدتَ بذلك إلى الأوليمبياد؟

- نعم.

- هل تستعد لتسجل رقمًا قياسيًّا جديدًا؟

- نعم.

- تتحدث جميع "الميديا" عنك مثلما تحدثت عنك يوم تزلجك على الجليد أنت وندى.

ابتسم بلال ابتسامة كبيرة ثم قال:

- أحب التزلج وشاركتني ندى؛ لأنها تحب ما أحب.

صدمت الفتاة من وقع الرد، ولكنها لم تستوعبه، فردت عليه ردًّا قاسيًا بعض الشيء:

- هل هي صديقتك؟ كنت أظنها صديقة لأمِّك.

رد دون اكتراث:

- بل صديقتي.

ثم استطرد وما زال مبتسمًا:

- أستأذنك يجب أن أرحِّب بالضيوف.

وقفت سالي تُحدِّق إليه برهة بعد أن تركها ومضى، جاءت منى وأمسكت بذراع سالي وسألتها..

- ماذا حدث؟ لماذا ذهب؟

- إنه يتحدث عن ندى، ويقول إنها صديقته، فقلت له كنت أظنها صديقة لأمك.. أليست ندى تكبره في العمر كثيرًا؟ إنه لا يشعر بفارق العمر بينهما.

- لا تشغلي بالك يا حبيبتي.. هو يقرأ لها كثيرًا لذلك يعتبرها صديقته.. وهي تعتبر كل قرائها ومعجبيها أصدقاءها، هذا أمر طبيعي بالنسبة لشخصية عامة.

- ولكنها لم ترقص إلا معه.. ولم تحضر إلا بطولته.. إذًا فهي حقًّا صديقته.

كانت رشا على مقربة منهما تنصت للحوار باهتمام.. حتى ارتسمت ملامح خيبة الأمل على وجهها وقت جاءتها أختها مندهشة تخبرها بما قاله بلال لسالي..

فابتسمت ابتسامة مريرة قائلة:

- أحمد الله أنه لم يكن عنيفًا معها وتركها فقط وانصرف.

- أراكِ تبدين اللامبالاة يا رشا.. إن تعلقه بامرأة تكبره سنًّا لأمر خطير.. وغير مقبول.

- أعلم ذلك.. ولكن لا يمكن منع هذا الأمر بالعنف.

- لا أدري ماذا أقول.

- هل تعرف سالي بحالته؟

سألت رشا أختها.

- إني أخبرتها أنه قد تعافى.. وأن له حياة طبيعية.

- حسنًا.. دعيني أتحدث معها.

نادتها منى من بين رفاقها من الحضور لتتحدث مع رشا على انفراد، وتركتهما وبادرت رشا بالحديث:

- أشكر لكِ حضوركِ اليوم، ولطفكِ في التحدث إلى بلال.. إن لديك فكرة مسبقة عن وضعه، أليس كذلك؟

- بلى، دكتورة..

- حسنًا، حبيبتي.. إن "بلالًا" شاب لطيف ..يتحمل المسئولية ويتحمل دومًا اختياراته، وعندما يحب يبذل ما في وسعه لإسعاد من يحب.. ثقي بذلك.. ولكن على من تحبه أن تتقبله بنقصه وتعرف كيف تتعامل معه.

- كيف تتعاملين معه دكتورة؟

- لا تقولي لي دكتورة.. أشعر أنك أصبحتِ قريبة مني كبلال.. وعما قريب إن وافقتِ سوف تصبحين ابنة من العائلة.. أنتِ عندي مثل بلال الآن.. كل ما عليكِ أن تكوني محاربة صبورًا.. فإن كسبتِ ثقته.. ملكتِ قلبه.

شردت سالي قليلًا ثم قالت:

– أظنه غير مبالٍ .. إنه لم يكترث بما أقول إلا في لحظة تحدثت عن ندى.

– ندى قُدوته، ومثله الأعلى، وهو يقرأ كتبها دائمًا، فهي من ضمن الأشياء التي يحبها، ولكن قلبه لن تشغله إلا إنسانة جميلة مثلك.

– حسنًا.. سوف أفكر.

– فكري في الأمر، وتأكدي أنني لا أقول ذلك عنه لأنه ولدي.. بل لأنه قلب نقي قلما يكون له مثيل في هذا الزمان.

ابتسمت سالي وابتسمت لها رشا، وكان عمر يرقب الموقف من بعيد، ثم اقترب من بلال وقطع حديثه مع عبد الرحمن قائلًا له:

– انظر.. لقد اتفقت أمك والعروس.. وربما يقرآن عليك الفاتحة هناك، وأنت هنا لا تدري.

نظر بلال نظرة ثاقبة إلى أمه التي لاحظتها من بعيد، فدبَّ الخوف في قلبها.. إنها نظرة غاضبة ربما لا يستطيع السيطرة بعدها على انفعاله.. وأدرك ذلك عمر وعبد الرحمن.. فأخذه عبد الرحمن من ذراعه بعيدًا مداعبًا عمر:

– لا تمزح يا عمر.. لقد لاحظت أن البنت أعجبت بي أنا.

فهم عمر مقصد عبد الرحمن من المداعبة ليصرف بها غضب بلال.. فرد مداعبته:

– أظن أن هذه الفتاة الجميلة أثارت إعجاب الجميع، وعلى رأسهم أبي الذي لم يحوِّل نظره عنها.. لذلك استقطبتها أمي بلطف قبل أن تذبحها دون حسٍّ ولا خبر.

هدأ بلال قليلًا وابتسم لمداعبتها التي تحولت إلى نكات في جوٍّ من المرح عندما قام عمر مع بعض رفاقه ببعض الألعاب السحرية التي تعلموها من أحد البرامج، فشدَّت انتباه بلال بالكامل، ما أزاح عنه الغضب.

انصرف الجمع.. وانطفأت أنوار الحديقة.. وخلد أهل البيت إلى نومهم. بعد يوم حافل مُلوَّن بالفرح، ومُزيَّن بنشوة النجاح. وقبل أن يدخل بلال إلى غرفته قالت له رشا:

– أخبرني يا بلال، ما رأيك في سالي؟

– الفتاة التي أعجبت أبي؟

قال بلال في هدوء غير مكترث، في لحظة لكزه عمر ليصمت.

ابتسم حسام مداعبًا.. في الحقيقة هي أعجبتني.. وأعجبتنا جميعًا.. ألم تعجبك؟

– نعم.

جاء الرد صارمًا صادمًا، فقالت رشا بابتسام مفتعل محاولة التزام الهدوء:

– لماذا؟

- لا تصلح أن تكون عروسًا.

قال بثبات ولا مبالاة أشعلت فتيل الغضب إلى ذروته.

- ألا تريد الزواج؟

سألته أمُّه في آخر لحظة هدوء قبل اجتياح العاصفة.

- بل سأتزوج ندى.

وبعد برهة من صاعقة المفاجأة التي سقطت على مسامعهم كالحُمم المنصهرة.. ولم يستوعبها أحد منهم انهالت صفعة رشا بقوة على وجه بلال دون وعي.. في لحظة تجسَّدت ندى أمامها شبحًا تتباهى بفخر الانتصار عليها، وكأن هذه الصفعة نزلت على وجهها هي ليزول شبحها من أمام ناظريها لتخلص قلب ولدها نقيًّا سليمًا من بين براثنها.

وقف بلال واجمًا برهة لا يُحرِّك ساكنًا ..ناظرًا بعينيه الحادتين الثاقبتين إلى عيني أمِّه الغاضبة المحتقنة بالألم. لم يستوعب.. لم يفهم ذلك الانفلات المفاجئ الذي حدث لها وثورة البركان الخامد الذي تفجَّر بداخلها لأول مرة.. ولم يشعر بمدى انفطار قلبها عليه.. بينما أمسك حسام بزوجته المرتعدة وهو لا يصدق ما سمع من بلال، ولا يصدق ردة فعلها المباغتة القاسية، ثم تحول بلال في لحظة إلى طيف باهت مبعثر..و ركض كما ركض بالمضمار ليستبق الألم كما استبق الزمن ليغادر هذا المكان المظلم بالكُره والغضب دون

أن ينطق بكلمة ..و أسرع عمر ليلحق بأخيه.. بينما وقف حسام ينظر إلى زوجته المكسورة المرتجفة قائلًا بأسى:

- لماذا فعلتِ ذلك يا رشا؟

ردت رشا وهي تنهار من بين يديه على الأريكة تنظر في عينيه بقلب منفطر:

- أنت من فعلت بنا ذلك يا حسام.

دخل عمر صارخًا في تلك اللحظة:

- أبي.. لقد ارتطم بلال بسيارته على البوابة بسرعة جنونية.. وطلبتُ سيارة الإسعاف.

هرول الجميع إلى السيارة ونُقل بلال إلى المشفى..

كان بلال صامتًا واجمًا بعد إصابته بجرح قطعي بجبهته تمت مُداواته، ظلَّ صامتًا يهتز في مكانه شاردًا بنظرته الحادة خارج النافذة لا يتكلم ولا ينظر إلى أحد و لا يلتفت.. في لحظة انهارت رشا أمامه وضمَّته بحضنها وهي تبكي بقهر أفقدها صوابها:

- آسفة يا حبيبي.. لم أقصد إهانتك.. لم أشعر كيف فعلت بك ذلك.. إني أحبك يا بلال.. أحبك أكثر من روحي، ومن كل شيء.

لم يحرك بلال ساكنًا .. وكأنه انعزل في عالمٍ مظلم لا يرى فيه أحدًا، ولا يشعر فيه بأحدٍ ولا حتى ينفسه .. وبدأ يقبضُ يديه بقوة يعتصرهما في

حركات متكررة متزايدة تنفيسًا عن اضطرابه، وهو لا ينبس ببنت شفة، وهو محملق بعيدًا في اللاشيء.. لاحظه أحمد.. فأشار إلى حسام ورشا أن ينسحبا خارج الغرفة.. لقد بات بلال على وشك ثورة غير محسوبة العواقب. حاول حسام أن يسحب رشا إلى الخارج، لكنها رفضت، وقالت لبلال من بين دموعها المريرة:

- سأحتمل كل ثوراتك يا حبيبي حتى الموت.

- أرجوكِ، رشا اخرجي الآن.

قال أحمد منفعلًا، وحسام يحاول أن يشدَّ على يدها..

قامت رشا وهي تنظر إليه كأنها المرة الأولى التي لاحظت فيها صمت ابنها في الثالثة من عمره.. هل هدت صفعتها صرح الصبر الطويل في لحظة غضب منفلتة وأعادته إلى عالم العزلة؟ إلى ما قبل البداية؟ هل ستغفر لنفسها إن فقدته اليوم بسبب خوفها من ندى؟ أم أن هذا هو جزاء صفعتها القاسية لها ذات يوم بعيد وردًّا لدَيْنها القديم يوم حُرمت الأولاد بسببها في يوم الحادث؟ تشتت رشا في لحظة استسلمت فيها الأم المنهكة لضعفها، فتملك منها الخوف العظيم، وهزمها لأول مرة في حياتها.. اليوم أعلنت استسلامها التام.. ثم قالت له وهي على الباب تتعلق به بنظرتها الأخيرة المنكسرة حزنًا:

- لا تعد طيفًا يا قُرة عيني بعدما أصبحت حقيقة أعادت روحي علي قيد الحياة.

أغلق حسام الباب تاركًا أحمد مع بلال الذي لم يكترث لشيء حوله.. وانهارت رشا باكية بقهر ذريع .. وضمَّها حسام بكل ألمٍ حتى تهدأ.. خرج أحمد واجمًا بعد لحظات قائلًا لحسام:

- إنه لا يردد إلا اسم ندى.. يجب أن تأتي ندى إليه.

- سوف أتصل بها.

قالت رشا حاسمة للأمر، وهي تمسح عنها دموعها بحزم متناولة هاتفها بسرعة دون تفكير.. وقف حسام صامتًا يشعر بعجزه الكبيرِ أمام ما يمليه القدر عليه بضرباته المتلاحقة.. لم يعد هناك أي مفرٍّ من الاستسلام، فلم يُجْدِ الهرب ولا الحرب ولا النسيان.

- إنها لا ترد.. اذهب إليها يا حسام.

نظر حسام نظرة صمت أليم إلى عيني الأم المنفطر قلبها، وكادت تخرج عن صواب عقلها مستسلمة بروح ممزقة خوفًا على ولدها إلى مشيئة القدر:

- لا تنظر إليَّ هكذا.. اذهب إليها.. توسَّل إليها.. ارجُها أن تسامحك.

صرخت رشا.

صمت الجميع في دهشة مفعمة بالفضول.. ثم سأل عمر..

- علامَ تسامح أبي؟

- لا تتدخل.

صرخت به ثم عاودت النظر إلى حسام بعين التوسُّل.

- أرجوك يا حسام.. لا تترك بلالًا يضيع.

تركها حسام بنظرة شفقة مريرة على حالها وانفطار على قلب ولده وانكساره على حاله، وخرج من المشفى لا يدري أي جهة يقصد المهزوم.. وظلت الأم تنتظر انفراجة الأمل الأخير.

ثم توجَّه إلى المكتبة.. وقابَلَ عمرًا وهو في حزن تام واستسلام:

- أريد أن أتحدث إلى ندى لأمر طارئ على وجه السرعة؟

- ما الأمر؟

- ولدي في خطر.. بالمشفى.. يريد أن يراها؟

قال بصوت مهزوم مجاهدًا أن يحافظ على كبريائه المحطَّمة.

نظر عمرو إليه نظرة حنق طويلة كانت كفيلة أن تجمده في مكانه.. ثم قال:

- لماذا لا تبتعد أنت وعائلتك وتتركون ندى بحالها.. كما ابتعدت من قبل وتركتها في خطر بالمشفى تصارع الموت وحدها؟

- الأمر يتعلق بولدي وليس بي.. ولدي لا ذنب له ليتحمل عني ذنبي.

قالها حسام مهزومًا.

– هل سألت يومًا عنها بعد أن ألقيتها بالمشفى ورحلتَ لحال سبيلك؟ هل سدادك لأجر علاجها بالمشفى هو كل ما استطعتَ فعله لترضي ضميرك بعد فعلتك؟ هل أرضيتَ حقًّا ضميرك؟

– لقد نال لها القدر مني.. لا داعي لأن تهين كبريائي وأنا الآن أب مكلوم يا عمرو.

– حرمها القدر الإنجاب بعد أن أقر الأطباء حتمية استئصال رحمها بسبب النزيف المرعب يوم الحادث.. في حين عُدتَ أنت لحياتك لتنعم بدفء عائلتك.. بعد أن كسرت بقلبها حلمًا وقتلت به أملًا أنت وزوجتك التي أهانتها هي وسامحتك أنت، تركتما إنسانة ضائعة تحيا عاجزة على أطلال حلمها المؤْوَد، كان كل ذنبها أنها صدقتك؛ لأنها أحبتك.. وأنت رجل عابث بالأحلام، انتهيت من مغامرتك العابرة، وطويتها مع النسيان ولم تكن لتستحق لأن تسكن يومًا قلبها.

صمت قليلًا وكان حسام ينظر متجهمًا إلى الأرض ثم استطرد عمرو قائلًا:

– لقد طلبتُ منها الزواج بعد الحادث كي تتعافى نفسيًّا من أثر الصدمة بعدما بدأت تتعافى جسديًّا بعد أشهر طوال من الألم المرير، ولتشعر أنها ما زالت مرغوبة، ولتبقى تحت رعايتي بعد وفاة والدتها حزنًا عليها، وقد أصبحت وحيدة يتيمة، مكسورة من الهزيمة، أردتُ أن تستعيد ثقتها بنفسها،

وتتأقلم مع حزنها وعجزها الذي فرضه القدر فرضًا.. ولكنها رفضت تمامًا.. رفضت ما أسمته شفقة مني على حال العاجزة.. فدعمتها كصديق يؤمن بها وبقدراتها وموهبتها لتصل إلى ما صارت عليه الآن بعزيمتها الفولاذية وصلابة قدميها اللتين وقفت عليهما وحدها بعد أيام عذاب من الحزن والألم .. بعدما حُرمت الحلم بحياة طبيعية مثلك.. ودفعت هي ثمنًا باهظًا لنزوتك العابرة.. كيف تغفر لك الآن وأنت لم ترحمها ولم ترحمها زوجتك التي هاجمتها هي يوم غفرتْ لك أنت .. إن نقطة ضعفها الوحيدة هي حبها للأولاد ..تحزن لحزنهم، ولا تحتمل ضعفهم وتعشق نقاءهم.. لذلك احتوت وكفلت الكثير من المحتاجين في دار الرعاية الخاص بها التي أنشأتها بعيدًا عن الأضواء حتى لا يتم المتاجرة بها إعلاميًّا.. لأنها أشد منهم في حاجتها إليهم.. وكلما غلبتها فطرتها وأمومتها وحاجتها إليهم تذهب لتلقي ضعفها بينهم، فتعود أقوى مما كانت.

– لم أكن أعلم ما سيقودنا القدر إليه.. لقد أخطأتُ وحاولت إصلاح الخطأ، فلست معصومًا.. أرجو أن ترفق بنا، زوجتي أمٌّ مكلومة على ولدها الذي تصاحبه المعاناة منذ الصغر.

– إن ألم الأم المكلومة على ولدها المريض تمامًا كألم الأم المحرومة من الولد أيها الأب العظيم .. ولكنك لا تكترث إلا لما يعنيك.

– سوف أعتذر لها بأي طريقة ترضاها لتغفر.

- ماذا يفيد الاعتذار بعد الانكسار؟

- لا تكن قاسيًا على رجل مهزوم عاجز أن يحمي ولده من الخطر ومن الألم.

- إنك عاجز بنظرها منذ وقت طويل.. عاجز عن الوفاء.. عاجز عن البقاء.. أرجوك أن ترحل وتتركها لحياتها.. ما مرت به من معاناة وشقاء أنت لم تدرِ به، ولم تتحمله عنها وكنت سببًا مباشرًا به، وتحمَّلته هي وحدها بألمٍ مريرٍ حتى تعافت .. وعليك الآن أن تتحمل وحدك.. مشيئة قدرك.

دخلت ندى إلى المكتب فجأة وصُدمت بوجود حسام:

نظر حسام إليها.. نظرة ألمٍ منكسرة.. نظرة الضعيف المتوسِّل الذي يرفع راية استسلامه أمام القلب المنتصر على النسيان بعدما اغتال حلمه يومًا بوعد زائف تلاشى كالسراب.. بينما قال لها عمرو محاولًا أن يُنهي الحوار ويجنبها الحديث مع حسام:

- لقد حجزت التذاكر غدًا.. والآن لدينا عمل كثيف.

ثم نظر إلى حسام يُودِّعه محاولًا إنهاء أي محاولة للحديث.

- شرَّفت أيها المهندس.

تلك النظرة المنكسرة بعينيه أثارت قلق ندى.. فسألته قبل أن يغادر:

- ما الأمر؟

في تلك اللحظة فاض الألم من الغيم الذي ملأ سماء الحزن بقلب الأب المنفطر فانهمر المطر..

- إني أفقِدُ ولدي وأعجز أن أساعده.. أرجوكِ .. ساعديه.

- ماذا حدث، أين هو؟

- ندى.. لا يمكن أن تذهبي .. صرخ عمرو فيها.

فقاطعته حاسمة:

- لن أتركه.

وأسرعت تغادر دون أن تستمع إليه ولحقها حسام الذي أعطاها مفاتيح سيارته كي تقود؛ فكان لا يقدر في حالته التي لم يمر بها من قبل على القيادة.

- سامحيني يا ندى.. لم أدرك إلا اليوم كيف عشتِ ألمًا عظيمًا مستمرًّا بسببي.. بسبب ضعفي وغروري وأنانيتي.

- ماذا حدث لبلال؟

سألته وقد تجاهلت ما قال.

- أخبرنا بقرار صادم أنه يريد الزواج بكِ .. فصفعته رشا لأول مرة بحياتها.. فانهار.. ولا يودُّ أن يتحدث إلينا، ولا يردد إلا اسمك، ولا يريد إلا أن يراكِ.

- يتزوجني أنا؟

توقفت بالسيارة على جانب الطريق من بغتة الصدمة وهولها.

- نعم.. أعلم أنه لا يكذب.. كما فعلت أنا من قبل.

- وهل يمكن لبلال أن يتزوج؟

- ماذا تقصدين؟

قالها وقد دب الخوف في أعماقه في لحظة أرجفت قلبه رجفة زلزلته لأن تكمل انتقامها منه للنهاية.

- أقصد هل أخبركم طبيبه أنه يستطيع الزواج وأن بمقدوره أن يعيش حياة طبيعة لما في الأمر من تخوف انتقال المرض وراثيًا؟

صمت حسام حين شعر أن مخاوفه بدأت تتجسد أشباحًا من الظنون أمام عينيه.. ثم قال:

- ندى.. لو أمسكتِ خنجرًا وغرسته بقلبي فسأسامحك.. اقتليني أنا ولا تقتليه انتقامًا.

نظرت ندى إلى عينيه المغرورقتين بالدموع نظرة شفقة، ولم ترد عليه ثم التفتت إلى طريقها.

تشابهت أحلامنا فالتقينا ذات حلمٍ

كم يهيننا ضعفنا عندما نُودِعه أمانة بين يدي من آمناهم، ومن أحببناهم، ووثقنا بهم، وأسندنا قلوبنا إليهم ونحن إليهم مطمئنون أنهم سيرفقون بنا وبقلوبنا الهشة، ويكونون لنا حمايتنا ودروعنا الآمنة من عبث الرياح وزيف الأوهام، ثم نظل أمد الدهر لا نعي ولا نصدق أن الطعنة التي استقرت بالقلب بغتة استقرت ببساطة بلا حرب وبلا مقاومة؛ لأنها كانت بأيديهم الآمنة.. وعندما تدور الأيام الدُّول ليصيبهم ذلك الألم المرير نفسه، لا ندري هل نشفق عليهم لشعورنا بوجعهم الذي عشناه بأيديهم أم نشفي غليلنا بتشفِّينا رغم حطام أرواحنا التي لا تعود كما كانت بعد الانكسار ولا يشفيها الانتقام، ثم نمضي ويمضون بطريقنا جفوفا باهتين كأوراق الخريف المتكسرة المتساقطة على جانبي الطريق .. لا يرويها مطر ولا ينبت فيها ربيع.

وصلت ندى وحسام إلى المشفى.. وفي المصعد قال لها حسام في محاولة رجاء أخيرة:

- أرجوكِ، ندى.. لا تحطمي قلب بلال.

نظرت إليه ندى نظرة هادئة، فقد كلّت العين النظر إلى بقايا أمنيات تكسرت على نصال الخذلان.

كانت العائلة تجلس في صمت على باب الغرفة.. بينما كان عبد الرحمن وأحمد يرافقان "بلالًا" في غرفته.. وما إن وقع نظر رشا على ندى وهي قادمة يتبعها حسام اتجهت إليها في لهفة مغرورقة العينين بدموع الرجاء الأخير.. قائلة:

- بلال لم يعد في حاجة إليّ .. ولكنه في حاجة إليكِ أنتِ كي لا يضيع.. أرجوك لا تتركيه يضيع.

لم تحاول ندى أن تقسو عليها بنظرتها أكثر مما هي فيه من ألم الانفطار، ولم تقل لها أي شيء، فلا جدوى من مواساة أمٍّ منفطرة القلب على ولدها في لحظة عصيبة تواجه فيها فَقْدَه.

دخلت ندى إلى الغرفة.. وما إن وقع نظر بلال عليها انتبه وظل واجمًا محدِّقًا إليها في صمت.. وقد بدأت حركته العشوائية والاهتزاز المتكرر في الهدوء التدريجي.. ابتسمت له ندى.. لم يبدِ اكتراثًا لابتسامتها التي لم تحرك له ساكنًا.. ثم جلست أمامه وقالت:

- بلال.. الحمد لله أنك بخير.

لم يرد.. وظل مُحدِّقًا بنظرته ثاقبة، كأنه يود أن يقول كل الكلام المتزاحم بداخله، فعجزت الأحرف أن تصف ما يريد أن يقول.. وبعد برهة صمت.

مَدَّ يده برفق بعد أن توقَّف عن قبضها بعنف حتى لامست أطراف يديها فمسح عليها بأصابعه المتراخية ، كأنه يبدأ في عزف لحنه الذي ينصت إليه بداخله ...المتدفق مع الفيض من أعماقه، ثم أمسك بها بلطف وسحبها ببطء إلى وجهه حتى لامست وجنته، ثم سحب اليد الأخرى بعدها لتلامس وجنته الأخرى، ومن بين كفَّيها ظلَّ شاخصًا بنظرته الجامدة إلى الأرض، كأنه يستعد للتحليق فوق الجليد مرة أخرى، وهو يلامس حلمه بين كفَّيها .. ثم تحوَّل بنظرته رويدًا رويدًا من الأرض حتى استقرت بعينيها .. وميضها كالبرق ضرب أعماقها، حيث هربت الأحرف من فوق الشفاه اليابسة في تعبير أبلغ وأعمق وأقوى من الكلمات التي تعرفها وتكتبها في وصف أدق الشعور، ولكنها لم تدرك هذا الشعور من قبل، ولم تعرف كيف تصفه.. انكسرت نظرة رشا أمام هذا المشهد القاسي على روحها، والذي لم يتحمله حسام، فخرج من الغرفة ليُلقي جسده المهزوم على المقعد، فلم تعد تُجدي الحرب أمام صمود هذا الحب، ولم يعد يُجدي الفراق ولا النسيان فالقدر أتّم كلمته فوق كل الحروب، فوق كل القلوب، فوق العقل والمنطق والخوف والحزن والألم.

طلب أحمد من الجميع الخروج.. وتَرْك ندى وبلال وحدهما في عالمهما معًا.. وهما ما زالا يتعانقان بنظرتيهما الصامتتين وأيديهما تتشابك في سكينة و سلام .. فلا أحد في تلك اللحظة يملك على هذا الفيض بين القلوب سلطانًا.

بدأت ندى الكلام برفق من بين ارتجاف أوصالها وهي تحاول الثبات أمام هذا الفيض الجارف الذي تتوق إليه روحها .. وما زال هو ممسكًا بيديها على وجنتيه.

- لا أحب أبدًا أن أراكَ ضعيفًا، لا أحب أن أراك إلا طيفًا متوهجا على الثلج.

- أنتِ معي في أحلامي فوق الثلج وفوق القمر.

- وإنك نقي كالثلج.. وساحر كالقمر.

- وإنك دائمًا رفيقة الثلج والحلم.

- ولكننا لا نبقى طويلًا في الحلم.. كم تمنيتُ لو باستطاعتنا ألَّا نغادره.

- ستبقين دائمًا ذلك الحلم الجميل الذي يعانقني.

ابتسم لها ابتسامة صافية كالسماء، أسعدت قلبها المرتجف رغم الخوف في لحظة نقاء لم تعهدها من قبل.. فاضت نبعًا صافيًا بقلبها الحزين رغمًا عنها حين عبر من القلب النقي إليها ذلك السريان العذب ليحييه.

-ندى.. هل تتزوجينني؟

قالها بلال في هدوء وجمود.

صمتت ندى التي لا تعرف كيف تخذل هذا القلب البريء وتُفيقه على واقع صادم من المستحيل.. ثم سألته بعد شرود برهة في عمق عينيه بهدوء:

- لماذا تريد أن تتزوجني يا بلال؟

– لأنك رفيقة حلمي الذي أذاب بداخلي جدار الثلج ..ولأنك تشبهينها كثيرًا مثلما كانت هي تشبهني.

– مَن أُشبه؟

سألت ندى في دهشةٍ، وقد انتبهت إلى الكلمة بعناية وترقُّب.

– ندا.

– من تكون ندا؟

ازدادت دهشتها ذهولًا.

ترك بلال يديها لتنسحب في هدوء من فوق وجنتيه وهي ما زالت مترقبة إلى إجابته ثم قال :

– تلك الفتاة كانت مثلي مصابة بالطيف، كانت ترافقني في طفولتي وتخضع معي للعلاج بالمركز، وكانت تعرفني وأعرفها حين كنا جدر ثلج لا نستطيع أن ندرك ما نشعر به أو نفهمه؛ لأننا كنا لا نعرفه، ولم نعرف كيف نترجمه إلا بأن نتراقص فوق الثلج معًا ، ولكني عرفته عندما عرفتُك، عندما أدركتُك .. عندما قرأتُ لك ما لم أستطع أن اقوله وقت كان يجب أن أقوله، فتعلمتُ منك كيف أقوله، ولكنها كانت قد رحلت.. غادرت فجأة، ولم تعد .. وتركتني بالحلم وحيدًا حتى التقيتُها بطلة في روايتك والتقيتك.

– إلى أين رحلت؟

- هاجرت مع أهلها ولم أرها منذ ذلك الحين.

- هل كنت تراها دومًا؟

- نعم ..دومًا .. في كل يوم .. وفي الحلم.

- اسمها ندا؟

- نعم.

- هل انقطعت أخبارها تمامًا عنك منذ أن رحلت؟

- نعم.. ولكنك أعدتها لي برسم صورتها بكل تفاصيلها، كأنك تعرفينها جيدًا.. هي بطلة من بطلات رواياتك.. هي نجمة الحلم الساطعة دائمًا بداخلي، لذلك قرأتُ كل رواياتك وكتبك ..هي أنتِ حين شاركتني الحلم على الثلج.

ابتسمت ندى بعمق واقتربت منه، وقد انتاباها شعور عميق بالامتنان أن أنقذها القدر من لحظة عصيبة على نفسها كي لا تكسر أملًا بالقلب النقي الذي شغفها جنونه وتلقائيته، فهي تدرك جيدًا أنها لن تنساق بلا وعي إلى لحظات الجنون مهما اجْتَاحْها ذلك الطيفُ الساحر ليُضيْعْ عتمتها.. وقد عرفت الآن السر .. إنه لا يتعلق بها هي.. إنه يتعلق بحلمه الساكن به و صورة من تشاركه منذ الصغر، ولأنها رسمت له بدقة صورة هذا الحلم وشاركته دون قصد منها، فتعلق بمن شاركته حلمه الذي لم يستطع البوح

به، ولم يستطع أن يتمسك به وقت كان طيفًا باهتًا، وقت لم يستطع أن يدرك ما كان يجب أن يقول لرفيقته قبل الرحيل.. فيحاول الآن أن يستعيضه فيها.. عندما استطاع، ثم أخذت نفسًا عميقًا و قالت له مبتسمة بحماسة:

- هيا، احكِ لي عن ندا.

- لا أحد يعرفها إلا أنتِ.

- وأعدك أنه لا أحد سيعرف عنها. وثقت بك يوم رقصة الثلج واليوم ثِق أنت بي.

- إني دومًا أثق بك.

- هل رقصتَ مع ندا على الثلج؟

- إنها هي من علَّمتني كيف أفرد جناحيَّ وأُحلِّق فوق بساطه.

- ولِمَ لم تُراسلها بعد رحيلها؟

- لم أعرف .. ولكني الآن أعرفك.. إنك تشبهينها كثيرًا.

- ولكني لستُ هي!

- لو لم تكوني هي لما شاركتني الحلم.

- شاركتُك لأني شعرت بك، ورأيت في عينيك جمال حلمك النقي؛ لأنني أيضًا لديَّ حلمي الذي يُشبه حلمك إلى حدٍّ كبير.

- وما حلمك؟

- أحلم بولدي الذي لا ألقاه أيضًا إلا في الأحلام.. أرسمه بتفاصيله الدقيقة الناصعة على جدران قلبي ليضيء عتمته، أغمره بحبي وحناني كي أرتوي، ولو كان مقدَّر له أن يأتي إلى الدنيا، لكنتُ أسميته "بلالًا".

- هل فقدتِ ولدكِ؟

ابتسمت ندى رغم الألم والسُّحب التي تزاحمت على مرآة عينيها في الحال، والتي أوشكت أن تمطر وقت اعتصر القلب قصته الحزينة في تلك اللحظة الصادقة. وقالت بارتجاف صوتها:

- بل فقدتُ وطنًا.

ثم قفزت دمعة حارة كبداية الغيث، لم تستطع الثبات على حافة مقلتيها ثم تداركت نفسها سريعًا وبقوة مسحت السُّحب قبل أن تفيض وتنهمر.. وقالت بثبات:

- ولكني أرسم حلمي في عالمي دائمًا حتى أظَلَّ أحياهُ وحدي.. مثلما تفعل أنتَ.

- ولكني لم أعد وحدي وأنتِ معي.

- بل ندا معك.. حلمك معك.. لا تتخلَّ أبدًا عن حلمك يا بلال.

ثم همَّت بالقيام وهي تقول له:

- لا تُسِئْ إلى أمك وتتسبب بحزنها.. هي تحبك كثيرًا، وأبوك أيضًا.. والآن أصبح لك معجبون ومحبون كُثر بعد فوزك بالبطولة.. والجميع أصبح ينتظر منك فوزًا ساحقًا، وأن تحطم الرقم القياسي بالأوليمبياد.. تذكر أنك أصبحتَ أنت الآن نجمًا ساطعًا وحلمًا للجميع.

- هل ستحضرين بطولة الأوليمبياد لأفوز كما فزتُ اليوم؟

- بلال، سوف تفوز لأنك يجب أن تفوز.. سوف تفوز لأنك تستطيع الفوز.. لأنك قررتَ هذا الفوز.. لأنك لا ترى حلمك على مرآة أحد.. لا ترى حلمك إلا بعينيك.

حدَّثته بحماسة كبيرة ثم استطردت:

- هل تعدني أنك ستفوز بالأولمبياد؟

نظر إليها نظرة عميقة باسمة ثم قال:

- أعدكِ.

- وإني أثق بك.

- ندى.. لا ترحلي.

- لن أرحل أبدًا.

- لا تتركيني وحيدًا كما تركتني .

- لن أتركك أبدًا. أعِدك بذلك.

ابتسم بلال بعد جمود طويل، ثم سألته ندى في فضول:

- هل تعلم والدتك عن ندا؟

-لا.

- أليست والدتك صديقتَك؟

- إنها كذلك، ولكنها لا تصدق أني لم أعُد طفلها الصغير.. وأني أستطيع أن أعبِّر عن نفسي وحدي ، وأخوض حياتي بدون توجيهها و بلا خوف.

- لا تقل ذلك.. ربما أنت لا تسمح لها بالاقتراب منك؛ لأنك لا تحكي لها عما يجول بخاطرك وتشاركها، وأنت تعلم جيدًا كم تحبُّك.

- لقد أحضرتْ لي عروسًا لا أعرفها، ولا تشبهني، وتريدني أن أتزوجها.. إنها حتى لم تخبرني. لا تصدق أنني أستطيع الاختيار.

صمتت ندى برهة ثم قالت:

- بلال.. ربما تصرفت أمُّك بطريقة لا تناسبك، ولكنها تحبك، ولم تكن لتفرض عليك أي شيء دون رغبتك.

- ولكنها لم تسألني.. وصفعتني كطفل صغير عندما رفضتُ، وأخبرتها أني سأتزوجكِ.

تجهَّم بلال قليلا .. ولم تود ندى أن تضغط عليه ثم قالت:

- حسنًا، لنتجاوز هذا الأمر.. يجب أن تتقبل أخطاء الآخرين في بعض الأحيان، وخصوصًا إن كانوا يحبونك ويهتمون لأمرك.. وصدقني لا أحد في هذا العالم يمكنه أن يهتم لأمرك مثل أبويك.

- وأنت؟ ألا تهتمين لأمري؟

نظرت ندى إلى عينيه نظرة طويلة محت في أعماقها كل ملامح الحزن ثم قالت:

- بلى، أهتمُّ لأمرك كثيرًا ولأمر ندا أيضًا..

ثم ابتسمت ابتسامة ناعمة وقالت:

- يجب أن أنصرف الآن يا بلال.. ويجب أن تخرج فورًا من هنا، وتعود إلى حياتك وحلمك والتمرين.

- ألن نلتقي ثانية؟

- سنلتقي.

- هذا وعد؟

- نعم، وعد.

أشرقت الابتسامة وتوهجت على وجهها الحزين، وأضاء الطيف بعينيه بألوانه الزاهية التي انعكست على ظُلمات روحها بالأمل والسكينة .. ثم خرجت من الغرفة.. وأغلقت خلفها الباب، وما زال قلبها خافقًا متوهجًا،

ثم وقعت عيناها بعيني حسام المنكسرتين مباشرة فلم تطيل بهما النظر، ثم مضت دون أن تنطق بكلمة، كأنها ما زالت تحت أسر ذلك الطيف الذي أضاء روحها بعد طول ظلام.

نادتها رشا.. قبل أن تدخل إلى ابنها.. وقالت لها في استسلام وانكسار تامّين:

- أشكرك لتلبيتك نداء ولدي.

لم تخرج ندى عن صمتها وهي مغمورة في هذه الحالة حتى لا تنتهي، فربما لن تتكرر هذه اللحظة وهذه السعادة مرة أخرى وغادرت.

ثم هُرعت رشا إلى ابنها لتجده قد عاد إلى وعيه، وأشرق من جديد.. وبعدما اطمأنَّ أحمد بإلقائه نظرة سريعة على وضع بلال تركه مع عائلته.. وخرج مسرعًا ليلحق بندى، بينما كان حسام ما زال لا يحرك ساكنًا على مقعده كعاجز لا يستطيع الحراك.. يربت على كتفه ماجد مواسيًا فقال له منكسرًا:

- لقد هزمني ولدي يا ماجد.. وقتلتني هي بسهم مسموم انطلق من أوج نظرتها الناقمة.. استقر في صميم قلبي.. لا أستطيع أن أنتزعه الآن كما انتزعتها هي يومًا ما منه بالقوة .. كل ذلك من أجل ولدي كي لا أخسره مرة أخرى.

– القدر اليوم يقول كلمته يا حسام لندرك كم كان جُرحها عظيمًا حتى جاء ولدُك ليضمِّده.

– نعم.. إنه القدر.

***

– أستاذة ندى.

ناداها الدكتور أحمد.. وهي على البوابة تستوقف سيارة أجرة قبل أن تلتفت إليه.. ثم قال:

– أرجو أن تمنحيني القليل من وقتك، أريد التحدث معك بشأن بلال، فأنا طبيبه المعالج والمشرف عليه.

– لا تقلق يا دكتور، إن "بلالًا" على ما يرام.

– أعلم ذلك.. لكن هناك أمرًا ضروريًّا أودُّ أن أعرفه منك، وأمرًا أود أن أخبرك به .. هلَّا شربنا معًا فنجانين من القهوة؟

– حسنًا، تفضل.

ثم عادا إلى المشفى ليتناقشا فيما دار من حوار مع بلال.. وبادر أحمد بالكلام:

– يهمني أن أعرف مدى تقبُّلك لعرض بلال للزواج بك .. سوف يفيدني هذا الشيء في تقييمه الآن.. تعرفين أنه تحت إشرافي وأقوم بتقييم سلوكه، وكل التغيرات التي تطرأ عليه.

- تقبَّلت كل كلامه وأفكاره.. إنه إنسان رائع حقًّا.

- كيف تقبلتِ فكرة الزواج؟ وماذا كان جوابك؟

- أريد أن أعرف منك عن هذا الأمر تحديدًا .. هل هو مستعد كرجل للزواج وتحمُّل مسؤولياته دون عواقب تؤثر فيه وفي حياته في المستقبل؟

- هل إجابة هذا الأمر يتعلق عليها قرار ما؟

- هل تخشى موافقتي؟

قالتها بتهكُّم بعض الشيء.

- بل أخشى رفضك.

قالها مبتسمًا.

- لم أفهم.

- رفضك سيصيبه بنوع حادٍّ من الإحباط والحزن .. مشكلته التي ما زالت قائمة وتُلازِمه من أثر الطيف هي أنه لا يستطيع أن يقطع فرط تعلقه بالأشياء التي يشغف بها مرة واحدة.. لا بد أن يحدث في ذاكرته إحلال.. بمعنى أنه إذا امتلك شيئًا يحبه فإنه لا يغيره ولا يكسره أبدًا إلا إذا امتلك شيئًا مثله أو أفضل منه في الشغف به، حين ذلك يُنحِّي القديم جانبًا، ويفقد شغفه الشديد به.. وفقط ينشغل بالجديد.

– تقصد أني لا أرفض فكرة زواجه بي إلا بعد أن نجد الفتاة المناسبة لتحل محلي في تفكيره فيتعلق بها؟

– نعم، بالضبط.

– وكيف سأواجه أهله والمجتمع وجمهوري إن وافقت على الزواج بشابٍّ يصغرني بفارق كبير؟

– سوف لا يتقبلون الأمر بالطبع .. ولكن ما حدث لبلال اليوم ربما كان سينتهي بمأساة إن لم تحضري إليه.

– وماذا إن لم نجد فتاة لتشاركه حلمه؟

– سوف نجد.. لا تقلقي.. فقد ساعديني على ذلك إذا كان يهمُّك أمره.

– كل ما يهمني هو نجاحه، إيمانه بنفسه، وتفوُّقه على ضعفه، والفوز بالأوليمبياد، سعادتي به هي سعادته بحلمه.. هي ألا ينطفئ.

– إذًا لا بد أن تكوني بجانبه، أنت نافذة النور في عالمه وبوابته من الحلم إلى الحقيقة.

– هل أخبرك عن ندا من قبل؟ تلك الفتاة التي كانت رفيقته بالمدرسة وبرنامج التأهيل؟

– نعم، لذلك أخبرتك أنك له صورة مجسَّدة من حلمه البعيد.

ثم تنهد مبتسمًا.. مستطردًا:

-الحمد لله أنه أخبرك بالأمر.

- هل أخبرتَ أهله عن هذا الأمر؟

- لا.. لأني لم أعلم بهذا الأمر إلا من قريب.. منذ رقصة الجليد معك ، وكان طلبه ألا أخبرهم.

- وطلب مني هذا أيضًا.. هل أعطيتني معلومات عن الفتاة؟

- ستبحثين عنها؟

- أظنها مثل حالته، ما زالت تتعلق هي الأخرى بشريك حلمها إلى اليوم، وما إن يلتقيها فسينتهي تعلقه بي.

- تفكير منطقي.. أشكركِ عليه، كنتُ قد بدأت البحث عنها بالفعل، ولكن من الأفضل أن تساعديني فذلك سيكون رائعًا بما أنه أخبرك .

- شكرًا لك.

- إن قوة كلماتك وتأثيرك في أعماق هذا الشاب ما يجعلني أثق بك كما يثق بك تمامًا.

- وإني أومن به وبحلمه، وأثق به تمامًا.

ابتسمت وغادرت، ثم اتصل هو بمركزه يطلب استخراج بيانات الطيف الآخر البعيد.

بَطَلٌ وهميٌّ لرواية حمقاء

خرج بلال من المشفى، وقد تصالح مع أمِّه بعدما استردَّ شتات نفسه من عالم العزلة بعد حديثه مع ندى.. وقد أخبرته أمُّه مستسلمة موافقتها على أي قرار يتخذه من أجل سعادته.. فاعتبر أن هذا الأمر يتعلق بموافقتها على زواجه بندى، فارتاح لقرارها واستجابتها. وظل حسام مهمومًا حزينًا، لا يعرف كيف يُلملم حطام قلبه بعد أن هزمته المرأة التي أحبَّها ذات يوم بعيد، ثم أشعلت النيران بحبها الخامد بقلبه حتى احترق.

عاد بلال إلى حياته الطبيعية.. لكن حاجزًا من الخوف بات يكبر بينه وبين أبيه الذي أصبح يخشى نظراته وابتسامته إذا تطلع إلى هاتفه أو إذا لمعت عيناه وقت ذكر اسمها، كأنه كُتب على قلبه أن ترتشق به أسهم الألم المشتعلة بنظرات الحب التي تغمر ولده العاشق المسكين.

وسافرت ندى بضعة أيام، وقد أرسل إليها الدكتور أحمد بيانات ندا رفيقة بلال القديمة، ورفيقة حلمه الحقيقية. وبدأت بدورها بكل حماسةٍ

تبحث عن بياناتها في كل الصفحات الإلكترونية الخاصة بمجتمعات التوحد.. لعلها تعثر على حساب لها.. أو أي دلالة عنها للتواصل معها، لكن محاولاتها المتكررة باءت بالفشل، ولم تُجدِ نتائج للبحث المستميت.. ولكنها لم تيأس، وعاودت البحث مرارًا وتكرارًا لعلها تجد غايتها من أجل أن تُسعد هذا الطيف ذات يوم قريب.. كما أسعدها وجوده بعد حزن طويل.

مضت الأيام واتسعت الفجوة مرة أخرى بعد طول غياب بين حسام ورشا بعدما استسلمت رشا لرغبة ولدها في الاستمرار في هذا الطريق المخيف الذي يظن أن فيه سعادته بالنهاية .. ولكنه لا ينتظر النهاية قدر ما كان يعيش سعادته في لحظتها .. وأهملت شعور حسام للمرة الثانية.. فهي تعلم جيدًا مدى حساسية وجود ندى بحياته مرة أخرى.. حتى وإن كان الزمن كفيلًا أن يسدل ستار النسيان على صفحة الذكرى.. فإن إثارة غبار الذكرى صار يُجسِّدها من جديد في قلب صاحبها، فلم يعد يُجدي النسيان.

وندى.. تلك الأم التي وئد حُلمها في ليلة كاحلة الظلام وقُبر بين طيات الزمان والأيام .. هل بعث إليها القدر بحلم جديد؟ كانت ندى تفكر وهي ترتشف قهوتها في مكتبها بعد أن عادت من سفرها في ترتيب هذا القدر الجديد الذي أشعل بداخلها ذكرى الحلم البعيد .. وظل شاغلها الكبير هو أن تجد فتاة الحلم.. ليرتاح قلب العاشق الذي أضاء حياتها ببصيص السعادة الغائبة، وأسعد قلبها الحزين في فترة قصيرة.. ورغم قدرتها على الانتقام من قاتلها صاحب الجرح الغائر والطعنة الغادرة، بأن تكسر قلبه عندما يتحطم

قلب ولده أمام عينيه عاجزًا لا يستطيع في هذه المرة الهرب من قدره. فإنها حين سرى اسم بلال على قلبها مَرَّ كالنسيم شعرت، كأنه قطعة منها رأت فيه ابتسامة ولدها الذي لم تره.. ولمست فيه حلم الأم المقبور الذي لم تَحْيَه ولم تلمسه.. وعزمت ألَّا تحطم له حلمه البريء مثلما اغتال أبواه ذات يوم حلمها .. لأنه نقي، صادق.. على سجيته لا يستحق أن يعش ألمًا عميقًا أو يحيا مكسور القلب أو مهزومًا ..ولا أن يدفع ثمنًا لذنب لم يقترفه .. ثم جاءها اتصال قطع شرودها.. فابتسمت وكان هو بلال:

- صباح الخير ندى.

- صباح الخير بلال.. كيف حالك الآن؟

- بخير.

- هل عاودت التمرين بالنادي؟

- نعم.

- رائع.

لحظة صمت.. ثم قال بحماسة:

- أريد أن أراكِ.

وكأنها كانت تود سماع هذه الكلمة في أعماقها، ولم تتردد لحظتها بالقبول.. وقالت في شغف وحسم:

- حسنًا، سوف أمرُّ عليكَ بالنادي.

- في انتظارك.

ردَّ في حماسةٍ متأجِّجة بالفرح.

ذهبت إليه هي أيضًا بتلك الحماسة التي قادتها رغمًا عنها لرؤيته، تلك لحظات شغف تتوق إليها الروح العطشى ولو كانت عابرة والتي نسرق فيها سعادتنا الحقيقية عند رؤيتها تلمع في أعين من نحب، نلمسها في معانقة أعيننا لأعينهم وقت اللقاء، وفي شغفنا بلقائهم كي نسعد بوجودهم، نرتوي من حبهم الذي يغمرنا أمنًا في لحظات بقائنا معهم.. وفي لحظات الجنون التي نتلوَّن فيها كالطيف في عيونهم.. حتى وإن تلاشى بعدها كالسراب.

أضاءت ابتسامته فرحًا وقت أشرقت في عينيها تلك الشمس التي غمرتها دفئًا وحنينًا. ونزلت إلى المضمار بزيِّها الرياضي، وقالت له بحماسة رياضي:

- هيا لنتسابق.

- لا أستطيع أن أسبقك.. أنتِ نجمة لا يصل إليها المتسابقون.

قال بلال وهو ينظر إليها نظرة حادة متوهجة.

- بل أنا بشر، وأنت بشر، وسوف أسبقك إن لم تقرر الآن أن تسبقني أيها العدَّاء البطل.

ثم بدأت الركض بحماسة. فانطلق بجوارها وحولها، وبدأ في الدوران راكضًا بسرعته وخِفَّته كأنه يستعد للتحليق على الجليد معها من جديد، ثم أبطأ وثباته وركض بخفةٍ ومرونةٍ كي تلحقه، ثم عاود الدوران حولها

ككوكب يدور في مداره حول الشمس، ثم ركض بظهره باحتراف الأبطال، ثم بوجهه الساطع كالبدر ينثر الطيف حولها في كل مكان .. يحيطها بأجنحة الفرح المُلوَّنة من كل اتجاه وقد أشرقت ابتسامته الصافية بين غيمة الألم القاتمة بداخلها وأحيت بها أملًا دفينًا سرى إلى الروح بعد موت طويل، وحلم قديم تجسَّد في بريق عينيه لم يعد يرى النور.. ثم توقَّفت عن الركض بعد أن شعرت بالتعب.. وقالت له مداعبة:

- أراكَ ترقص ولا تركض.. هل ترقص أيضًا على أرض المضمار؟

- إني معك أرقص فوق الأرض وفوق الثلج والسحاب.. هل تشاركينني الآن؟

- لا.. لقد تعبت.. لا أقوى على منافسة بطل عدّاء.

- وهل أقوى أنا على منافسة نجمة فيروزية في السماء؟

نظرت في عينيه المتلألئتين اللتين بعثتا في روحها أمنية حزينة قد خمد وهجها إلى الأبد في القلب المهجور.. ثم قالت له بعد أن جلست على أريكة الاستراحة:

- ماذا ستفعل إن رأيت ندا أمامك ذات يوم؟

صمت بلال برهة كأنه لم يفهم المغزى من سؤالها، ثم أجابها بحماسةٍ:

- بل إني أراكِ في كل يوم.

- لا.. أقصد ندا، رفيقة حلمك.

شرد بلال في تلك اللحظة برهة ثم قال:

– هي نجمتي البعيدة.. لا أدري إن كانت ستعود مرة أخرى.. ولكنك أنت حقيقة.

– حسنًا.. ما رأيكَ أن تحكي لي عنها بالتفصيل؟ لقد قررتُ أن أجعلها بطلة روايتي الجديدة.

– حقًّا؟

– نعم. أريدك أن تذكر لي عنها أدق التفاصيل، وإن كان لديك صورة لها أريد أن أراها.

– نعم بالطبع لديَّ صورة.. عندما كنا صغارًا .. إنها تُشبهك كثيرًا.. أحقًّا ستكتبين عنها بطلة في روايتك؟

– وعنك.. فأنت البطل.. وسأهدي هذه الرواية لك، وربما تصلها في مكانها البعيد.

ابتسم بلال بسعادة غامرة، وابتسمت له، وقد أدركت في سعادته غايتها.

وكانت سالي تلك الفتاة التي رفضها بلال لسوء الحظ حاضرة بالنادي، وشاهدت هذا اللقاء، وسرعان ما قامت مع رفقتها بالتقاط صور لندى وبلال في أثناء ركضهما، وفي أثناء الحديث بينهما، وسرعان ما نزل الخبر في لمح البصر على صفحات التواصل .. خبر عاجل على صفحات الميديا الإلكترونية، حيث انتشرت الصور التي اختيرت بعناية لتفجر القنبلة..

وانتشرت العناوين المثيرة انتشار النار في الهشيم.. شاهد قبل الحذف "العشق يتوهج على مضمار السباق"، "ندى وبلال قصة حب غريبة تتخطى فارق العمر"، "بطل الجمهورية المؤهل للأوليمبياد وبطل رقصة الثلج وبطل قصة الحب الغريبة مع النجمة اللامعة "، "علاقة غامضة بين النجمة والبطل".

وصلت الصور إلى كل الصفحات والمواقع في لمح البصر.. كل ذلك كان يمكن أن يتم تجاوزه بالتجاهل، ولكن الخبر الذي انفجر بقلب ندى لحظة اتصل بها عمرو ثائرًا يخبرها أن تفتح صفحتها لتشاهد آلاف المُشارَكات والتعليقات الجارحة التي انهالت على الصور، وعلى الخبر الصاعق تحديدًا .. كان ذلك التعليق الناري الجارح الذي نشرته سالي حين فجرت البركان الخامد ليتساقط حممًا تصهر القلوب وتحرق الجميع وأولهم بلال.. حين علقت على الصورة ببركان غضبها قائلة:

" كنت أظنكِ صديقة والدته عندما حدثني البطل عنكِ، ولم أكن أظن قط أن النجمة اللامعة من تكتب عن المبادئ والفضائل هي بنفسها من تستغل ضعف شاب" مريض بالتوحُّد" من عمر أولادها من أجل دعاية رخيصة لروايتها الجديدة".

لاقى هذا التعليق آلافًا من الإعجابات والمشاركات في دقائق معدودة، والتي تداولته كل الصفحات حتى بعد أن قام عمرو بحذفه من صفحة ندى، ولكن ما جدوى حذفه، وقد انتشرت النار في الهشيم.. وسرعان ما

تحولت العناوين.. إلى.. "بلال البطل الأوليمبي مصاب بالتوحد" .. "بطل رقصة الثلج غريب الأطوار".. " متوحد ونجمة تفقد بريقها ".. " بلال المتوحد ملهم لرواية مثيرة للنجمة الكبيرة".

وصلت الأخبار إلى رشا بعدما انهالت الاتصالات عليها كالسيل .. فانهارت من الصدمة، ووصلت إلى حسام في مكتبه. بعد أن تداولها كل المهندسين والموظفين رافضين المتاجرة بمرض بلال بهذه الطريقة الوضيعة.. والذي ما إن رأى الصور حتى انفلت زمام غضبه واتزانه وخرج ككتلة لهب حارقة متجهًا إلى النادي ليضع حدًّا لهذا الأمر الخطير.. الذي أصبح على شفا حفرة من جحيم. ولكن قبيل وصوله حدث ما لا يُحمد عقباه.. عندما قرَّرت سالي الثأر لكبريائها منه، وجمعت الفضوليين والمتربصين والمتاجرين بالإشاعات وامتلأ المكان في لمح البصر بالصحفيين والمصورين بعد أن تفاعل الآلاف مع الخبر، وواجهت ندى وبلال أمام كل الحضور وقالت ساخرة:

- ليشاهد الجميع على هذا المضمار ما شاهدناه جميعًا في قاعة التزلج.. قصة حب غريبة لا تليق بنجمة لامعة مع بطل الثلج غريب الأطوار.. مريض التوحد.. في دعاية رخيصة لروايتها الجديدة.

استقرت الكلمة الأخيرة بقلب بلال كرصاصة مسمومة انطلقت مصوبة إلى قلبه الأمن أصابته في مقتل بلا رحمة، وكان ينظر فقط إلى ندى نظرة ثاقبة حادة مريرة تحمل كل الألم من أطراف الكون المظلم بعدما كان مُضاءً قبل قليل بالأمل الذي انطوى سريعًا داخل غيمة الحزن التي أطفأت بريق

عينيه، وابتلعت قلبه المعتم حين أظلمت شمسه في لمح البصر، وانفطر القلب المسكين، ولم يعد هناك شيء حقيقي حوله إلا الصمت.. شرد بلال عن عيني ندى التي تماهت بين الأقنعة الزائفة، وتجمَّدت كتلك الوجوه المتربصة به في لحظة بدأ يتحطم الحلم بداخله تحطيماً مدويًا يزلزل أعماقه، لحظة سقوطه من أعلى الصرح سقوطًا مريعًا.. بدأ يشعر بدوي هذا الضجيج يصمُّ أذنيه، ينهش روحه، ويفجر عقله ولا يرحمه .. ثم ركض من بينهم هاربًا بكل ما تبقَّى فيه من عزم، من صمود ومن ألم الجرح المنشق، ليهرب وحيدًا يهرب بعيدًا من سهام تلك الأعين القاتلة التي ترتشق بضعفه، و تصمه بالنقص، وقد تعرَّت أمامهم حقيقة معاناته الطويلة في تلك اللحظة مجردة بلا رحمة.. لقد هرب من بين الأقنعة الملونة الحاقدة..و هو يصم بكفيه أذنيه عن همهمات الاتهام وهمسات السخرية منه .. وركض يقطع عالم الوهم المحيط بهم إلى عالمه الحقيقي البعيد الذي لا يشوبه الحقد ولا الزيف، ولا يلوثه الشر، ينقذ ما تبقى منه يلملم حطام حلمه ليغلق عليه حين تساقطت كل الصور الزائفة من ذاكرته كزهور ذابلة في لحظة تجمدها وموتها، وقد عصفت بها الرياح الباردة في لحظة تساقطها مع كل خطوة كان يعبر فوقها يسحقها رغم الضجيج الذي يزلزله.. رغم الخوف الذي يحطمه.. وقد سقطت من بينهم النجمة من أوج السماء على وهجه فاحترقت واحترق.

"في تلك اللحظة، يجب أن نهرب بضعفنا قبل أن نتلوث بالزيف.. قبل أن يدنس الحقد حقول نقائنا، قبل أن يغتال الخذلان زهور أحلامنا في باكورتها،

قبل أن ينطفئ آخر بريق نقي ينبع من القلب النابض في عتمة الطريق .. حتي لا نضل ولا نموت".

عاد بلال إلى البيت في حالةٍ من الهلع والاضطراب المخيف، واختبأ بغرفته، ولم يستجب لأي اتصال، ولا أي نداء، خرجت ندى لتلحق به بعد أن هربت هي الأخرى من ملاحقة المتطفلين، ومن النظرات القاتلة في عيون اللائمين.

اتصلت رشا من أثر الصدمة تخبر حسامًا بقلقها البالغ على بلال منذ عودته، وإغلاقه الباب على نفسه يستمع إلى الموسيقى بين الصخب والانخفاض ولا يريد أن يستجيب لندائها .. فاتجه حسام مُسرعًا إلى البيت.. يترقب خطرًا وشيكًا وأزمة قاسمة يمرُّ بها ولده المهزوم في هذا اليوم القاتم.

ووصلت ندى فورًا إلى المنزل، وفتح لها حسام، ولم يسمح لها بالدخول و استوقفها على الباب، وقت تلاقت النظرات المتأججة بالغضب العارم والرجاء الأخير .. قائلًا لها بكل حزم:

- اخرجي من حياته.

- لا أستطيع أن أتركه.

قالت وكانت دمعاتها الحارة على وشك السقوط.

- كفاكِ انتقامًا منه .. كفاكِ إساءة إليه.

نظرت ندى بأسًى في عينيه نظرة حزينة، وقالت ترجوه:

- دعني أتحدث معه، ولو للمرة الأخيرة. أرجوك يا حسام.

- لن تتحدثي معه أبدًا.. ارحلي من حياته.. لا تهيني ضعفه.

- لا أقدر أن أهين ضعفه.

- جئتي تنتقمين من إنسان مسكين لا تشعرين كيف يعاني، ارحلي، وإلا فسوف أحاربك من أجله بكل ما أملك، ولن أغفر لكِ جريمتك بحقه أبدًا.

وأغلق الباب بعنف بوجهها.

كانت رشا في صدمة من رد فعل زوجها وهي تُصارِع الخوف المختلج بين جوانحها على ولدها.. وهي تراه يتعرض لعاصفة شديدة لأول مرة قد تقتل حلمه، وتقضي على استقراره وحياته إن عاد وحيدًا مُنطويًا إلى عالمه.

مضت ندى تحاول أن تُلملم شتاتها، وتُجرَّ روحها المنهزمة التي لا تودُّ الرحيل في تلك اللحظة.. وهي في حزن مرير، بينما أسرعت رشا إلى الباب لتلحقها وهي تخبر "حسامًا" أنها لن تترك ابنها ينتهي إلى عالم العزلة مرة أخرى مهما يكن الثمن. ولأول مرة منذ وقت طويل يصرخ فيها حسام بصوتٍ زلزلَ الأركان المتصدعة بقلبه الهشة بينهما، بعد أن انفجر بأعماقه البركان الدفين:

- إن اخترتِ الآن بقاءها من أجل ولدكِ، فلن أكون في حياتك بعد اليوم.. لقد وضعتني يومًا في أصعب اختيار، واخترتُك أنت، وجاء دورُك اليوم، وعليكِ الاختيار.

ارتدت الكلمة كالصدى من فوق الجدران المرتجفة للقلب المنفطر لتبعثره بين عاصفةٍ ضاريةٍ اجتاحت قلب الأم، والزوجة التي عليها أن تختار الآن أصعب اختيار، إما سلامة ولدها وإما كرامة زوجها.. ثم نظرت رشا إليه نظرة توسُّلٍ مفعمة بالاستسلام.. وقالت بعد صمتٍ طغى عليه هدوء الحسم:

- إنه ولدي الذي لن أعوِّضه لو فقدته، ولن أتركه للضياع.

رد حسام بمنتهى الألم وقد حسم الأمر هو الآخر:

- وإنها حياتي التي أضعتُها في نسيانها من أجلكِ .. تركتُ حبَّها يحتضر في شقوق قلبي من أجل حبٍّ زائف حافظتُ عليه دهرًا.. ولقد دفعتُ من عمري ثمن الاختيار.

بعد نظرة صمت جامدة مُطوَّلة من عيني رشا إلى زوجها الذي أقرَّ حقيقة ما يكنُّه بقلبه بعد المكابرة في لحظة صدق لا تحتاج إلى تزييف، فتحت الباب فلم يعد الآن أمامها خياران.. لقد كان هذا الباب موصدًا على حبٍّ لم يكن كافيًا ليعبر تلك الأزمة العصيبة، وربما اتَّضح الآن أنه لم يكن حقيقيًّا، لقد اختفى ظِلُّه في الظلام.. لقد شعرت رشا انها تحرَّرت الآن من هذا القيد الطويل، فما كان بينهما هو مجرد اعتياد للعشرة.. وأصبح البقاء الآن لحقيقتها الوحيدة ولحبها الحقيقي " ولدها" الذي ستحميه لآخر نفس من أجل أن يبقى.. إنها عزمت ألَّا تفقد كل كيانها الذي غرسته في هذه الأرض الطيبة،

وروته بشبابها وعمرها وصبرها حتى أزهر شابًّا عائدًا بقوة من عُزلته يعتلي صرح الصبر الطويل بطلًا هزم في قلبها كل الشقاء والأحزان، لن تتركه الآن فريسة للمرض والهزيمة والإنتهاء به إلى كهف العزلة الموحش، لم يعد يهم أن انتهى الحب الذي أقرَّ زوجها بأنه كان بينهما كل هذا العمر وهمًا خدعا به أنفسهما طويلًا وهو الآن على مَحكِّ الانهيار.

خرجت رشا تبحث عن ندى عند البوابة، ولم تجدها، لقد غادرت الحلم وصاحبه.. بينما كان حسام قد حسم قراره بترك البيت.. وقد أسرع إلى غرفته يُجهِّز حقيبته ليضع فيها ما تبقَّى من الذكريات.. وقد جاء أحمد على الفور مجرد ما عرف حديث الساعة.. فوجد الأمر أصبح رمادًا بعد خمود البركان الذي التهم كل صبر وكل سلام كان يغمر هذا البيت في لحظة انهارت أعمدة الصرح الكبير أمام العاصفة.

ثم خرج حسام وبيده حقيبته، وكان أحمد يحاول الدخول إلى بلال، ولكن بلالًا لا يستجيب. وضع حسام حقيبته أرضًا.. قائلًا لأحمد بهدوء واستسلام:

- اسمعني جيدًا دكتور أحمد، لن أترك ولدي للانهيار ينال منه .. ولن أسمح بوجود ندى بحياته مهما يكلفني الأمر.. سأفعل أي شيء من أجل أن يهزمها وينساها.. لن أتركها تضيعه مني ما حييت.

- نحن نواجه الآن مشكلة أخطر من ندى.

رد أحمد وعلامات الاضطراب على وجهه واضحة.

ثم استطرد بقلق:

– الأمر الآن يتعلق بأثر الصدمة القاسية التي تعرض لها بلال من المجاهرة بمرضه، وبوصمه بهذا الشكل الفج المهين على الملأ بعد أن أصبح في عيون الناس بطلًا، وقد استعاد قُدرته على تقدير ذاته، واعتاد حُبَّ المحيطين، وان استغلال مرضه بخسة كهذه لتدميره وتحطيم حلمه الكبير في الفوز قد أصابه في مقتل لأنه لم يعد يرى نفسه بطلًا.. في كل مرة كان يستطيع أن يتوحَّد مع حلمه.. ولكن اليوم سقط حلمُه من سماء عالمه مرتطمًا بالأرض.. وبالواقع الموحش الذي ما زال لا يدرك جانبه السيئ المخيف، وتحطَّم أمام ناظريه صورته التي كان يقبلها ويحبها، لقد شاهد في عيون الناس بُغضهم لنقصه، واطِّلاعهم عليه بسخريةٍ وتجريح، ووصمه بأنه توحُّدي غريب الأطوار أحدث به شرخًا عميقًا، وكانت أول من استغلت نقصه وتاجَرت به هي ندى التي أحبها، وأظن أن وضعه الآن أخطر من أن تتفرقا من حوله وتتركاه يضيع من بين أيديكما في هذه الأزمة الطاحنة بعد هذا الكسر العميق.

ثم استطرد أحمد بعد أن أطال النظر إلى حسام الذي بدأ في الانهيار قائلًا له:

– اطمئن.. لن يتقبل بلال وجود ندى بحياته بعد اليوم، لقد انفصلت حقيقتها عن صورتها في حلمه التي كان يرسمها لها بمخيلته طويلًا ويؤمن بها .. لقد حطَّمت له هذه الصورة اليوم، فكان رد فعله الهروب منها، وإني

أخشى أن يكون هناك ردُّ فعلٍ أعنف مما أتوقَّعه.. لقد هُزِم بلال اليوم هزيمة حقيقية على أرض الواقع لأولِ مرة منذ وقت طويل. لذلك هو غير قادر على المواجهة.

اختفى الصخب تمامًا من غرفة بلال.. وازداد القلق على الوجوه.. طرق أحمد بابه بقوة .. فلم يجب النداء.. توسلت رشا إليه أن يخرج فلم يرد ..واضطر أحمد وحسام إلى كسر الباب.. فما كان إلا أن رأوا على الحائط بقاياها.. بقايا لصورة الحلم المنهار محطمة بقبضته التي تنزف، ولم يكن يكترث، فإن الجرح كان أهون من الجرح الغائر بقلبه المكسور.

ظل بلال صامتًا يهتز بعنف، يقبض يديه مرارًا، يرتجف كالطير المذبوح في نزعه الأخير.. لا ينطق ولا يستجيب ولا يسمع الضجيج الزائف حوله.. لقد عاد القلب النقي إلى عالمه بذلك الألم يطوي الجرح وحيدًا بلا حلم.

مكث بلال بضعة أيام في المشفى تحت الرعاية الخاصة.. بسبب تكرار نوبات العنف والهلع كلما تردَّدت على مسامعه ما حفره الناس على جدران روحه وذاكرته الحيَّة من كلمات العجز والانهزام.. " متوحد ..أحمق ..غريب الأطوار"، وكان يكررها مرارًا بلا وعي إلى أن يفقد السيطرة على أفعاله، فيحطم كل شيء حوله بقوة الألم الذي ينهشه ولا يحتمله، وكأنه يحاول أن يقتل ذلك الضجيج الذي ينبعث من كل الأشياء ومن أعماقه وهي تسخر منه وتقول له:

"بلال المتوحد.. عاجز.. مريض.. بطل وهمي لرواية حمقاء".

قرَّر أحمد ضرورة سفر بلال إلى الخارج؛ ليبتعد عن تَبِعات الصدمة والضجيج المحيط ؛ لأن استعادته هذه المرة ربما تكون من أصعب المرات.. إن البطولة قد اقتربت، والوضع قد أصبح حرجًا عصيبًا أن يخرج من عُزلته وحُزنه في فترة غير محسوبة، ولن يحدث ذلك إلا بالابتعاد عن مكان الأحداث القاسية، والتي سوف تُذكِّره دومًا بهذا اليوم الحزين، وأنه لن يخرج من أزمته إلا بالتركيز في تمرينه المكثف استعدادًا للبطولة، وللفوز الذي سيُحدِّد مصيره، إما إلى التعافي أو إلى الانهيار.. فلا يوجد خيار الآن إلا الفوز.

وبعد بضعة أيام تلقَّى أحمد اتصالًا من ندى التي شرحت له ما حدث في هذا اليوم العصيب، وأخبرته أنها قلقة جدًّا وتودُّ الاطمئنان على بلال.. فأخبرها بسوء الوضع، وأنها لا يجب أن تتواصل معه في هذه الفترة إلى أن يتم السيطرة على حالته بعد الصدمة، وأخبرها أن الشيء الذي كسره حقًّا هو أنها حرَّكت الصورة الساكنة بأعماقه عن مكانها، فطلبت منه أن تطمئن عليه من خلاله.. وأنها على أتمِّ الاستعداد لفعل أي شيءٍ من أجل ألَّا تفقده أو يفقد هو نفسه .. وكل ما كان من أحمد أن حذَّرها من محاولة التواصُل معه مباشرةً في هذه الفترة الحرجة.

أما ندى.. فقد قرَّرت المواجهة.. فلم يعد يجدي الهرب.. وفي حوار مع عمرو كاد يفقد فيه صوابه:

– أي مؤتمر صحفي تودين أن أُعلن عنه؟ هل ستصرحين للعالم بقصة الحب الغريبة بينك وبين هذا المريض؟

– لا أسمح لك أن تنعته بالمريض.. لن أسمح لأحد أن يُهينه او يهدد استقراره وسلامه الداخلي، أو يهد حلمه حتى ولو كنت أنا بذاتي.

– الرأي العام منقلب ضدكِ، والآن تحاولين استفزازه بتصريحات عاطفية سخيفة ستزيد الأمر سوءًا، إنك تحطمين مكانتكِ بنفسكِ، هذا جنون.

– إن كان الشعور بالآخر ومحاولة إنقاذه من هلاك مُحقَّق على حساب تلك المكانة.. فلن أتردد في أن أمنع عنه هذا الألم.. ولتذهب المكانة إلى الجحيم.

– أنسيتِ ما فعله بكِ أبوه في يوم الحادث؟ هل شعر أحد بكِ وأنت تنزفين وتضمدين جرحًا غائرًا وحدك وهم ينعمون بنسيانك؟

– ما يهمني الآن هو بلال.. لا أحد يهمني سواه.. لأنه أنقى منهم.

–تضحين بكل شيء من أجل شخص مولع بك.. غير سَويٍّ ..غريب الأطوار؟

– بل إنسان حقيقي.. إنسان نقي يعبِّر عما بداخله كما يشعر به بلا زيفٍ ولا دهاء.. إنسان نقي في زمن قَلَّ فيه النقاء.. نحن من نقتل هدوءه ونقاءه بتوحُّشنا، ونسخر من شعوره الفطري بزيف شعورنا، ونُجسِّد له نقصه من قعر نقصنا، نحن غير الأسوياء.

– ندى نحن من قديم صديقان.. إن واجهتِ الرأي العام في مثل هذا الأمر الذي سيهدمك هدمًا ماحيًا تاريخك كله بتلك المغامرة البائسة

الكارثية.. فلن أعتبر نفسي صديقًا لكِ بعد اليوم.. لن أتركك تحطمين مَجْدَك، وتشعلين بنفسك النيران مرة أخرى من أجل هذا الوغد حسام وولده.

نظرت ندى إليه نظرة مُطوَّلة بها شعور من الأسى العميق وقالت:

- بلال هو ولدي الذي لم أنجبه، ولن أتخلَّى عنه ما حييت .. لن أتراجع عن قراري.. ولن ألومك على قرارك يا عمرو.

نظر عمرو إليها نظرة صدمة واجمة، وقد توقَّف الإعصار، وسقطت كل الكلمات المتبقية رمادًا، وبدأ الغبار ينقشع ليتضح كل منهما للآخر في لحظة صمتٍ مريرٍ، أُعلنت على أثرها النهاية.

وقرَّرت ندى المواجهة وحدها رغم ما ينتظرها من سوء.. وأعلنت على صفحتها عن مؤتمر صحفي لتقول كلمتها الأخيرة ردًّا على الاتهامات والشائعات الجائرة التي نالت منها ومن بطلها النقي. حيث ارتقب الناس هذا المؤتمر بشغف كبير وفضول قاتل.

خرجت ندى وحدها تُواجِه سهام الاتهام التي انهالت عليها، وقد تجرَّدت المُحارِبة من أي دروعٍ وأقنعةٍ، وأمسكت فقط بقلبها النابض وبكلماتها الصادقة المحترقة من الألم؛ لتكون هي سلاحها الوحيد في ساحة الحرب الضارية للنَّيْلِ منها ومن القلب النقي.. فإما أن ينجيها صِدْقُ قلبها أو يُسقطها ويُخمد وهج النجمة إلى الأبد.

خرجت ندى إلى الجميع، نظرت إلى الجموع الحاشدة التي انهالت عليها بالتصوير والهمهمات الصاخبة مجرد ما اعتلت منصة الكلمة.. في قاعة النادي الكبرى.. ذلك المكان الذي شهد لقاءها الأول بالطيف، وشهد لقاءهما الأخير.

وقالت بعد نظرة شاردة طويلة.. في اتجاه أرض الثلج:

- اليوم تتحدث إليكم ندى الإنسانة.. مُجرَّدة من كل ألقابها، متخطية حدود مَجْدِها، ومُغلقة كتاب تاريخها الناصعة صفحاته كبياض الثلج، والتي سطرتها بأصدق الكلمات، التي رسمها قلمُها حرة فوق السطور لسنوات طوال، والتي سطرتها على أنقاض صفحات قديمة .. قاتمة.. ماحية كلمات يأسٍ مبعثرة مهزومة من الماضي البعيد، مزَّقتها بقوةٍ وعزيمةٍ وإصرار طويل عليٍ الصمود بعد ألمٍ وفشلٍ على طريق النجاح، الذي لم ينبعث من فراغ.

-جئت اليوم أمامكم لأعتذر لهذا الطيف الذي ظهر بحياتي قدرًا.. وأضاء رُكنها المظلم الدائم في روحي، وبعث فيها نورًا اهتديتُ به للحياة.. لقد عِشتُ معه لحظات حلمه النقي.. حلم سحبني فيه فوق جدار الثلج، فتجسَّد لي حلمًا قديمًا بائدًا، رسمتُه على جدران قلبي ذات يوم بعيدٍ، ولكنه لم يكتمل .. حلم عشتُ به طويلًا، كان نقيًّا كحلمه، عجزت أن أحققّه وقت استسلمت ورضخت للقدر ورضيتُ بمشيئته. القدر الذي حرمني يومًا أن أكون " أمًّا" حقيقية للأبد إثر حادث أليمٍ استسلمت فيه للموت، وللفَقْد،

وأنا على قيد الحياة.. وانطفأت شمعة الحلم الكبير بقلبي، واستحالت روحي على أطلاله بقايا رماد.

بدأت دمعات ندى في التساقط صمتًا، وقد تحررت من محبس الألم الطويل دون قيدٍ ولا حسبان.. ثم استطردت رافعة رأسها كأنها تخاطبه هو:

- سأكتب عن بلال، سأكتب عن الطيف الذي أزهر بروحي ربيعًا جديدًا، وأحيا بقلبي حلمًا بعيدًا أعاده إلى قيد الحياة. سأكتب عن ولدي الذي لم أُنجبه .. البطل الذي توحَّد مع حلمه حين توحَّد مع ذاته، وآمن بقدراته، وأطلقَ له العِنان منذ صغره، ولم ييأس، ولم يستسلم للعزلة التي كانت ستلتهمه وتحرمه تحقيقه وتحرمنا رؤية هذا الإبداع. لقد رَسَمَه بكامل وهجه الذاتي الذي أضاء في أعماقه وحده كالشمس فأضاء بنا أجمعين.

- هل ينكر أحد منكم ذلك السحر الذي تخلَّل روحه لحظة رأى ذلك الحلم عندما تجسَّد الطيف على بساط الثلج؟ هل ينكر فينا أحد أننا في شبق إلى مثل هذا السحر كي نرى الحياة ألوانًا؟ ألوان تهزم حزننا القاتم بقلوبنا وتتغلغل من بين الشقوق السوداء لتشرق بالفرح.

كلنا في أمسِّ الحاجة لأن نتلوَّن بالفرح

- لقد علَّمنا بلال كيف نقبل أنفسنا بعيبها، ومن منا ليس به عيب أو نقص؟ علَّمنا كيف نؤمن بذواتنا وقدراتنا.. كيف نخلق حلمًا ونؤمن

به، وكيف ننظر بداخلنا بأعيننا، ولا نحاول أن نطَّلع على دواخلنا بعيون الآخرين.. وإن كنت لا أرى أي نقص أو عيب في أن يحب الإنسان ذاته، ويتوحَّد معها ليُرقِّيها، ويصعد بها حَدَّ السماء، ويُجسِّد أحلامها المتوهجة بقلبٍ لا يعرف الاستسلام ولا الانكسار، يكفي أنه استطاع أن يكون طيفًا علي جدار الثلج.

-إن طيف التوحُّد لم يكن في وصفه كإعاقة مدمرة للحياة وللإنسان وصفًا عادلًا.. وأيُّ إنسانٍ لديه أي إعاقة حقيقية حاول تجاوزها بعزيمته واستطاع أن يحلم ويمضي فوقها عابرا بقوة الأمل المتقد بذاته في طريقٍ أضاءه بنفسه إلى حلمه، هو إنسان حقيقي، اكتملَ بحلمه كاكتمال البدر في تمامِه.

-وإن الإعاقة الحقيقية هي العجز عن تقبُّل حقيقتنا ونقصنا، وتقبُّل حقيقة غيرنا واختلافنا، العجز ألَّا نتحَّرر من مخاوفنا.. وألَّا نحطِّم قيودنا، أو نهزم المستحيل؛ لكي نعكس نورًا بأعماقنا على مرآة أرواحنا؛ لنُخرِج أجمل ما فيها. هو العجز عن الحلم، العجز عن الحب، العجز عن الوفاء بالوعد إذا تصلبت بالقسوة أوتار القلوب.

- هذا بلال ..هذا هو الطيف، عرفناه بطلًا، كان وسيظل في أعيننا قُدوة ورمزًا نفخر به جميعًا، وإن كان قدره أن يكون مُتوحِّدًا.. فأروني كم من أسوياء صاروا مثله أبطالًا؟

أنهت ندى كلمتها بعد أن تسلَّل إليها أمل توهج بالقلب الحزين.. فانتفضت له كل جوارحها.. وقبل أن تغادر منصة الكلمة جاءها صوتُ أحد السائلين فضولاً بقوة:

- ولكن "بلالاً" أحبكِ، وهذا الحب المستحيل حتمًا هَزمَه وكسرَه بعد أن علم أنه كان مجرد بطلٍ في روايتك الجديدة.

نظرت ندى إلى المتحدث نظرةً ثاقبة جمعت بها كل ارتجافها وقوتها وأجابته في ثبات:

- البطل الحقيقي لا ينحصر ذِكْرُه بين بضعة أسطر في رواية.. إنه يكسر الكلمات و السطور والحدود ولا ينكسر؛ لأنه كيان يؤمن بذاته .. ليت كل أبطال العالم كبلالٍ، وليت قلوبنا عرفت النقاء كقلب بلال.

غادرت ندى المؤتمر، وسط تبايُن حادٍّ بين الحضور بين مؤيد بشدة وبين مُعارِض لتأكيدها على أنها ستكتب عنه بطلًا في الرواية. ولكن في كل الأحوال لقد حقَّقت غرضها من هذا المؤتمر في أن تُسجِّل اعتذارًا لبلال حتى يصل إليه أينما كان.. لتُواسي قلبها بحرمانها منه.. أما عن قرارها فقد اتخذته بالسفر بعيدًا مُعطِّلة جميع أنشطتها، وعملها حتى الكتابة كي تستعيد شتاتها بعد تلك العاصفة.. وسافرت وحيدة دون وداع.

طَيْفٌ على جِدارِ الثلج

في روسيا بلاد الجليد.. التي يختبئ خلف جليدها مملكة من الحضارات القديمة والتاريخ العتيق.. سافر بلال وأهله وبقيَ هو الرابط الوحيد بين أمه وأبيه بعد أن انتهى رابطهما المقدس بالانفصال..

فكان حسام مقيمًا بمكان آخر بعد أن جهَّز لهم إقامتهم .. فلم يعد بينه وبين رشا أي مجالٍ للحوار أو الاعتذار بعد حدوث الانكسار.

مرَّت الأيام تتبعها الأشهر تترنَّح بين الاستسلام والترقُّب.. بين الألم واللامبالاة، وكانت محاولات عبد الرحمن والذي قد رافقه في سفره منذ اشتعال الأزمة قد بدأت تُخيِّب آماله بعد أن حاول إقناعه بالعودة إلى التمرين والخروج إلى العالم من جديدٍ؛ من أجل البطولة والفوز .. ولكن دون فائدة، ثم حاول أن يُشجِّعه على الخروج إلى الأماكن التاريخية التي يحبها ويعرفها.. حتى استجاب له بعد عناء. وبدآ في الخروج معًا في جولات بين الآثار التاريخية للاتحاد السوفييتي القديم وعواصمه .. وقد بدأ يخرج بلال

عن صمتِه تدريجيًّا، ويحكي له عن تاريخها الذي يعرفه عن ظَهْرِ قلب.. ومن خلال هذه الجولات كان عبد الرحمن يستغل التنقل بين المتاحف والأماكن، ويضع برنامجًا للركض من مكان إلى مكان.. ليحفزه بالتدريج على العودة إلى التمرين.. ولكي يشعل حماسته الخامدة بعد الأزمة التي لم يتحدث معه عنها، ولم يحاول أن يضغط عليه من أن أجل أن يكثف التمرين قبل انطلاق الأوليمبياد بعد أشهر قليلة.. على هذه الأرض.

لم يحاول بلال التحدث مع أحد عن ندى قط، كأنه كان يتجنَّب الألم بذكرِها وكان أغلب الأوقات صامتًا قارئًا في الكتب غارقًا.. وكانت تدعمه أمه بتشجيعها له على الاجتهاد في التمرين.. وكان بين الحين والحين يذهب بصحبة حسام الذي لم يحاول العودة إلى رشا أو ملاقاتها بعد ذلك اليوم الحزين.. فكانت صحبته لبلال وعمر ولديه تُرمِّم شروخ الروح بعد الانفصال.. ورغم أنه لم يحدث طلاق نهائي فإن حسامًا كان يُدرك جيدًا أن كل ما في الأمر أن الانفصال أصبح مُعلنًا بعد أن كان ينخر في قلبه نخرًا منذ أعوامٍ طوال.

أما ندى.. كانت هاربة هي الأخرى، توارت تمامًا عن الأضواء.. ولكنها لم تيأس في أن تبحث عما يمكن أن يرد له سعادة قلبه الحزين بعدما أحيا هذا الطيف أمنية مفقودة بركنٍ معتم بروحها، وبدأت في كتابة الرواية، وكان هو بطلها بالفعل، بعدما حصلت على معظم تفاصيل ندا الأخرى من الدكتور

أحمد عبر التواصل الذي استمرَّ بينهما كي تطمئن منه على بلال. فقد أصبحت هي أكثر من يعرفه، ويشعر به دون حاجةٍ إلى قُرب المسافات.

مرَّت الأشهر سريعًا، واقترب الحلم الكبير.. وكان الطيفُ يحاول أن يعود رغم الجمود ، ويتوحَّد مع عزيمته الكبرى، ومع أمله الوحيد كي يدرك الوصول إلى حلمه، الفوز بالبطولة.. وكان دائمًا يكرر كلمات ندى الداعمة عندما قالت له في ذات يوم:

- سوف تفوز؛ لأنك يجب أن تفوز.. لأنك تستطيع .. لأنك قرَّرت .. لأنك لا ترى بريق حلمك في عيون الآخرين.. لا تَرَ طريق حلمك إلا بعينيك.

وكَتَبَ هذه الكلمات على الحائط لتبقى دومًا حافزًا أمام ناظريه.

لقد بدأت حماسة الطيف الباهت تتأجج فوق الجرح العميق. واستطاع بقوة أن يعود مرة أخرى إلى التمرين.. وذهب في هذا اليوم مع عبد الرحمن ركضًا عابرًا مسافات طوال إلى أرض المضمار الذي يستعد لاستقبال بطولة الأوليمبياد بعد أيام. حيث وقف على مرمى البصر منه قائلًا بعزيمةٍ لا يحدُّها حَدٌّ، ولا يهزمها يأس:

"سوف يُحطِّم بلال التوحُّدي الرقم القياسي بفارقٍ كبيرٍ على أرض هذا المضمار".

ابتسم عبد الرحمن من أعماقه بعدما اطمأنَّ على صديقه قائلًا له:

- وإني أثق ببلال.. البطل التوحدي.

وبعد محاولات كثيفةٍ ومتكررة أصبح الشغل الشاغل لندى البحث عن ندا الأخرى.. واستطاعت بعد بحثٍ طويل عن طريق البحث الإلكتروني أن تصل إلى جامعتها التي تخرجت فيها بأمريكا من خلال إحدى المجموعات عن رابطة المتوحدين التي بحثت فيها، ووجدت بها اسمها .. وعلى الفور تواصلت مع الجامعة، ثم سافرت إلى هناك، وبدأت عملية البحث الدقيق عنها.. حتى حصلت على بريدها الإلكتروني.. وأرسلت رسالة إليها.. وقالت لها في نَصِّ الرسالة:

"ما زال الحلم ساكنًا قلب بلال.. ذلك القلب الذي ارتسمت صورتكِ يومًا على جدرانه، وسكنت بين أرجائه منذ وقتٍ بعيد.. إنه ما زال يحلم بذات الحلم معك. ما زال يحتفظ بصورتك، ويبحث عنها في وجوه الآخرين.. وبين السطور.. وبين النجوم.. إن كنتِ ما زلتِ تشاركينه حلمه، فتعالي لتشاركيه رقصة الثلج الأخيرة.. تعالي ليتجسد الحلم .. ليتحرَّر الطيف علي جدار الثلج.. عندما يذوب الجليد."

مرَّت أيام كانت ندى ترقب بريدها باستمرار في شغفٍ، تنتظر إشارة أو ردًّا يُعيد إليها الأمل الغائب البعيد ، ليُعيد إلى قلب البطل الحزين هدوئه وسلامه. حتى استجاب القدر لهذا النداء وهذا الرجاء بعد الانتظار.. وجاءتها الرسالة المرتقَبة، وقد تغلغل بقلبها الفجرُ الجديد وأشرقَ الأملُ المنتظَر بعد طول ظلام.

اتصلت ندى بأحمد.. وأخبرته بسعادة بالغة أنها وجدت الفتاة، وأنها لم تيأس أبدا حتى وجدتها. سافر أحمد إلى "الندتين" في الولايات المتحدة.. وقابَلَ ندى الأم.. وفي حوار مليء بالحماسة والسعادة.. سألته بشوقٍ وشغف:

– ستنطلق الأوليمبياد بعد أيام.. هل استعدَّ لها بلال بجدية كامل الاستعداد؟

– نعم.. إنه يستعد لهذه البطولة منذ أشهر. ولا يفكِّر في شيء إلا الفوز.

– أما زال يذكرني؟

سألته وارتسم على وجهها لمعة أمنية رقيقة مختبئة وراء بريق الكلمات.

– نعم، ولكنه لا يحاول أن يخرج عن إطار حلمه الوحيد الآن.

– لقد وعدني بالفوز، وإني لأثق به.

– كيف يمكن أن ألتقي ندا؟

– أعطيتُها موعدًا سوف تأتي إلينا بعد انتهائها من عملها.

– وكيف استجابت لكِ؟

– لقد استجابت لحلمها العائد بعد طول غياب.

– لا أعلم كيف أشكركِ على كل ما فعلتِ من أجل بلال.

– لم أفعل شيئًا مثلما فعل هو بي.. لقد أعادني إلى قيد الحياة.. وأضاء رُكنًا مظلمًا بقلبي بعد عمر طويل من الحزن والفقد.

وما أغلى الحياة عند عودة الروح إليها عندما يزهر الحب ربيعًا جديدًا في الأعماق الجرداء!

رقصةُ الثلجِ الأخيرة

أُضيئت سماء روسيا بالشعلة الذهبية التي دارت حول العالم حتى استقرت في أعلى مضمارها العملاق.. يوم انطلقت إشارة الحلم الكبير .. حلم يبزغ في شتى البقاع.. ليعتلي عرش التتويج كُلُّ بطلٍ جاء من مشارق الأرض ومغاربها ..يؤمن بحلمه ويتوحَّد معه بعزيمته الفولاذية ليحقق الفوز الكبير.

قبّلت رشا ولدها وهي تدعمه بكلمات التشجيع قبل أن ينزل إلى أرض المضمار ليكون في وضع الاستعداد.. قبيل بدء سباق ألعاب القوى "الجري في سباق ال ٤٠٠ متر".. وقال حسام له قبيل بدء مسابقة العدْو الكبرى .. وهو يربت على كتفه بحماسةٍ مشجعًا قائلًا:

- إني أثق ببطلي الوحيد.

في هذه اللحظة بدأ ذوبان الجليد الذي تراكَمَ بينهما طويلًا وشيَّد سدًّا عاليًا كاد يحجب الحب بينهما بفعل ذلك الألم الذي أشعل القلبين بذات

الوهج و الذي خبا عنهما في لمح البصر. نظر بلال إلى عيني والده مبتسماً.. ثم انطلق إلى مضمار السباق، ووقف على خطِّ البداية في وضع الاستعداد.. يستشعر شعاع الشمس الذي تولَّد بأعماقه من انفراجة الفجر.

كان الحدث العالمي.. تبثُّه جميع الفضائيات بثًّا مباشرًا، وفي الوطن الذي لم يتوقع الملاحقون والمتربصون والمراؤون أن يشارك البطل التوحُّدي في هذه البطولة بعد ما مَرَّ به من هزيمة وانكسار.. ولم يرحمه المتاجرون بمرضه، المحققون لمجدٍ زائف على حسابه. باتوا يتابعون البطل بترقُّبٍ وتحفُّز كبيرين.. في رهان على خسارته.

وندى تلك النجمة المتوارية خلف الضباب جاءت اليوم لتكون بجوار بطلها الوحيد، ولو من بعيدٍ وفاءًا لوعدها لتشاهده وهو يُتوِّج حلمَه بالفوز موفيًا بالوعد. والتقت عيناها بعيني حسام، وقد رأت فيهما لمعة العشق القديم من خلف غلالة السكون الحزين، تلك النجمة التي تساقطت من سمائه يومًا في هُوَّة النسيان، اليوم سطعت بقلبه من جديد ليحيطها بهالةٍ من حنان بعد أن أدرك أن مكانها لم يقدر على سكنه أحدٌ، ولم يقدر على ردمِه تحت أطلال الذكريات، ورغم الغياب الطويل، ورغم الفراق، ورغم نار الحرب التي اشتعلت مُجددًا، وسقوط رمادها والآلام الساكنة بالروح.. استسلم كبرياؤه أخيرًا، واعترف أن هذا الحب الذي سكنه قديماً كان حقيقيًّا رغماً عنه، رغم الفقد، والوأد. فلم يعد هناك جدوى من الفرار.. واليوم اجتمعا دون حربٍ.. يتبعان ذات الأمل.. ليشاهدا حلماً كتب القدرُ أن يجمعهما به

ليكون رابط ممتد بينهما ، أوشكَ أن يتحقق من خلال هذا الطيف النقي الذي سكنهما، وقد انقشعت من فوق القلوب غلالة الألم، وغِلُّ الانتقام.

وقف بلال على أرض المضمار متوترًا مشتتًا ينظر إلى الحضور بقلب مرتجف.. وعين شاردة لا تجد ضالتها لتستقر، وكأنها أضاعت الطريق.. يتساءل الطيف بنفسه: "ما كل هذه الأقنعة الملونة؟ يا لها من أقنعة قبيحةٍ مزعجةٍ! جاءت لترمقني وتتبَّع خطواتي بترقُّبٍ، ثم تتهامس ساخرة من خلف ابتسامةٍ زائفة، هذا هو بلال المتوحد.. يعدو أمامهم كالمهرج، ومن خلفه يضحكون.. ماذا إن تعثر بلال وسقط أو هُزم؟ أيضًا سوف يضحكون. إنهم لا يحبون بلالًا. إنهم هنا فقط من أجل أن يشاهدون عجزه، ويترقبون هزيمته.. ليخرجوا إلى عالمهم القبيح ساخرين: هذا هو بلال المتوحِّد الأحمق غريب الأطوار مهزوم".

بدأت حركاته العشوائية بيديه المنقبضتين بعنف تتزايد بوضوح .. وبدأت ملامحه الجامدة كالجليد في التشتت.. وبدأت عيناه الواجمتان تحيدان عن خطوط المضمار.. بدأ الضجيج يزعجه والزحام يُثير رهبته والأصوات تشوشه حَدَّ الانهيار، وبدأت صورة غير صورته التي يؤمن بها تلوح له من بين الوجوه المتماهية حوله ..صورة شبح ضعيف مهزوم يريد الهرب هم من حفروها بداخله بكلماتهم القاسية ونظراتهم الجارحة، بدأ يهاجمه، ويمكن منه خوفه منهم، ومن نظراتهم القاتلة ومن الهزيمة .. ثم تردَّد صوت هاتفه من أعماقه يُخبره من بين كل هذا الضجيج:

"اصمد يا بلال أو اهرب.. لا تستسلم على أرض المضمار، لا تنهزم في المنتصف.. لا خيار.. إما الانسحاب قبل البداية أو الفوز في النهاية".

نظر عبد الرحمن إلى عيني بلال الزائغتين في قلقٍ وارتياب، ولاحظ أحمد ارتجافه في توجُّس وترقُّب، ثم حول نظرته إلى ندى التي كانت بين الحضور ترقبه في توتر ، ولكنها لم تحاول أن تظهر كي لا يرها ويتشتت أكثر مما كان عليه، ولم تكن أقل منهم قلقًا وخوفًا في هذه اللحظة العصيبة من أن ينهار الحلم الكبير والأمل الوحيد، ويتلاشى الطيف كالسراب.

صرخت رشا بعزمها تُشجِّعه، وكان عمر وأفراد البعثة يهتفون له بحماسةٍ ليثبت حماسته المهتزة، وكان المتنافسون يتخذون وضعية الاستعداد قُبيل سماع صافرة الانطلاق .. وبلال ما زال واقفًا يهتز بمكانه كأن شبحَ الخوف المتملك منه قيَّده عن الحراك .. حتى نبَّهه الحكم إلى صافرة الإستعداد.. فاتخذ وضعيته ببطءٍ شديد وارتجافٍ ملحوظ لكل الناظرين.. ظَلَّ مشتت النظر بين خطوط المضمار البيضاء التي تماهت في عينيه وتشتت و بدت له طرقًا متشعبة كأنه لا يعرف من أين يقطعها حيث لم يعد ير لها مسارًا ولا نهاية .. ثم انطلقت بعد ثوانٍ صافرة البداية.. وانطلق الجميع مِن حوله يجمحون في مساراتهم في اتجاه الفوز إلى خط النهاية إلا "هو" .. صاحب الحلم والوعد.

انتفض عبد الرحمن من مقعده مرتعدًا يناديه بكل قوته:

- بلال.. انطلق.. لا تتوقف يا بلال.. إنك تستطيع.

انهارت رشا على مقعدها تتضرعً إلى الله أن ينجيه من هذه اللحظة العصيبة.. فإن خسر هذه البطولة فستكون نهايته.

انقبض قلب حسام والتزم الصمت يرتقب بألمٍ هائل مشهد انهيار حلم ولده الكبير قبل النهاية.

ولكن عمر وعبد الرحمن وأحمد لم ييأسوا، ولم يكفُّوا عن الهتاف له مع بقية المشجعين من البعثة، ومن الجماهير.. هتافًا حارًّا يستبق الثواني العصيبة التي تمر كالدهر .. إنهم لم يتوقعوا للبطل مثل هذه النهاية القاسية.

انتفضت ندى من صمتها خاطفة إحدى اللافتات من أحد المشجعين بجوارها، ولم تكترث لتوبيخه.. فلم يعد هناك وقت للتفكير.. وكتبت على ظهرها بخط عريض.. "الحلم".

وخطف أحمد واحدة أخرى كما فعلت وأعطاها إياها وكَتَبَتْ عليها "الشمس"، وأخيرة كتبت عليها "الوعد" وكانت تلك كلمته التي قطعها بينه وبين ندى.

ورفع أحمد اللافتتين، وقد اعتلى مقعده واقفًا، وأعطت ندى حسام اللافتة الأخيرة ليرفعها أمام ناظري ولده في هذه اللحظة الفاصلة.

نظر بلال إلى اللافتات بعينيه الجامدة .. ثم رفع ناظريه إلى الشمس التي استمدَّ من وهجها نورًا حرر الطيف بداخله، انتفضت له كلُّ حواسِّه مخترقًا

جدار الثلج ليضيء عتمة عالمه، ليري من خلاله بريق حلمه قبل أن يخبو.. في هذه اللحظة كان ينصت إلى صوت هاتفه بالأعماق "لا تدع أحدًا يسبقك إلى حلمك يا بلال، إنه حلمُك أنت .. حلمك وحدك .. أنت فقط من تراه وتستطيع الوصول إليه .. إلى الشمس .. لقد قطعتَ وعدًا بالفوز.. فلا تنهزم".

واشتعلت حماسته بعينيه اللتين اتحدتا مع خطوط المضمار التي سرعان ما ترتبت و استقامت واتضح المسار، ووثب أول وثباتِه بقوةٍ العائد إلى الحياة تبعتها أخرى بقوةٍ أكبر منها، لقد بدأ الطيف يفترش الأرض متوهجًا يقطع الخطوط البيضاء ويهزم الصور السوداء حين توهجت بداخله الشمس الخامدة فوق جدار الثلج.

انطلق الطيف من عتمة القلب يشقُّ طريقًا بالغيم.. يركض خلف حلمه القصي.. بأقصى عزيمة .. وأقصى يقين يقتنص في كل وثبةٍ قوة تزلزل من تحته الأرض تحفر خطوته علي المسار ليعرف من سيعبرون خلفه أن الطيف قد مر من هنا حقيقيا لا خيالا.. وغرس بقوةٍ الحلم أملًا على طريق الألم الطويل ليرسم شعاع النور إلى منتهاه.. في لحظة توهُّج الطيف الذي وُلد بين العتمة والفجر، وأشرقت الشمس المتوارية في أعماقه، وصعدت لتتوِّج عرش السماء مهما تكاثرت أمامها الغيوم؛ فإنها مضيئة بمكانها لا يخمد نورها ولا تغرب عن القلب المتشبث بحلمه الوحيد وبالحياة، وإن كانت قد رحلت عن الأمس، فإنها لا ترحل أبدًا عن الغد.

وأشتعلت بالحماسة أنفاسه المتلاحقة، ترجّ أعماق البطل الراكض فوق نقصه وضعفه وفوق الحطام .. قاطعًا الزمن كإعصارٍ عاصفٍ يطيح بأوراق الحزن الشاحبة بالروح على جانبي الطريق لينهمر فوقها المطر.. ها هو الأمل الأخضر ينبت من بين شقوق الحزن الجرداء. رجفات قوية تتعالى لقلبٍ انتفض يتبع نوره، محطمًا قيد الخوفَ مقاتلا شبح الظلام، قلب توحَّد مع الحلم العالق به ليهزم الألم والمستحيل، ولم يعد الوصول إليه بعد الوثبة الأخيرة الباقية صعب المنال، إنها لحظة أخيرة من الصبر بعد طول الصبر .. من اشتداد الظلام قبل بزوغ الفجر.

في تلك اللحظة نادته روحه من الأعماق في لحظةٍ باتت الشمس دانية من خطوته الأخيرة.

"ها هو الحلم الذي لا يخذلني قد دنا كاملًا إلى بلالٍ المتوحِّد الذي لا يترك حلمه ولا ينقض الوعد."

لحظة فارقة جسَّدت الحلم حقيقةً وقَطْع الطيف بوثبته الأخيرة حاجز الخوف الأخير عابرًا خطَّ النهاية، مُحطِّمًا الزمن والألم والمرض والرقم القياسي.. لقد انتصر البطل على خوفه أعظم انتصار، وتُوجِّ بالفوز مستحقًّا.. وحده.. منفردًا.

برهة من الصمت والذهول الذي سبق غمرة الفرح الجارف للمشجعين مرتجفي القلوب في لحظة الفوز الكبير، ليعيشوا الحلم مرةً أخرى و قد أصبح

الحلم حقيقة، وقد ذاب جدار الثلج من القلب الوحيد، لحظة اجتمع العالمُ في عالم الحالم، المتوحِّد البطل المؤمن بذاته.. ليشهد الجميعُ كيف انتصر علي نقصه.. لقدَ صار الطيف في قمة توهجه من الأرض إلى عَنان السماء.

تُوِّج بلال بطلًا أوليمبيًّا ..مُحطِّمًا الرقم القياسي ..وسط ذهول مشاهديه ومنافسيه ومحطمي إرادته المتربصين، وكانت إشادة العالم بهذا الفوز المستحق عن جدارة . لقد فاز الإصرار على الانكسار، والتحدي على الانهزام، وتكرار العزيمة بعد كل خسارة هو أعظم انتصار.. فاز الذي لم يخذل حلمه، ولم يتركه للضياع رغم الألم والوصم.. فلم يتركه حلمه، ولم يخذله كما خذله العابرون. اليوم صار الطيف نجمًا، صار حقيقيًّا في أعين الناظرين.. وحفر "المتوحِّد" اسمه بين الأبطال "وحده".. "وحيدًا".. محطمًا حواجز النقص والخوف والقيود وحفر فوزًا ساحقًا وترك بين الأبطال اسمًا للخلود.

انتفض المشاهدون والمشجعون والمزايدون الخاسرون رهانهم والمتاجرون بما ظنوه ضعفًا ومرضًا ليقفوا تحيةً للبطل، وقفة ثناء واحدة إجلالًا وتقديرًا وفخرًا لهذا المتوحُّد الذي رفع فوق صرح حلمه علم وطنه فوق الأوطان.

هتفَ مدربُه وأخوه وأصدقاؤه وطبيبه وطاقم البعثة الوطنية الذين لم ييأسوا رغم الخوف الذي أرهبهم من الهزيمة ..هتفوا ابتهاجًا وفرحًا بالبطل، تقافزت دمعةُ تقديرٍ وحبٍّ عميقة من عيني الأب الفخور بولده المنتصر على ضعفه، بينما انهمرت سحابة فرحٍ من قلب الأم المؤمنة بولدها المودِّع لكل لحظة ألمٍ مرَّت بالعمر الطويل حينَ حطَّمها مع الرقم القياسي.

وقف بلال بثبات المحارب المنتصر على أرض المضمار يجول بثبات نظرته حول الشمس ليرى طيف الفرح وهو يلتفُّ حولها .. يعانقها، ينظر إلى السعادة التي غمرت وجوه الحضور، وقد ارتاح القلب المسكين وسكن.. ولكنه كان يبحث من بينهم عن شمسٍ تمنى سطوعها في تلك اللحظة ليخبرها أن بلالًا قد أوفى بالوعد.

اعتلى البطلُ منصة التتويج ساطعًا بين النجوم وسط احتفالية عالمية في لحظة تسلُّمه الميدالية الذهبية.. رافعًا اسم وطنه متوِّجًا فوق رؤوس الأوطان. لم تتوقف رشا لحظة عن البكاء فرحًا وامتنانًا وهي تُخلِّد تلك اللحظة الغالية، وما إن خرج إليها ولدها مُتوَّجًا بالميدالية الذهبية حتى ضمَّته إليها بفرحٍ غامرٍ من القلب العليل الذي زالَ عنه ألمُه الطويل بعد عودة الروح للحياة، تشكره من عميقها؛ لأنه كان دومًا بحياتها أمل مثمر وفرحة لا تعوَّض ولا تُقدَّر بثمن.

ثم احتضنه حسام بعمقٍ بعد فتور طويل، بعد عمر من العناء تخلَّله شبح الاعتياد والجفاء، وأخبره كم كان، وسيظل دائمًا به فخورًا.. أما عمر وعبد الرحمن وبقية الأصدقاء وطاقم البعثة فقد هتفوا باسمه ابتهاجًا، واحتضنوه فخرًا وفرحًا عميقًا من القلب. ثم جاءت تهنئة أحمد المؤمن به، لطالما كان دومًا يؤمن بقدراته الفائقة ثم دعاه للخروج احتفالًا بهذا الفوز الكبير إلى مكان تزيَّن لاستقبال البطل، وقد تحمَّس أحمد وأخبره أن هناك مفاجأة كبيرة في انتظاره.

وذهب الجميع إلى حيث المكان الأسطوري المتلألئ بأنواره البراقة الباهرة من الخارج المشع بداخله بوهج تغلغل إلى روح بلال بشعور غريب من الحنين، حين وقف البطل ينظر إلى بساط الثلج، ينصت إلى لحنه المُحبَّب إلى قلبه، الذي بدأ يسري إليه في ترنيم بدأ يُحرِّك فيه تلك الذكرى الساكنة بالروح.. ثم رُفع الستار عن أرض الجلِيد لتتجسد صورة من الماضي البعيد، ذلك الحلم الذي سكن القلب الوحيد طويلًا، إنها صورته هو و"ندا" النجمة البعيدة عنه التي توهَّجت اليوم لتقترب من نجمها في سمائه ، ليتوحَّد طيفاهما المتوهجان على بساط الثلج من جديد بعد طول الغياب ، وظهرت ندا فوق الجليد تدور بمزلاجيها حول الحلم ، تنتظره بشغفٍ، تنظر إليه بشوقٍ وفرح، ليُعلن الحبُّ الحقيقي اليوم مولَده بعد عمر من الصمت، حيث لم يكن هناك كلمات يدركانها كانت يمكن أن تصف سريانًا بين قلبين توحَّدا وتوهَّجا معا ولم يفارقا حلمهما إلى ما بعد الفراق.

وندا الرقيقة الحالمة تُحلِّق فوق الثلج كحمامة سلام تحمل زهرة بيضاء على غصنها الأخضر النَّضر، وقد عبرت بها حدود الزمان، ودوامات الآلام والمكان، لقد جاءت تتبَّع حُلمَها مع نجمها، وقد بزغت في عينيه كالفجر بعد طول ظلام.. لقد عادت شمسُه الحقيقية تُعانِق القلب الوحيد، ترافقه إلى نافذة السماء.

اقتربت (ندى الأم) من بطلها وهي ترقب شغفه.. وربتت بيدها الحانية على كتفه ، وهو مُحدِّقٌ بفرح إلى (ندا الحلم)، وهي تُحلِّقُ علي الثلج حقيقة

متجسِّدة أمامه في انتظاره.. التفت بلال في هدوء ينظر إلى عيني ندى الأم نظرة حبٍّ أذابت الجمود بينهما وأذابتها ..عانقت نظرتها التي كانت ترتشف من عينيه فرحًا وحبًّا يرويها..قبل أن يرفع قلوعه من بحور عينيها اللتين حفظتا خطوط ملامحه وتفاصيله عن ظهر قلب؛ لتضيء بها عالمها من الذكريات بعد أن وجد شاطئه ومرساه، ثم قالت له بامتنانٍ وحبٍّ عميق:

– سأذكرك طيفًا فوق الثلج، يُعانق نجمته الساحرة في كل ليلةٍ مقمرة، في رقصة الثلج الأولى والأخيرة.

– اذكريني كطيف باهت علي جدار ثلج توهج قدرًا في عينيكِ.

قالها بلال وابتسم لعينيها، ثم عانقها عِناقًا عميقًا طويلًا.. في حنان أفاض من روحه ليضيء روحها يغمرها ويغنيها بقية العمر.

ثم التفتَ إلى شمسه الساطعة ، وتوهَّج الطيف مجددًا، وراح يجوب بساط الثلج صوب حبيبته؛ ليلمس يديها اللمسة الأولى، ويُعانِق عينيها عشقًا بالنظرة الأولى، ويترقرق من قلبه نهر دافق إلى قلبها النابض بعد الجمود الطويل للمرة الأولى، ليقول لها كلمة الحب الأولى، بعد الصمت والغياب، بعد أن عرفها و أدركها، وعرف كيف ينطقها، وقد تحرَّرت بينهما الأحرف كنجماتٍ تلألأت في ثنايا الروح؛ لتضيء أملًا مُنتظَرًا جاء مع موكب العشق الكبير، أعلنته الخفقة الأولى ..ها هو الحلم القديم يتجسد اليوم فوق جدار الثلج؛ يلتفَّ حول القلبين المتوحدين، يُضيئهما ويجمعهما في سلام.

وقف حسام بجوار ندى ينظر إليها بحبٍّ تحرَّر اليوم من سجنه المدفون تحت أنقاض الزمان، قائلا لها في حنان:

- لقد أهديتِ بلالًا نجمته.. ولطالما كنتِ أنتِ نجمتي التي لم أستطع الوصول إليها، وإني لم أعد أرَ سواها.. مهما تمتلئ السماء بالنجمات.

ابتسمت ندى وهي ما زالت تنظر إلى بلال وندا في رقصتهما الحالمة على الجليد، وردت عليه في هدوء:

- رغم أنك لا تستحق أن يكون لك هذا الطيف يسري بين القلوب.. فإنني أحببتُه؛ لأنه القطعة الوحيدة النقية منك.

كانت رشا تشعر بالسعادة والسكينة لسعادة ابنها العائد إلى الحياة بطلًا، فارسًا وعاشقًا. ثم تقدَّمت وهي ترى ندى وحسامًا معًا بنظرةٍ مختلفةٍ، وابتسمت لها في ودٍّ لأول مرة وهي تمسك يدها مقاطعة نظرات حسام العاشقة قائلة:

- لقد أحبَّك حسام حبًّا حقيقيًّا، لقد كان من الخطأ ان يقتله حيًا وقد أدركتُ أن هذا الحب لم يمت حين سكن قلب ولدي رغم طول الفراق، وأدركتُ بعد كل شيء حدث أنه مشيئة القدر الذي لم يكن ليملك أيٌّ منا عليه سلطانًا.. فلتغفري يا ندى .

ردَّت ندى وما زالت الابتسامة تُتوِّج وجهها المشرق:

- أنتم وطنه الحقيقي الذي كان يفتقد إليه وإليه قد عاد، واتخذت قراري منذ زمن بعيد، واخترتُ طريقي.

- سامحيني يا ندى واقبليني .. سوف أمحو معك كل الحزن والآلام.. وسوف نملأ حياتنا الباقية معًا بالحب والسعادة.

قالها حسام متعلقًا بآخر أملٍ له في الغفران.

ابتسمت ندى له ولرشا، وقد غمرها شعور الحب العميق غير كلِّ مرةٍ حين غمرها شعور السكينة والأمان.. وقالت وهي تنظر في أعينهما بابتسامة حقيقية زال عنها الألم المكين:

- سامحتُكما من أجل هذا الطيف الذي سكن قلبي وأحياه.

- لنتزوج يا ندى.

قال حسام في محاولة التمسك بالأمل الأخير. واستطردت رشا رغم غصَّة الألم وهي تنظر إلى شغف حسام بها، ثم التفتت إليها.. وقد هزمَ فيضُ الحبِّ والسكينة هذا الألمَ في تلك اللحظة.

- اقبلي يا ندى، ما زال للحب في قلبكما مكان وبقية.

ابتسمت ندى لعيني حسام العاشقتين بنظرتها الأخيرة المُودِّعة، ثم عانَقتْ رشا عِناقًا عميقًا حانيًا.. وهي تُلقي نظرة الحب الأخيرة على الطيف المتوهِّج على بساط الثلج تغبطه وهو يسعد مع نجمته المتلألئة بين يديه.. ثم ودَّعته بدمعة حبٍّ ممتزجة ببسمة امتنان من قلب الأمِّ الذي أضاء به وقالت:

- يبقى الحب أجمل عندما يكون طيفًا.. حرًّا.. فيضًا عذبًا يغمر الجميع.

ثم مضت في طريقها الذي رسمته من نقطة النور التي بدأتها بعد هذه اللحظة لتكمل مشوارها الطويل من بعد ثغرة ظلام.. لتظل النجمة الساطعة حُرَّةً في سمائها تفيض سحرًا يغمر القلوب بكلماتها الصادقة التي تبعث أملًا حقيقيًّا يفوح من بين السطور للحالمين.

شكرها أحمد قبل مغادرتها ممتنًا لكل ما فعلت واحتملت من أجل بلال كي يبقي طيفًا ساطعًا علي جدار الثلج..و كان عمرو حاضرًا معها يتبع المشهد فخورًا، وفَرِحًا بنجمته العائدة للسماء بعد أن تصالحا، وقد قدَّم لها اعتذارًا بعدما استعادت مكانتها بين جمهورها بعد تعاطُفهم في المؤتمر الصحفي .. ثم تَبِعَها في طريقها للخروج من المكان بعد أن ودعتهم وودعت طيفها وقال مُداعِبًا:

- وماذا عن "عمر".. الفرد الأخير في هذه العائلة؟

ابتسمت ندى وهي تقول له في غمرةٍ من الفرح والسكينة:

- لم يَعُدْ بقلبي مُتَّسع لحبٍّ عادي أقل من الجنون، الآن قد أُسْدل الستار على المشهد الأخير من قصة طيفٍ على جدار الثلج.. واليوم كُتبت نهاية الرواية، وكَتَبَ بلال البداية.

تمت

د.هند فؤاد